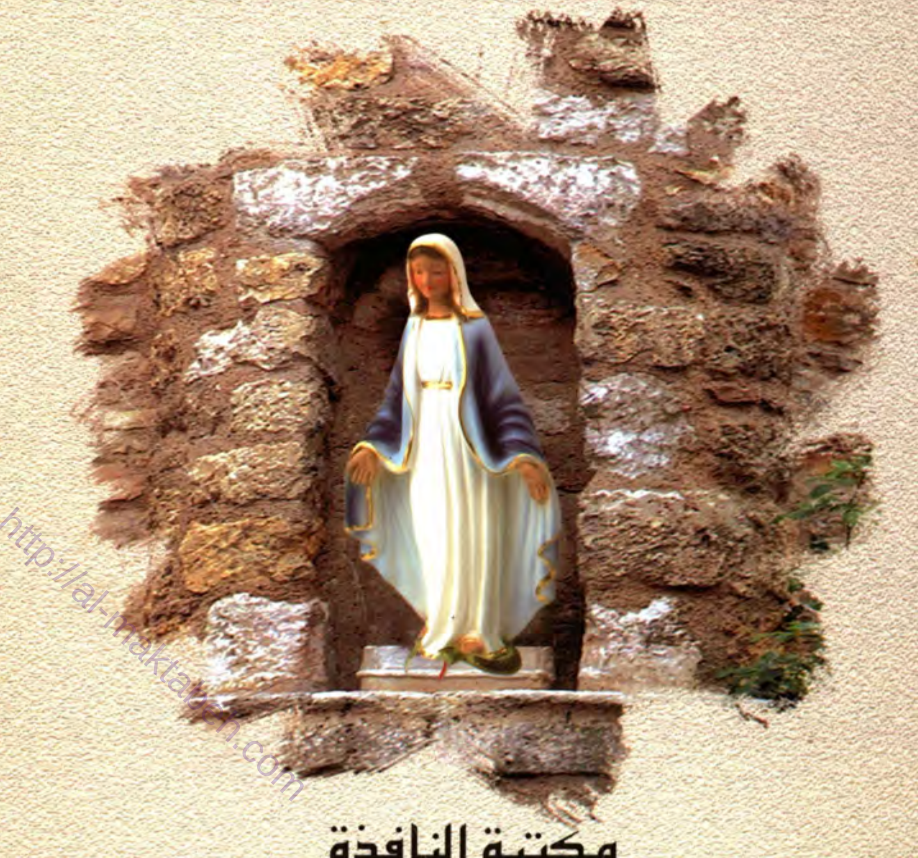
حسنى يوسف الأطير

سر مريم

بين الإنجيل والقرآن

طبعة جديدة مزودة بالوثائق النادرة



مكتبة النافذة


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

سِرُّ مَرْيَمَ

بَيْنَ الإِنْجِيْلِ والقُرآن

تأليف

حسني يوسف الأطير

الناشر

مكتبة النافذة

سرُّ مريم بين الإنجيل والقرآن

تأليـــــف: حسني يوسف الأطير

الطبعة الثانية : (٢٠٠٢)

رقم الإيـــداع: ١٨٩٤٢ / ٢٠٠٢

الناشر: مكتبة النافذة

المدير المسئول: سعيد عثمان

الجيزة ٢شارع الشهيد أحمد حمدى

الثلاثينى(ميدان الساعة) - فيصل

تليفون وفاكس: ٧٢٤١٨٠٢

alnafezah@hotmail.com

مقدمة الطبعة الثانية

بعد حوالي عشرة أعوام من طبعته الأولى يصدر «سرُّ مريم» في طبعة جديدة. ليس من اليسير أن تضيف إلى كتاب واضح الفكرة، محدّد المعالم، حتى وإن وقفت على بعض الشواهد والنصوص التي تعزّز غايته.

وليس من عادتي الحرص على الإضافة إلى طبعة جديدة لكتاب طُبع لي من قبل، ما لم يطرأ جديد في المعلومة أو الفكرة يقتضي المراجعة أو التصحيح. فإن لم يكن لم أعبث به، خاصة إذا طالت الفترة.

على أية حال، فالذي يعني القارئ الكريم أن أخبره الآن أن الكتاب لا جديد في فكرته ونصّه. وكل ما هنالك إشارتان أكتفي بهما:

الأولى: ما تعرّضت له مريم في السنوات الأخيرة عند المسيحيين الغربيين من خدش لعفافها وقداستها بادّعاء أنه كان لها عشاق، خصّوا منهم بالذكر والاهتمام ذلك الجندي الروماني المدعو «بانتيرا» الذي زعموه أبًا ليسوع!

وقصة هذا الجندي الروماني مذكورة في كتابنا هذا عن أصولها القديمة في الكتب اليهودية والوثنية المعادية للمسيح وأمه. لكن العجب أن المسيحيين الغربيين يصل بهم الاستخفاف أن يردّدوا اتهامات قال بها اليهود ضدّ المسيح ومريم، وهم المنكرون له، والساعون إلى صلبه وقتله، والمشنعون عليه وعلى والدته بأبشع التهم.

يفعل الغربيون ذلك مستجيبين لنزوات اليهود وأهوائهم في ضرب المسيحية والمسيح؛ في الوقت الذي يحاربون فيه الإسلام، ويضربون ديار المسلمين الذين جاء قرآنهم يمجّد المسيح وأمه، ويدفع عنهما ويدين اليهود، ويشهد للإنجيل. والآن فإن السؤال هو للمسيحيين: إلى أين أنتم ذاهبون؟!

أما الإشارة الثانية: فهي بشأن وثيقة «كهنوت المسيح» التي نشرتها في «سر مريم» في الطبعة الأولى الصادرة سنة ١٩٩٤؛ إذ اطلعت على نشرة صدرت بمصر سنة ١٩٩٩ لمجموعة مجلدات كتاب «تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية»، وكنت قد

نقلتُ نص الوثيقة المذكورة من المجلد الأول الذي كتبه المؤرخ القبطي ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين والذي عاش في القرن العاشر للميلاد، ونقل بصدر كتابه تلك الوثيقة التي يبلغ عمرها الآن - أعني سنة ٢٠٠٣ للميلاد - ١٦٤٠ عامًا (ألفًا وستمائة وأربعين عامًا). وكانت المفاجأة أن رأيت هذه النشرة الجديدة وهي من إعداد نفس الشخص وقد أسقطت تمامًا النص الكامل لهذه الوثيقة (وثيقة كهنوت المسيح)، فضلا عن إسقاط المقدمات الأربع السابقة عليها: هل ذلك مقصود؟ هل هو صدفة؟ لا أدري!

كل ما في الأمر أنني رأيت توثيق ذلك النص (وثيقة كهنوت المسيح) بإضافة تصوير للنص الأصلي وفاء بحق العلماء والباحثين وسائر الدارسين والقراء.

وبالله التوفيق

حسني يوسف الأطير

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الطبعة الأولى

أهمل المسيحيون تمامًا منذ القرن الرابع للميلاد أي اهتمام حقيقي بالتناول التاريخي لشخصية مريم الناصرية والدة المسيح، وكرسوا اهتمامهم الأكبر على الجانب الطقسي والعقائدي بشأنها. فمنذ استقر أمرهم بعد مجمع نقية سنة ٣٢٥ على تأليه المسيح اندفعوا في تمجيدها وتقديسها، حتى تم ذلك على نطاق العقيدة الرسمية في مجمع أفسس المنعقد ضد نسطور سنة ٤٣١ حيث تجاوزوا في شأنها كل احتياط وحكمة داعين إياها «أم الإله» Theotokos، ومن ثم اتخذوا منها وسيطًا بين الناس وابنها الإله المتجهين إليها بالصلوات ومبتهلين بالأدعية والاستشفاعات، في كافة أحوالهم، وما يلمّ بهم من أحداث وخطوب.

وقد أضربت الكنيسة تمامًا عن أي تناول تاريخي يستهدف التعريف بصورة مريم كما عرفها أهل زمانها، فلم تعبأ بذلك، وعمدت بإصرار إلى تجاهله، وصرف الأنظار عنه، كأنها تستشعر فيه خطرًا جسيمًا يتهدد كيان العقيدة التي تدين بها.

على أن الباحث في نشأة العقيدة المسيحية لا بد له من التعرف على شخصية مؤسسها، وأعني به المسيح الناصري الذي تنسب إليه. وعندنا أن التعرف الصحيح عليه لا يوافق الحقيقة والتاريخ إلا أن يبدأ أولاً بالتعرف على صورة والدته وأسرته في نظر معاصريهم من بني قومهم، وأهل العلم بهم، ذلك أن الأمر يختلف اختلافًا كبيرًا بين انعكاس الصورة الطيبة عنهم عند الناس، وانعكاس الصورة السيئة. ويسهم ذلك إلى حد كبير في تقرير الموقف من رسالته، ومن الأسلوب، أو المسلك الذي يتخذونه معه أو يتخذونه بشأنه.

لذلك فإن صورة مريم في نظر معاصريها هي المدخل الوحيد الصحيح للتعرف على صورة المسيح الناصري في نظرهم. وإنّ تجاهُل هذه الصورة لمريم كمدخل لدراسته شخصًا ورسالة، يحجب تمامًا وبالكلية تلك الصورة التي رآها معاصروه له، وتعاملوا معه على أساسها، بصرف النظر عن الحقائق في ذاتها كما ندين بها الآن. ويترتب على ذلك بالتالي التأثير على مدى إدراكنا لأسلوبه في المواجهة معهم،

ومسلكه إزاءهم، وموقفه من كافة الأحداث التي صادفته وألمت به.

إن أحدًا من الباحثين المسيحيين أو المسلمين لم يهتم، وللأسف البالغ، بالبحث عن تلك الصورة التاريخية المفقودة لكل من مريم والمسيح، وعن صدى ذلك على دعوته ومواقفه من مواطنيه، وبني قومه، ومدى ما انعكس من آثار ذلك في سياقات الأناجيل المعتمدة.

ومن الطبيعي بعد ذلك أن تقل أو تنعدم المصادر المسيحية التي تعين على إدراك تلك الصورة التاريخية التي يتطلبها البحث بشأنهما، ولا يتيسر أي تناول لإحدى الشخصيتين أو كليهما ممًا خارج الإطار الطقسي والعقائدي الذي يتعلق بالغيبيات.

ولعل الموقف المسيحي في رفض الخبر القرآني بكلام المسيح في المهد، والصلابة الشرسة التي يتسمون بها في إنكار ذلك، وإحالتهم إلى الأناجيل الأبوكريفية، وأنها مصدر ذلك القول، لعل كل ذلك يحمل دلالته الصريحة على مدى ذعرهم من معرفة حقيقة مريم كما بدت لمعاصريها. وما إنكارهم لذلك الأمر إلا لوعيهم بأن ذلك يلزمهم الاعتراف بدواعي وقوع تلك المعجزة بما يترتب عليه من تكذيب أناجيلهم، وخاصة إنجيل متى، والإقرار بأن مريم الناصرية والدة يسوع الذي يتعبدون له قد حاقت بها فضيحة كبري وشناعات بغير حدود، استوجبت ذلك الحدث الخارق الذي ينكرونه تحرزًا من المساس بشخص العذراء حسب تمويهاتهم على أتباعهم المخدوعين.

على أن الحرص على تكريم العذراء وتنزيهها من أي طعن، أمر عقائدي يلتزم به المسلم. والمسلم وحده دون هؤلاء النصارى واليهود من قبلهم هو الذي يحرص على توقير كافة الأنبياء والشخصيات المقدسة التي ورد لها ذكر في كتابه. وعندما نقرر أن مريم قد افتضحت، وتناوشتها الألسنة بالشناعات، لا نعني أنها أهل لذلك، وإنما نقدم الخبر الصحيح من الكتاب العزيز، ونقرنه بأدلته التي تشهد لصحته، مستهدفين فقط أن نكشف الصورة الحقيقية لمريم وابنها كما بدت للناس في مجتمعهما اليهودي في ذلك الزمن. ونستدرك بذلك على تلك الجريمة البشعة في حق الدين والتاريخ التي ارتكبتها الكنيسة، وتستّر عليها علماء المسيحية، بإخفاء تلك الصورة وإنكارها، وتحريم البحث بشأنها.

لذلك كان من المتعذر علينا أن نتمكن من أي تناول تاريخي لهما، لأن التاريخ وقائع وأحداث تترابط وتتشكل وتتعاقب في إطار الزمن، والكنيسة للأسف قد حرصت على تدمير هذا الإطار، وإبادة كل ما يعين على استرجاعه.

وكمحاولة منا للتنبيه على تلك الصورة المفقودة قمنا بهذه الدراسة التي لا نعلم أن أحدًا سبقنا إليها، وأدرك خطرها، ونصح بها.

أما مصادرنا فقد كان على رأسها الأناجيل الأربعة المعتمدة.

ثم تلوناها بشهادة الأناجيل الأبوكريفية كما تمثلت في إنجيل يعقوب.

ثم التمسنا شهادة التلمود، وهو مصدر لا يستطيعون دفع أهميته، لأنه الشاهد الوحيد بعد الأناجيل الذي يلتجئون إليه للاستدلال على الوجود التاريخي لمسيحهم، وما اتصل به من وقائع القبض والصلب.

ثم جئنا بعد ذلك بشهادة التراث المسيحي العام، واقتصرنا فيه على شهادة التراث القبطي في وثيقة «كهنوت المسيح» عند ساويرس بن المقفع، ووثيقة ابن سباع في صوم عيد الميلاد.

ثم ختمناها بشهادة التراث الإسلامي باعتباره مصبًا للتراثين اليهودي والمسيحي فيما تناقله منهما بشأن مريم والمسيح.

وقد قدمنا تلك الإثباتات التاريخية كشواهد وأدلة لتعضيد الموقف القرآني الذي صرح باتهام مريم من بني قومها، في مواجهة رواية متى التي زعمت أنها لم تتعرض قط لأية شبهة أو اتهام، وأن ولدها المسيح قد نشأ من ثم نشأة طبيعية، ولم يعان بسببها من قومه، سواء في مراحل حياته الأولى، أو إبان رسالته.

إن هذه الدراسة لا تستهدف بحال أي مساس بشخص مريم أو المسيح ولكنها تستهدف فقط أن تكون محاولة للتعرف على صورتهما في نظر معاصريهما من بني قومهما، ومن ثمة إمكان التعرف على انعكاس ذلك على أحوال المسيح، وعلى تعاليمه أو مصيره كما جاءت بها رواية الأناجيل، وأخبار القرآن.

وأخيرًا فقد يكون بإمكاني أن أقول إن المشقة كبيرة في هذا الطريق، لكن الثمرة

تستحق المحاولة إذا كنا حقًا نتطلع إلى أن نتعرف على الصورة الحقيقية لهاتين الشخصيتين المقدستين في المسيحية والإسلام معًا كما بدت في نظر قومهما من اليهود المعاصرين، وما يمكن أن يترتب على ذلك أو يتفتق عنه، من حقائق واعتبارات عند النظر بشأنهما في القرآن والإنجيل.

وقد أسميت الكتاب : «سر مريم بين القرآن والإنجيل»، لأن صورة مريم كما انعكست في نظر معاصريها، وكما سبقت إلى أوهامهم وظنونهم، منذ حملها وولادتها ليسوع، كانت تنطوي على سر لم تجهر به، وأدى كتمانه إلى أن تلازمها تلك الصورة الخاطئة عنها طوال حياتها وحياة ولدها، وانعكست على مواقفهم منه ومن رسالته. وكان القرآن هو المصدر الذي استضأنا به في الاهتداء إلى ملامح تلك الصورة، وترجيح الرواية الإنجيلية الأقرب - إلى حد ما - إلى الواقع في أحداث الميلاد كما جاءت عند لوقا، ثم في الإشارات الإنجيلية والتاريخية الأخرى التي أتينا بها في هذا السياق.

وإني أهيب بالباحثين والعلماء أن يقتحموا هذا الباب، فإنه بالغ الخطر والأهمية، ويمكن أن يعين على صوغ حقائق كثيرة في إطار جديد، قد يفيد منه أصحاب الأديان الثلاثة في وجوه متعددة.

وبعد .. فحسبي أن يكون كتابي هذا مقدمة متواضعة في هذا الطريق.

والله الموفق...

حسني يوسف الأطير

القاهرة: ١٥ شعبان ١٤١١هـ

٢ مارس ١٩٩١م


ثناء.. وثناء

ثناء القرآن على مريم

كرم القرآن مريم، فذكر اسمها دون كل النساء، مقرونًا بالخير والفضيلة!
وآثرها بثناء خالد لم تظفر به امرأة قبلها، ولا يكون أبدًا لامرأة من بعدُ!

وحكى قصة نشأتها، فإذا هي معزوفة جميلة من البيان القدسي يتدافع أمواجًا من نور وطهر ونقاء:

إنه ليذكر أن هناك من البشر من رفع الله عنه سطوة الشيطان، وآتاه من سلطان الروح والقداسة ما يعلو به على الإحساس الجسداني، والنزعات الطبيعية. وذلك الذي اصطفاه الله وآثره بهذا الفضل العظيم هو مريم ابنة عمران، وولدها المدعو عيسى المسيح. يقول الكتاب في ذلك:

﴿ذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ .

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ .

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا . . .﴾[(١)].

إن والدة مريم تستعيذ بالله عز وجل ليقي ابنتها، ومن يولد منها من بعد، من سطوة الشيطان.

وكون القرآن يذكر الدعاء على لسان والدتها يعني الاستجابة، وأن ذلك كان مما سبق به القضاء حتى أجراه على لسانها كأمر واقع لا دفع له.

روى البخاري عن أبي هريرة: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخًا من مس الشيطان، غير مريم وابنها».

(١) آل عمران: ٣٥ - ٣٧ .

«ثم يقول : (الأصح: يتلو) أبو هريرة: وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم».

ونفس الحديث رواه مسلم:

مريم إذن قد أُعفيت من سطوة الشطان، وأُفردت بذلك وحدها من دون كل نساء العالمين.

وابن مريم أيضًا قد أُعفي من سطوة الشيطان، وأُفرد بذلك وحده من دون كل رجال العالمين.

أي طهر إذن، وأي قداسة، وأي نقاء!

روحان تحررا، وراحا يعلوان ويعلوان طليقين في معارج الأنوار!

روح شرفت به وتسامت إليه، كل نساء العالمين.

وروح شرف به وتسامى إليه، كل رجال العالمين.

وتلك إذن قسمة عادلة.

وهنا أيضًا لا بد من وقفة منصفة.

فقد راح المسيحيون يتيهون بهذا الثناء القرآني بإعفاء مريم وابنها من سطوة الشيطان، وما جاء في بيانه من أثر عن الرسول ﷺ ليشبعوا حاجة في صدورهم، وليصرخوا بإدانتهم للجنس البشري كله، وعلى رأسه الأبوان آدم وحواء، وأنهم بسبب أكل الأبوين من الشجرة، قد شملتهم جميعًا لعنة الخطيئة، ولوثهم الشيطان.

وهكذا قضوا بأن المسيح أفضل من آدم، ومريم أفضل من حواء.

على أن القضية في القرآن ليست قضية مفاضلة بين آدم والمسيح، أو بين مريم وحواء، ولا ينبغي أن تكون.

فالقرآن لا يقول بميراث الخطيئة، كما تقول المسيحية، ولا يؤسس عليه بناء عقيدته.

وفضلاً عن ذلك فإن المفاضلة تصح عندما تستوي طبيعة هذا وطبيعة ذاك، ثم

يعلو أحدهما بجده وورعه على قرينه.

لكن عندما تختلف الطبيعتان خلقًا، وتتفاوتان، فالمفاضلة لا تصح، لأن أفضلهما لم يخلق لطبيعته ما يفضل به على الآخر.

وآدم لم يَخْلُقْ لطبيعته الزيادة في قوة الإحساس بالغريزة النوعية، ولا خلقتها لنفسها حواء.

وعيسى لم يرفع من طبيعته قوة الإحساس بتلك الغريزة النوعية، ولا رفعتها عن نفسها مريم.

وإنما الذي خلق الأبوين، وأودع فيهما عنفوان الإحساس بذلك، هو الله الذي خلق الأخيرين، ورفع عنهما عنفوان ذلك الإحساس.

لأن القضية قبل كل شيء قضية مواءمة بين الشخص والمهمة، أو بين العضو والوظيفة.

وآدم وحواء خلقا أصلاً ليسكنا الأرض، ويعمراها بالأبناء والذرية، ويحققا فيها إرادة الخالق عز وجل عندما قال ـ حسب الكتاب الذي يؤمن به المخالفون:

«وقال اللهُ: نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا - فيتسلطون على سمك البحر، وعلى طير السماء، وعلى البهائم، وعلى كل الأرض، وعلى جميع الدبابات التي تدبّ على الأرض».

«فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه. ذكرًا وأنثى خلقهم. وباركهم الله، وقال لهم: أثمروا، وأكثروا واملأوا الأرض، وأخضعوها وتسلطوا على سمك البحر، وعلى طير السماء، وعلى كل حيوان يدبّ على الأرض»[١].

فما فعله آدم وحواء قضاء مفروغ منه بشأنهما قبل خلقهما حسب شهادة ذلك الكتاب، ومن ثم لا لوم فيه، ولا إثم، ولا خطيئة، على سبيل الدوام والتأبيد الذي يقول به المسيحيون، لأنهما لم يزيدا على إنفاذ المراد الإلهي المسبق بصدق الإحساس فيهما، وسلامة الطبع، ونجاز الأفعال.

(١) سفر التكوين: ص ١ : ٢٦ - ٢٨ .

فأما مريم وابنها فكانت لهما مهمة مختلفة، لأنها مهمة روحية لهداية البشر على نحو من أنحاء شتى من مسالك الرحمة الإلهية التي لا تحصر، ولا تُحدّ، بما اقتضى أن تكون الأم وابنها على السواء على نحو من الخلقة والطبيعة يوافق ما قُدّر لهما أن يقوما به، بما في ذلك الاعتدال في الإحساس بتلك الغريزة.

أيفضلان إذن على الأبوين؟

لو صح لزاعم أن يفضلهما، لكان غيره أولى بتفضيل الأبوين عن استحقاق، لأنه لولا وجودهما، وتناسلهما، لما كان لمريم وابنها دور، ولا كان لهما من وجود.

إن الغصة التي يتحشرج بها المخالفون هي حرصهم على تأليه ابن مريم، فيكابرون في كل ما لا يؤدي بهم إلى غايتهم. فلندعهم ونمضي فيما نحن بصدده.

لقد حكى القرآن أيضًا أن مريم قد خاطبتها الملائكة:

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾.

﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾[1].

ما أعظم الخبر، وما أكبر دلالته: مريم تخاطبها الملائكة!

لقد زالت الحجب إذن، وانداحت الظلمات، ولاحت الحقائق، وتكشفت ضمائر الغيوب!

أي مجد بَلَغتِهِ أيتها البتول الطاهرة، وأي شموخ، وأي ارتقاء!

لا عجب إذن أن تصير مريم هي الأنموذج والمثال للنساء المؤمنات:

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾.

﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾[2].

(١) آل عمران: ٤٢ - ٤٣ (٢) التحريم ١١ - ١٢ .

وفي أثر عن الرسـول ﷺ: «.. كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم ابنة عمران، وآسية امرأة فرعون».

وصارت مريم وابنها معًا وجهين لمعجزة واحدة:

﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾(١).

ومريم «صِدِّيقة» حسب قول الكتاب العزيز:

﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ ﴾(٢).

نعم، هي «صِدِّيقة»، لكنها تفرّدت بإيمانها وقداستها، وعلت بصبرها ومعاناتها، على كل الصدِّيقين والصدِّيقات في تاريخ بني آدم وحواء.

والوقع أن لقب «الصديقة» بشأن مريم لا يأتي عفوًا، بل يحمل في طياته دلالة المحنة والألم، وعذاب التجربة والمعاناة في حياتها مع الناس.

فلم يظفر بهذا اللقب في القرآن إلا ثلاثة فقط على كثرة الأنبياء ممن ذكر أو لم يذكر:

كان أول من ظفر به إبراهيم الخليل عليه السلام حيث قال:

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾(٣).

ثم ظفر به يوسف بن يعقوب، حيث قال:

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾(٤).

ثم ظفر به إدريس وهو النبي إلياس - حسب قول أكثر الصحابة - حيث يقول:

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾(٥).

---

(١) الأنبياء: ٩١ .
(٢) المائدة : ٧٥ .
(٣) مريم: ٤١
(٤) يوسف: ٤٦ .
(٥) مريم : ٥٦ .

وكل واحد من هؤلاء الثلاثة داهمته المحن، وألمت به الخطوب، وزلزلته الأحداث، واعتصره الألم والمعاناة، فصبر للبلاء، وثبت على الإيمان، ولم ينقض وعده لربه، ولا نكث بعهده معه، فمن ثمة صار «صدِّيقًا» لأنه حرص على الصدق فيما وعد به، وتحرى الوفاء، متجاوزًا حظ نفسه، راغبًا في مرضاة الله.

أيدلنا هذا إذن على المخنة في حياة مريم واستهدافها للبلاء، وصبرها على قدر الله لها بسبب حملها العجيب؟

نعم.. إن القرآن في كل ما ذكره بشأنها يؤكد هذه الحقيقة، ويلمح إلى تلك المعاناة التي زلزلت كيانها، وأصابت وجودها في الصميم، فما اهتزت، ولا فقدت يقينها بكلمات الله، وصدق وعوده.

* * *

ثناء الإنجيل

وأثنى الإنجيل على مريم في نسخة لوقا، وجاء بالثناء على لسان الملاك «جبرائيل» الذي أبلغها البشارة:

«فدخل إليها الملاك وقال: سلام لك أيتها المنعم عليها، الرب معك. مباركة أنت في النساء»[١].

وعبارة: «مباركة أنت في النساء» تحوم حول أصالتها في هذا الموضع شكوك قوية، وأغلب الترجمات الحديثة والمعاصرة تسقطها، حيث تراها مضافة أو مدسوسة، حسب الأصول التي بين أيديهم[٢]. وإذا التفتت إليها قلة من هذه الترجمات علقت عليها في الهامش بدلالات مختلفة، فإحداها مثلاً تذكر أنها مضافة في نسخ «متأخرة»[٣]، وأخرى تذكر إضافتها في نسخ «قديمة معتمدة»[٤].

وهكذا لا يبقى من جملة ثناء الملاك إلا قوله: «سلام لك أيتها المنعم عليها. الرب معك».

ولما حاورت الملاك مستغربة ما يبشرها به، قال لها: «الروح القدس يحل عليك وقوة العلي تظللك..»[٥].

وهذه صيغة إخبارية عن كيفية الحدث، ولا تحتمل دلالة الثناء، اللهم إلا من حيث تقدير كونها أهلاً لذلك، من حيث النقاء والطهر والاستقامة.

---

(١) لوقا: ص(١ : ٢٨).

(٢) انظر الترجمات الإنجليزية الآتية:

New International V., New English Bible, The Jerusalem Bible, Good News Bible.

(٣) New American Standard

(٤) Revised Standard V.

(٥) لوقا: ص ١ : ٢٥ .

وخلاف هذين الموضعين، بهذه الكلمات الوجيزة على لسان البشارة، لا نجد أي ثناء آخر إلا على لسان إليصابات امرأة زكريا التي حيتها عند استقبالها قائلة: «مباركة أنت في النساء، ومباركة هي ثمرة بطنك»(١). وهي تحية تقليدية كانت متداولة بين نساء اليهود، ولا خصوصية لها بمريم، وإن كانت بعض الترجمات المعاصرة قد ذكرتها هكذا: «مباركة أنت «فوق» كل النساء»(٢).

على أية حال فالإنجيل بجملة ذلك يثني عليها بثلاثة أمور:

الأول: أنها موضع لإنعام الربّ.

الثاني: رعاية الربّ لها، وتفضله بحضور ملاكه معها.

الثالث: أنها مباركة النساء.

أما كتبة الإنجيل فلم يشاءوا أن يثنوا عليها، أو يلتفتوا إلى سيرتها وحياتها، وإن أثنوا على بعض الساقطات والمتوهات اللاتي طبن مسيح الناصرة أو تحببن إليه!!





(١) لوقا: ص ١ : ٤٢ .

(٢) انظر بالإنجليزية: New English Bible, The Jerusalem Bible

بين الثناءين

بين الإنجيل والقرآن بون شاسع من النظر إلى مريم، والثناء عليها:

فالإنجيل لا يعرض للحديث عنها إلا في نسخة لوقا، كما ذكرنا من قبل، رغم وجود ثلاث نسخ أخرى عرضت إحداها لنفس الموضوع، ونفس التضحية، هي نسخة «متى» لكنها أصيبت بالبكم، وانقطعت يد كاتبها، دون كلمة واحدة يثني بها على مريم.

ولما تحدث كاتب لوقا عن قصة البشارة، وجعل حوار الملاك معها، بخلاف صاحبه في متى الذي تحدث عنها كغائبة، رأينا الملاك ينطق في الثناء عليها بتلك الكلمات الوجيزة المقتضبة حسب ما يقتضيه الظرف والموقف، ثم تفضل بذكر كلمة إليصابات المجملة السريعة، ثم انكفّ من بعد في سائر الإنجيل، كأنما انقطعت الأسباب والمناسبات، وكأنما كانت هذه المسكينة فقيرة جدًا في الخير والفضيلة، ناضبة المعين من ميزة أو حسنة تستدر لها كلمة طيبة خلال هذا الموقف أو ذاك.

ثناء الإنجيل إذن ثناء ضرورة، كأنما الكاتب مرغم أن يضع تلك الكلمات على لسان الملاك، وكأنه في سريرته يبرأ إلى الله من كذب، أو شبه كذب، هو مكره على رَقْمه وتزويره، وأنه في ذاته لا يدري ولا يوقن بذلك الأمر من أصله! وإلا فلكل صوت صدى، فهلا كان لذلك صدى على نحو من الأنحاء في صُلب الإنجيل كله، أم كانت همسة ميت لا يكاد يسمعها إلا من كانت أذنه على شفتيه ساعة الحشرجة؟!

لكن إذا عُرفت الأسباب فلا غرابة فيما كان:

فالكاتب يتصرف كإنسان يحذر من إثارة ما يسبب له حرجًا، أو تكذيبًا، يخرى به، فلا يكاد يعبر تلك اللحظة الحرجة في الإشارة إلى ذلك الأمر حتى يئول على نفسه ألا يرجع إليه قط. وهذا يعني أن في سيرة مريم ما يحذرون من كشفه، بما ينال منها ومن مسيحهم، فيقتضبون القول اقتضابًا، ويلوذون عند

ذكرها بالفرار.

هذا إذا كان كاتب تلك القصة هو كاتب سائر الإنجيل.

ونحن نشك شكًا كبيرًا في ذلك، وقد سبق لنا أن دللنا على قولنا في موضع آخر[١].

أما إذا كان الكاتب خلافه، ونحن نرجح ذلك، فهو من باب أولى لا بد أن يكون أشدّ حذرًا فيما يكشف عن دسّه وإضافة ما لم يكن من أصل ذلك الإنجيل، ومن ثم يتضح لنا السبب في خلو صلب الإنجيل من إشارة ثناء عليها، وأن الذي يكتب القصة لإلحاقها به كان شديد الحذر في احتساب كلماته، حتى لا يُمسَك بكلمة تُفْصحُ عن التزوير الذي يَحْدُث والألعوبة الذكية التي باركها آباؤهم المقدّسون!

ونسي الأذكياء الذي باشروا ذلك أو أمروا به أو أشرفوا عليه، أن الانفصال واضح بين القصة والإنجيل بفقدان تلك الرابطة، بما يشكك في أصالة القصة، وفي التعويل عليها كنص مقدس، حسب زعمهم أن إنجيلهم نص مقدس!

على أن هذه القصة تنتمي في تقديرنا إلى أصول أوثق، وأدنى إلى الصحة والصواب من تلك التي ينتمي إليها ذلك الإنجيل في جملته، ومن تلك التي تنتمي إليها القصة الملحقة بنسخة متى في كذبها ومساختها.

ولذلك سنعتبرها، وسائر الإنجيل، كأصل واحد فيما يلي من هذا السياق، ونتعامل معهما على هذا الأساس.

أما القرآن: فأكْثرُ ذِكْرًا لمريم، وأعمق في تحرّيه لجوانب الثناء:

إنه يعرض لها منذ كانت رجاء على لسان والدتها التي كانت تتطلع إلى النسل، ثم بعد وضعها، وخلال نشأتها وتربيتها، وكفالة زكريا لها، مشيرًا إلى عمق إيمانها وفضيلتها، حتى يصل إلى اللحظة الحاسمة في الأمر كله، لحظة البشارة بالحمل العذراوي!

(١) انظر كتابنا: عقائد النصارى الموحدين. دار الأنصار.

والقرآن لا يضع على لسانها في حوارها مع المَلَكِ إلا تلك العبارة:

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾؟[1] وتأتي نفس العبارة مرة أخرى هكذا: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾؟[2].

وهو تساؤل طبيعي لا بد أن تنطق به فتاة عذراء لم تعرف رجلاً قط.

ولما طمأنها المَلَكُ لم تنطق ببنت شفة. لقد أطرقت، وأخذها الصمت في فكر عميق، ربما لابسه خوف وحزن كشفت عنهما صرختها بعد ذلك ساعة الولادة:

﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[3].

الموقف عميق الخطر، ومريم واضحة الذكاء:

إنها لم تجب للحظتها، وارتقبت حتى تمّ الأمر في أحشائها، وكانت لحظة الولاد العجيب!

عندئذ ربما أدركت أن الأمر كان حقًا، وأن الأعجوبة قد وقعت، وأن ذلك قدر إلهي قد حلّ بها، وعليها من ثم أن تنهض بتبعاته ..

أما كاتب رواية لوقا فقد أنطقها: «قالت مريم: هوذا أنا أمة الربّ. ليكن لي كقولك»[4].

هنا الفارق بين كياسة القرآن الذي لا يعطل قوى النور التي أودعها الخالق في كيان الإنسان يستبصر بها، وبين رعونة الاندفاع البشري الذي لا يرى أبعد من موطئ قدميه!

مريم بهذه العبارة من الإنجيل تعطل ذكاءها، وتتعجل في إصدار القرار، شأن فتاة ساذجة هوجاء.

ومريم بدون هذه العبارة، وحسب السياق القرآني، تُعمل عقلها، وتشحذ ذكاءها لاكتشاف الحقيقة، وترتقب آثار ما ترى، في تريث وأناة.

---

(١) آل عمران: ٤٧ .
(٢) مريم: ٢٠ .
(٣) مريم: ٢٧ .
(٤) لوقا: ص ١ : ٢٨ .

وشتان بين الصورتين!

والحصافة والدهاء من شيم النساء اللاتي ذكرهن القرآن: ونخص بالذكر ملكة سبأ عندما زارت سليمان، وأراها عرشها الذي تركته ببلادها قائمًا في قصره، ليريها سلطانه العظيم في اجتراح الخوارق والمعجزات، بما سخر الله له في ذلك من الإنس والجن:

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ ﴾؟

﴿ قَالَتْ «كَأَنَّهُ» هُوَ ﴾(١).

حرف واحد يرفع المرء سماء، أو يحطه إلى قرار الهاوية!

وأقدار السماء لا تتساقط عفوًا، والذين تختارهم الحكمة لأحداث كبرى، سواء كانوا صالحين أو طالحين، تختارهم عن كمال واقتدار أودعته طبائعهم، ليكونوا أهلاً لما حُمِّلوا به من دَوْر نِيطَ بهم، ومصير قُدِّرَ لهم.

ومريم شخصية مختارة، فكيف تحرم من أخص خصائص المختارين من فكر، ودهاء وبعد نظر؟

إن السماء ليست فقيرة ولا عاجزة حتى يضيق بها الحال أن تختار لهذا الأمر ساذجة رعناء، لا تحتمل الصدمة، ولا تطاول مشاقّ الامتحان، وتستسلم لأول بادرة مهما بلغ بها رسوخ اليقين.

وسنرى في هذا الكتاب أن ما حاق بمريم من أحداث وفضائح، وصبرها العجيب في ذلك، وقوة تحملها، وشدة مراسها، ونجاحها في تخريج ابنها بما أهله للنهوض بأعباء رسالته، شاهد صحيح، ودلالة كبرى على ذكائها الحادّ، وحصافتها، بل وعمق دهائها أيضًا!

وقد أثنى القرآن على مريم بما بيّنّاه من قبل.

ويتسم ثناء القرآن عليها في جملته بأنه ثناء مزدوج:

فهو تارة ثناء دِفاعي يحرص على توكيد إحصانها لنفسها، والإشادة بقوة إيمانها

(١) النمل: ٤٢ .

وفضيلتها، وإدانة متهميها: ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾[1].

وتارة هو ثناء تقريري يرجع إلى فضيلتها كمصطفاة من الله عزّ وجل لأمر جلل:

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾

﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾[2].

لقد ظفرت إذن باصطفاء الله لها اصطفاء تدبير، واصطفاء تفضيل:

أما اصطفاء التدبير فهو اختيارها للحمل بمعجزة العالمين.

وأما اصطفاء التفضيل فهو لما شاء أن يوليها من تكريم على كل نساء العالمين.

وجلّ الجناب الأقدس أن يعتلّ فضله بعلّة من بشر، أو أن يحصره سبب من الأسباب.

وقد جعلها سبحانه شريكة لولدها، ومناظرة له في المكانة والمنزلة، فهما معًا وجهان لمعجزة واحدة:

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾[3].

امرأة تلد من غير زرع بشر.

ومولود يولد من غير زرع بشر.

أيهما شأنه أعجب إذن: الوالدة أم المولود؟

من بالغ في أحدهما لزمه نفس الأمر في الآخر، ولا فرق!

وبعد ..

---

(١) النساء: ١٥٦ . (٢) آل عمران: ٤٢ - ٤٣ .

(٣) المؤمنون : ٥٠ .

فهل يستطيع ثناء الإنجيل أن يُقارِب ثناء القرآن، أو يُنَاظَرَ به، فضلاً عن المفترض له عندهم من التفوّق، والزيادة عليه؟

لقد قارنا بين الثناءين من قبيل التواضع. لنريهم أين كتابهم في هذا الموضع على بساطته، وتسامح الأهواء بشأنه!

* * *


سر مريم
بين
الإنجيل والقرآن

سِرُّ مَرْيَم

بين الإنجيل والقرآن

طرح القضية

يلتقي المسيحيون والمسلمون جميعًا على أن مريم قد حملت بولدها المسيح وهي عذراء لم يباشرها رجل، كما يلتقي القرآن والإنجيل معًا على ذكر مريم، والثناء عليها، والإخبار بنبأ حملها العذراوي.

على أن الفريقين يختلفان بعد ذلك في التفاصيل، من حيث كيفية حدوث ذلك، وموقف مريم أمام المجتمع عندما ألمّ بها هذا الأمر، واشتملها ذلك الحال.

ومن ثم كان لا بد لنا من طرح هذه القضية:

عندما حملت مريم بابنها من غير علاقة بشرية، كيف تصرفت:

هل وجدت مخرجًا شرعيًا تستتر به: كأن يتزوج بها رجل مثلاً زواجًا صوريًا غير حقيقي، مراعاة لقداسة الحدث، ووجوب العصمة لها من العلاقة البشرية، ويتبنى ابنها في ظاهر الأمر أمام الناس، حتى يتيح لها ولابنها حياة مشروعة في المجتمع، أم أنها قد انكشفت لحينها، ووقفت وحدها، وافتضح أمرها، وتعرضت للاتهام، وقذفها القاذفون؟

إن القضية لا تتعلق بحال بصحة الاتهام من خصوم مريم، فالمسلمون والمسيحيون مطبقون جميعًا كما ذكرنا على براءة مريم من أي اتهام يمس عفافها، أو ينال من شرف أنوثتها، مهما يكن مصدره أو قائله، ولكن القضية بالتحديد هي: إثبات، أو عدم إثبات، أن اليهود قد أساءوا فهم قضية مريم في حياتها أو التبس عليهم الأمر، فاتهموها منذ كان الحمل، وأنكروا أمرها، ومن بعد نبذوا ولدها بسبب ذلك، وقاوموا رسالته.

لقد اختلف القرآن والإنجيل في الإجابة، وتطرفت الكنيسة في موقفها، بما جعل الخلاف بينهما شديدًا، لا سبيل معه إلى التوفيق. أو حل وسط،

يقبل به الفريقان.

ومن الطبيعي أن نتساءل عند النظر في ذلك عن أي الفريقين أدنى إلى شاكلة الصواب: القرآن أم الإنجيل، وعن البيّنة للترجيح.

وواقع الأمر أن نهوض البيّنة أو القرينة على رجحان أحدهما يعني توجيه طعنة نجلاء إلى الآخر، تخترق حجاب الثقة والعصمة المفترضة له، وترجّ روح الإيمان به رجًا عنيفًا، لا يبعد أن ينفذ أثره أيضًا إلى أصول الاعتقاد.

وعلينا إذن أن نتقدم الآن إلى مناقشة القضية، ونعرض أدلة ما نقول ..





أولاً: سرُّ مريم

في الإنجيل

عرض الإنجيل لقصة مريم في نسختين اثنتين فقط من نسخه الأربع المعتمدة أعني بهما نسختي «متى» و «لوقا».

وتلتقي هاتان النسختان على ذكر مريم وقت البشارة فقط، ولا تذكران شيئًا مما كان قبل ذلك بشأن حمل والدتها بها، أو نشأتها وتربيتها، أو حال عبادتها وفضيلتها، وحسن سلوكها.

وعلينا إذن أن نعرض لكلتا الروايتين، ونرى ما تسفر عنه المقارنة من اتفاق أو افتراق في هذا السياق.



قصة البشارة

عند كاتب متى

يقول كاتب متى: «أما ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا:

«لما كانت مريم أمه مخطوبة ليوسف، قبل أن يجتمعا وُجدت حبلى من الروح القدس. فيوسف رجلها إذ كان بارًا، ولم يشأ أن يشهرها، أراد تخليتها سرًا».

«ولكن فيما هو متفكّر في هذه الأمور، إذا ملاك الرب قد ظهر له في حلم قائلاً: يا يوسف بن داود، لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك، لأن الذي حُبِلَ به فيها هو من الروح القدس، فستلد ابنًا، وتدعو اسمه «يسوع» لأنه يُخلّص شعبه من خطاياهم».

«وهذا كله كان لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل: هوذا العذراء تحبل، وتلد ابنًا، ويدعون اسمه «عمانوئيل» الذي تفسيره: الله معنا».

«فلما استيقظ يوسف من النوم فعل كما أمره ملاك الرب، وأخذ امرأته. ولم يعرفها حتى ولدت ابنها البكر».

«ودعا اسمه: يسوع»[1].

ونلاحظ من رواية متى هذه: أن يوسف خطيب مريم عندما اكتشف حملها لم يشهرها بذلك، أي لم يفضحها، ولم يكشف حالها للناس، وكل ما كان منه أنه أراد تخليتها سرًا، وأن الْمَلَكَ ظهر له وحده، وأمره بالزواج منها، مبيّنًا له السر في حملها، وكلّفه بتسمية المولود. وأن يوسف قد صدع بالأمر، واقترن بمريم، ولم يقربها حتى ولدت ابنها، وقام بتسميته، ونسبته إليه.

لكن .. أين مريم من هذا كله؟

إن الاعتبار كله ليوسف في هذه الرواية: فعليه أن يتزوجها، وعليه أن يسمى

(١) متى: ص ١ : ١٨ - ٢٥ .

مولودها، وهو ما يتضمن أيضًا نسبته إليه، وإلا كان تكليفه بذلك عبثًا، وعليه بعد ذلك أن يهرب بالطفل وأمه إلى مصر، ثم عليه أخيرًا أن يرجع بهما ليسكن في مدينة الناصرة.

ونتساءل: لقد أقرت هذه الرواية بأن مريم ويوسف قبل أن يجتمعا «وُجدت حبلى من الروح القدس»، فهل كانت مريم قد تلقت من قبل بشارة من الروح القُدُس بوقوع هذا الحمل، أم لم يكن ذلك، ووقع دون علمها؟ وإذا كانت قد تلقت بشارة بذلك من قبل، فلماذا لم يخبرنا كاتب تلك الرواية، وما هي حكمته في الصمت والتجاهل؟

إننا لا نجد بينة ولا قرينة قطُّ من تلك الرواية على أن مريم قد تلقت بشارة بذلك، أو أنه كان لها لقاء، أو حوار مع ملاك أو شبه ملاك، بهذا الشأن.

وسنجد في التقليد المسيحي، فيما بعد، ما يؤكد هذه النتيجة بأن مريم لم تتلق بشارة بشأن حملها العذراوي وأنها لم تكن تعلم عنه شيئًا، وما قد يكون من عاقبة أمره[1].



(١) يوحنا بن زكريا المشهور بابن سباع: الجوهرة النفيسة في علوم الكنيسة ص ٥٤ - ٥٥ .

قصة البشارة

عند كاتب لوقا

يقول كاتب لوقا بعد أن ذكر قصة حمل إليصابات امرأة زكريا بابنهما يوحنا المعمدان

«وفي الشهر السادس أُرسل جبرائيل الملاك من الله إلى مدينة من الجليل اسمها «ناصرة»، إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف، واسم العذراء «مريم».

«فدخل إليها الملاك وقال: سلام لك أيتها المنعم عليها، الرب معك مباركة أنت في النساء».

«فلما رأته اضطربت من كلامه، وفكرت ما عسى أن تكون هذه التحية؟».

«فقال لها الملاك: لا تخافي يا مريم، لأنك قد وجدت نعمة عند الله. وها أنت ستحبلين، وتلدين ابنًا، وتسمينه «يسوع»، هذا يكون عظيمًا، وابن العلى يُدعى، ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه، ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد، ولا يكون لملكه نهاية».

فقالت مريم: كيف يكون هذا، وأنا لست أعرف رجلاً»[1].

---

(١) يمكن الاختلاف حول المقصود من قول مريم إنها لا «تعرف» رجلاً لذلك أدرك المُحدثون والمعاصرون غموض هذه العبارة منفصلة عن قرينة «متى» عندما قال عن يوسف خطيب مريم: «وأخذ امرأته، ولم "يعرفها" حتى ولدت ابنها البكر» ص ١ : ٢٤ .

بما يعني أن لفظ «المعرفة» في هذا الموضع يشير إلى المباشرة الجنسية، لذلك عمدوا إلى تعديلها في الترجمات الجديدة:

فذكرتها Revised Standard V. هكذا:

«فقالت مريم للملاك: كيف يكون ذلك، وليس لي زوج؟».

وذكرتها New English Bible هكذا:

«قالت مريم: كيف يكون ذلك، وأنا لا زلت عذراء؟».

«فأجاب الملاك وقال لها: الروح القدس يحلّ عليك، وقوة العلي تظلك فلذلك أيضًا القدوس المولود منك يُدعى ابن الله. وهوذا إليصابات نسيبتك هي أيضًا حبلى بابن في شيخوختها، وهذا هو الشهر السادس لتلك المدعوة عاقرًا، لأنه ليس شيء غير ممكن لدى الله.

«فقالت مريم: هوذا أنا أَمَةُ الرب. ليكن لي كقولك».

«فمضى من عندها الملاك».

«فقامت مريم في تلك الأيام، وذهبت بسرعة إلى الجبال، إلى مدينة يهوذا. ودخلت بيت زكريا. وسلمت على إليصابات»(١).

ثم يختتم لوقا نبأ البشارة بقوله: «فمكثت مريم عندها نحو ثلاثة أشهر. ثم رجعت إلى بيتها»(٢).

ويتضح من رواية لوقا هذه عدة أمور:

منها: أن البشارة كانت إلى مريم أثناء خطبتها إلى يوسف.

ومنها: أن التكليف كان إلى مريم بشأن المولود وتسميته.

ومنها: أن مريم حاورت المَلَكَ محتجة بعدم معاشرتها لرجل.

وأخيرًا: إذعانها لأمر المَلَكَ، والقبول بما أراد.

=أما غالبية الترجمات الأخرى فقد أجمعت على ترجمتها هكذا:

«قالت مريم للملاك: كيف يكون ذلك، وأنا عذراء؟

انظر في ذلك: (مع إغفال الترجمات التقليدية):

New Inter. V.' Good News Bible' New American Standard' The Jerusalem Bible

ونلاحظ أن القرآن قد سبقهم إلى نفس الصيغة والدلالة حيث أورد قولها هكذا: ﴿أنى يكون لي ولد، ولم يمسسني بشر؟﴾ (آل عمران: ٤٧)، أو: ﴿أنى يكون لي غلام، ولم يمسسني بشر، ولم أك بغيًا؟﴾ (مريم: ٢٠).

(١) لوقا ص ١ ٢٦ - ٤٠ (٢) ص ١ ٥٦

ونلاحظ أن الرواية هنا تمتد من لحظة البشارة إلى نحو ثلاثة أشهر عندما رجعت مريم إلى بيتها، بعد انصرام تلك الأشهر الثلاثة في ضيافة إليصابات، ومع ذلك لم يظهر يوسف قط خلال هذه الفترة.

ثم يستكمل كاتب لوقا روايته بهذا الخبر الهام:

«وفي تلك الأيام صدر أمر من أغسطس قيصر بأن يكتتب كل المسكونة».

«وهذا الاكتتاب الأول جرى إذ كان كرينيوس والي سورية».

«فذهب الجميع ليكتتبوا، كل واحد إلى مدينته.

«فصعد يوسف أيضًا من الجليل، من مدينة الناصرة، إلى اليهودية، إلى مدينة داود التي تُدعى بيت لحم، لكونه من بيت داود وعشيرته، ليكتتب مع مريم امرأته المخطوبة وهي حبلى».

«وبينما هما هناك تمت أيامها لتلد. فولدت ابنها البكر، وقمطته، وأضجعته في المذود. إذ لم يكن لهما موضع في المنزل»[1].

وهنا نرى يوسف خطيب مريم يظهر لأول مرة وقت الاكتتاب حيث لم يظهر من قبل قط، وفي هذه الفترة تضع مريم مولودها.

وهنا نتساءل: أين كان يوسف خلال تلك الشهور التسعة، ومتى عرف بالحمل، وكيف واجه الموقف؟».

ليس في رواية لوقا حسب ظاهرها جوا ب على هذا التساؤل، ويأتي ظهور يوسف وقت الاكتتاب على نحو مفاجئ وغامض.

اما نقطة الارتكاز في رواية لوقا كلها فهي قوله: «فصعد يوسف أيضًا من الجليل.... ليكتتب مع مريم امرأته «المخطوبة» وهي حبلى، وبينما هما هناك تمت أيامها لتلد. فولدت ابنها البكر....».

فها هي ذي مريم قد حملت، ثم ولدت، وهي لا تزال «مخطوبة» !!

* * *

(١) ص ٢ : ١ - ٧ .

التعارض بين الروايتين

عن قصة الميلاد

في إنجيلي : متى ولوقا

إن المقارنة بين رواية متى، ورواية لوقا، عن قصة الميلاد، وعن شأن مريم، تسفر عن تعارض صريح لا يمكن علاجه بدعوى التوافق، أو التكامل، في المعلومات. كل ما يتفقان فيه هو أسماء الأشخاص فقط: مريم، ويوسف، ويسوع، وبعد ذلك لا تقارب بحال. ولا اتفاق!

إن متى يبدأ روايته بالزعم بأن يوسف قَبْلَ أن يدخل بمريم اكتشف أنها حُبلى، لكنه لا يبين كيف اكتشف ذلك، إلا إنه يذكر قرينة تدل عى أن حملها لم يكن ظاهرًا، فيقول: «فيوسف، رجلها، إذ كان بارًا، ولم يشأ أن يشهرها، أراد تخليتها سرًا»[١] فهذه العبارة تعني أنها كانت لا تزال في بدايات الحمل، لأنها لو كانت متقدمة فيه لشهرت، وانكشف أمرها للناظرين، وهي لا تزال مخطوبة لم يدخل بها يوسف، ولما كان لعزمه آنئذ على ألا يشهرها أي جدوى، لأنها تكون قد شهرت، وخرج الأمر من يده. ومن ثم لا تكون به حاجة أن يتخلى عنها سرًا. لأن تخليته لها عندئذ تكون ظاهرة، ومشهورة، ومعلومة الأسباب والمقدمات.

رواية متى إذن تؤكد اكتشاف يوسف لحمل مريم في وقت مبكر، أي في الأشهر الأولى قبل أن تقتحمها الأعين، ويستريب بها الناس.

يؤكد ذلك أنه بعد ظهور المَلَك ليوسف في الحلم، وبعد أن كشف له حقيقة الحال، ما كان منه كما يقول مَتَّى إلا أن: «فعل كما أمره ملاك الربّ، وأخذ امرأته، ولم يعرفها حتى ولدت ابنها البكر»[٢].

فهذا يعني أنه قد نقلها إلى بيته، وصارت بذلك زوجة لا خطيبة في نظر

---

(١) متى: ص ١ - ١٩ .　　(٢) متى: ص ١ : ٢٤ - ٢٥ .

الناس، وانتهت بذلك فترة خطبتها بالزواج في تلك الأشهر الأولى من الحمل.

وقوله: «ولم يعرفها حتى ولدت ابنها البكر» توكيد لكون كل ذلك كان قبل ولادة يسوع بأشهر عديدة، تحصنت فيها بحصانة الزواج.

وعلى النقيض من رواية متى هذه جاءت رواية لوقا:

فقد مضت الأشهر الثلاثة الأولى منذ البشارة إلى أن رجعت إلى بيتها من ضيافة إليصابات دون أي ظهور ليوسف.

ثم مضت الأشهر الستة التالية كاملة حتى فوجئنا بظهوره وقت الاكتتاب.

وفي كل ذلك لا نراه تقدم خطوة واحدة من الخطبة إلى الزواج.

ترى: أي سبب كان يكمن وراء ذلك؟

هل كان في شك؟ هل كان مترددًا؟

الواقع من حال يوسف في رواية لوقا كأنه لا يملك أمره بيده، وكأنه مسوق إلى الاكتتاب معها رغم أنفه، ولا يدلنا على ذلك شيء كما تدلنا تلك العبارة المؤثرة:

«... فصعد يوسف أيضًا ... ليكتتب مع مريم امرأته «المخطوبة» وهي حبلى»!![1].

هي إذن لا تزال مخطوبة وقت الاكتتاب!

وهي مع ذلك قد بلغت تمام حملها الذي صار ظاهرًا لكل ذي عينين!

وفي تلك اللحظة تبلغ المأساة ذروتها حيث يقول لوقا:

«بينما هما هناك (في الاكتتاب) تمت أيامها لتلد».

«فولدت ابنها البكر، وقمطته، وأضجعته في المذود، إذ لم يكن لهما موضع في المنزل»[2].

يسوع إذن قد ولد خارج بيت يوسف، وخارج بيت مريم أيضًا!

(١) لوقا: ص ٢ : ٤ - ٥ .

(٢) لوقا: ص ٢ : ٦ - ٧ .

ويسوع أيضًا قد ولد وأمه لا تزال «مخطوبة» ليوسف لم ينعم عليها بكلمة الزواج!

ويسوع أيضًا قد ولد في العراء حيث لا نسب له يتغطى به، ويستر نفسه أمام الناس!

أليس ما يحكيه لوقا دليلاً صريحًا على أن دور يسوف جاء متأخرًا جدًا، ولم يحقق نفعًا يذكر أمام تلك الحال المخزية؟

أنعجب عندما نقارن صورة يوسف عند متى، بصورته عند لوقا، فنرى هذا الأخير يجرده من كل اعتبار، ولا يرى له أي دور مؤثر، ويضنّ عليه بكلمة توقير أو ثناء، رغم أن متى يعطيه الاعتبار كله، ويجعل مقاليد الأمر بيده، ويضفي عليه من الكرامة والثناء. وصفات الصدّيقية والبرّ. وظهور المَلَكْ له مرّات متتالية تبلغ أربع مرات، ما يوازيه بأنبياء العهد القديم، ويعصمه بإرشاد المَلَك له في كل ما يفعل من أي سهو أو خطأ يتعرض له بشر؟

أيمكن بعد ذلك كله أن نشك في هذه النتيجة التي ننتهي إليها من رواية لوقا، وهي: أن يكون زواج يوسف بمريم، وضمها إلى بيته وعصمته، وتبنّيه لابنها، قد تم بعد ولادة يسوع؟

ويترتب على هذه بالتالي: أن الفترة السابقة منذ البشارة والحمل، وحتى تمام الزواج بيوسف بعد ولادة يسوع بوقت طويل أو قصير، وقفت فيها مريم وحدها في مواجهة الناس والمجتمع، ومن ثمة افتضحت، وعانت من التعيير والتشنيع، وسائر الافتراءات والاتهامات التي تتعرض لها فتاة في تلك الحال.

وهنا، قد يقتضي الموقف طرح هذا السؤال: إذا كان يوسف حسب رواية لوقا شاكًا ومترددًا بشأن مريم، فما باله صحبها وقت الاكتتاب، وهي في تمام الحمل، وعلى وشك أن تضع مولودها، وتلك لحظة حرجة في اختبار ولاء يوسف لمريم، تستدعي التفسير لصالحه؟

ونقول: إنه ليس بيدنا دليل واحد، أو قرينة صحيحة، على أن يوسف كان حريصًا على اصطحاب مريم إلى الاكتتاب، أو أنه اصطحبها من مدينة «الناصرة»،

التي هي بلدته وبلدتها معًا، وأنهما صعدا منها كلاهما معًا إلى أورشليم. بل نرى الأمر على نقيض ذلك، وأن مريم في مكان ما قد فُرضت فرضًا على يوسف ليصطحبها معه إلى الاكتتاب. ولبيان ذلك علينا أن نمعن النظر جيدًا في هذه الفقرة من رواية الميلاد في إنجيل لوقا:

«فصعد يوسف أيضًا من الجليل، من مدينة الناصرة، إلى اليهودية، إلى مدينة داود التي تُدعى «بيت لحم»، لكونه من بيت داود وعشيرته، ليكتتب مع مريم امرأته «المخطوبة» وهي حُبلى»[1].

فهذا النص الهام، الذي لم يلتفت إلى دلالته أحد من الباحثين، لا يذكر بحال أن مريم كانت مع يوسف عندما صعد من الجليل إلى بيت لحم باليهودية بل يشير فقط إلى يوسف، ولا يذكر شيئًا قط بشأن مريم أنها كانت آنذاك بالجليل، أو بمدينة الناصرة.

ولو أنها كانت معه عندما صعد من الجليل لذكر أنهما صعدا معًا، وما كانت به من حاجة إلى تجاهل مريم، أو الاستخفاف بذكرها، أو التجهيل بموضعها.

ومن ثم يوحي إلينا هذا النص باحتمال نرجحه، وهو: أن مريم لم تكن بالجليل، أو بمدينة الناصرة منه، في تلك الفترة، بل كانت بمكان آخر.

أما ذلك المكان الآخر فنعلمه من سياق رواية لوقا عندما ذكر أنها بعد أن جاءتها البشارة سافرت من الناصرة إلى اليصابات حيث قال:

«قامت مريم في تلك الأيام، وذهبت بسرعة إلى الجبال، إلى مدينة «يهوذا». ودخلت بيت زكريا، وسلّمت على اليصابات»[2]. ثم يقول:

«فمكثت مريم عندها نحو ثلاثة أشهر، ثم رجعت إلى بيتها»[3].

ومدينة «يهوذا» المشار إليها هنا هي ما يعرف في الأناجيل باسم «اليهودية» وبها مدينة أورشليم حيث يقوم الهيكل.

---

(١) لوقا: ص ٢: ٤ - ٥ .

(٢) لو: ص ١ : ٣٩ - ٤٠ .

(٣) لو: ص ١ : ٥٦ .

وكا زكريا زوج إليصابات أحد الكهنة عن فرقة «أبيّا» في ذلك الوقت حسب قول لوقا.

وإذن: فهو من سكان يهوذا، أو اليهودية، وبالتحديد هو من سكان مدينة أورشليم حيث الهيكل مقر عمله وخدمته.

ومن ثم: فمريم تتردد بين موضعين محددين:

بيتها بمدينة الناصرة من الجليل.

وبيت إليصابات، زوج زكريا، بمدينة أورشليم من مدن يهوذا أو اليهودية.

وهنا إذن نستطيع أن نعتبر بيت زكريا في أورشليم موضع التقاء يوسف بمريم وقت الاكتتاب حيث صحبته إلى بيت لحم الذي تنتمي إليه عشيرته ليكتتبا معًا.

وهنا أيضًا نتساءل: ما حاجة مريم التي تدفعها أن تترك بيتها في الناصرة بالجليل، وتعبر السامرة، إلى أورشليم باليهودية، لتقيم مع إليصابات زوج زكريا؟

والجواب على ذلك: إن رواية لوقا لم تكشف قط عن دور ليوسف منذ البشارة إلى مريم بالحمل العذراوي، إلى أن كان أمر الاكتتاب الذي أدى إلى ظهوره: فلا وجود له وقت البشارة، ولا خلال الأشهر الثلاثة الأولى من حملها، والتي قضتها في بيت إليصابات، ولا وجود له بعد هذه الأشهر الثلاثة، عند عودتها إلى الناصرة، ثم انصرمت أيضًا الشهور الستّة التالية دون ظهوره إلا وقت الاكتتاب.

وهنا يكون المبرر لوجودها عند إليصابات:

ذلك أنه بعد الأشهر الثلاثة الأولى لا بد أن يكون الحمل قد تقدم بها، وبحثت كيف تستر نفسها، وتتجنب أعين أقاربها وجيرانها، وتبرر أمرها أمام الناس ولا سبيل أمامها في هذه الحال إلا أن تحاول إقناع خطيبها كي يحميها، ويصون سمعتها، ويحجبها بحجاب الزواج.

وعندئذ:

إما أن يستجيب يوسف ويضمها إلى بيته، وتنتهي المشكلة.

أو أن يرفض ويمتنع، ويستحيل عليها علاج موقفها. وإيجاد مخرج من المأزق.

فلا يكون أمامها إلا اللجوء إلى قريبتها، أو نسيبتها، إليصابات، موضع ثقتها، وشريكة سرها، لتدبرها، أو تسترها، حتى يجعل الله لها مخرجًا مما هي فيه.

ويبدو أن يوسف اتخذ الموقف الثاني، وأخفقت مريم في التأثير عليه.

ومن ثم: لم يكن أمامها إلا الاحتماء ببيت إليصابات حتى تضع مولودها، ثم تدبّر أمرها بعد ذلك.

وبينما اقتربت أيامها لتضع حملها وهي في بيت إليصابات، إذا بها تفاجأ بأمر الاكتئاب، وتستشعر الحرج في موقفها إزاء ذلك، والتفسير الذي تقدمه عن حملها البارز لكي ذي عينين، والذي اقترب من أيامه الأخيرة.

هنا يأتي دور رجل هام جدًا في حياة مريم، تجاهلته رواية متى، وصدفت رواية لوقا عن ذكر أي دور له بشأن مريم، رغم أنها تحدثت عنه، وروت خبره بشأن حمل امرأته، ووضعها لمولود كان يتمناه.

ذلك الرجل هو زكريا زوج إليصابات، ووالد يوحنا المعمدان المسمى في القرآن - بيحيى بن زكريا.

وكان زكريا، كما ذكر لوقا، كاهنًا لفرقة «أبيّا» إحدى فرق الكهنوت الأربع والعشرين آنذاك. وهو منصب ديني بارز، ولصاحبه تأثيره الواضح على الشعب.

كان على زكريا أن يتصرف لتدبير مريم في الضائقة التي حلت بها، لا لأنها صديقة زوجه، وقريبتها فحسب، بل لأمر آخر ذكره التقليد المسيحي، وتجاهلته الأناجيل الحالية، وهو أن زكريا كان وصيًا على مريم، ومسئولا عنها، وذلك حسب ما يستفاد من هذا التقليد المومأ إليه، والذي نقله أوريجانوس Origen المتوفى سنة ٢٥٤م.

يقول أوريجانوس:

«وقد وصل إلينا تقليد بهذا الصدد: ... أن مريم بعد أن وضعت المخلّص، ذهبت إلى المعبد ووقفت في ذلك المكان المخصص للعذارى، إلا أن هؤلاء الذين كانوا

يعرفون أنها أنجبت طفلاً، حاولوا إبعادها، لكن زكريا قال لهم: إنها مستحقة لمكان العذارى، لأنها لا تزال عذراء»[1].

فهذا التقليد يكشف عن تدخل زكريا في شئون مريم وأسرارها، بما يستوجب أن نتساءل: ما شأن زكريا الكاهن من مريم، حتى يتدخل ويحكم بأنها عذراء، أو غير عذراء، وهو أمر من أخص خصوصيات المرأة أو الفتاة، لا يحق لرجل أن يعرض له، أو يتحدث عنه، إلا أن يكون والدًا حاضنًا أو قريبًا من ذلك في المسئولية والسلطان، كوصي، أو أخ، أو خطيب، يملك الحق عند الاقتضاء في الاستيثاق من هذا الأمر، أو البوح به، لمن يعنيه الشأن في ذلك؟

ومن ثم: فهذا التقليد يكشف عن مسئولية زكريا بشأن مريم، ووصايته عليها، وممارسته لحقه في أن يستوثق من أخص خصوصياتها عن طريق القوابل من ثقات النساء، أو من يكلفهن بذلك من ذوات الخبرة والتجربة.

كما يؤكد أيضًا هذا التقليد أن اعتراض الذين منعوها عن مكان العذارى قد أحدث ضجة استوجبت من زكريا البوح بهذا السر الخطير، محتملاً تبعات الموقف، والمسئولية التامة عن الشهادة التي أدلى بها أمام الناس.

هذا التقليد إذن: يستتبع بالتالي ضرورة أن يتصرف زكريا بشأن مريم عندما تخلى يوسف عنها، ويفصح عن الأسباب التي كانت تجعل مريم تذهب إلى إليصابات عندما ألمَّ بها أمر البشارة، وفيما تلا ذلك من أحداث.

لا بدّ لزكريا إذن أن يواجه يوسف، ويحمله على اتخاذ مسلك ينتشل هذه المسكينة من ورطتها.

ويوسف رجل عامي ساذج بسيط، يمتهن مهنة متواضعة، ولا اقتدار له على مواجهة حادة مع ذلك الرجل الكبير.

لذلك رأينا يوسف في رواية لوقا يظهر ظهورًا مفاجئًا وقت الاكتتاب، وبصورة غامضة، وعلى نحو ينمّ بأنه عاجز، أو مُسخَّر، ساقط الاعتبار.

(١) St. Mary: in the orthodox conception' Fr. Tadros Y. Malaty' p.22.

ولنفس السبب رأينا كاتب لوقا لا يذكر أن مريم صعدت مع يوسف من مدينة الناصرة من الجليل، بل الذي صعد فقط من هنالك هو يوسف وحده ثم يأتي ذكر مريم عند بلوغه مدينة داود «التي تدعى بيت لحم»، وهي من مدن اليهودية التي بها أيضًا مدينة أورشليم حيث يقوم الهيكل، وحيث يقيم زكريا الكاهن مع زوجه إليصابات.

وهنالك إذن كان الالتقاء بين مريم ويوسف ليصطحبها معه إلى الاكتتاب، مُكرَهًا على ذلك، أو مستجيبًا لرجاء زكريا.

لم يكن برغبة يوسف إذن ما كان، ولا يفسر لصالحه.

رواية لوقا : إذن تتجه إلى إدانة يوسف من طرف خفي، ربما مراعاة لبعض تقاليد الكنيسة آنذاك بعدم البوح بذلك.

كما أنها لنفس الأسباب التي تؤدي إلى إدانته تعطي المقدمات، الموجبه بالتالي إلى انكشاف مريم، وتعريضها للاتهام والتشهير من جهة اليهود.

وعلى ذلك نستطيع أن نقول مطمئنين:

إن المقارنة بين الروايتين تكشف عن تعارض شديد يمنع من أي ادعاء بإمكان التوافق والتكامل بينهما:

فبينما تؤدي رواية متى إلى اكتشاف يوسف لحمل مريم في الأشهر الأولى، إذا برواية لوقا تقطع بأنه لم يكن هنالك أي خبر عنه، أو دور له في تلك الأشهر الأولى.

وبينما يؤكد متى أن الحوار قد جرى بين الملاك ويوسف، وجعل إليه مقاليد التصرف بشأنها حسب تكليفه له، إذا بلوقا يجعل الحوار كله معها، ويسقط كل اعتبار أو مبالاة بشأن يوسف، ولا يشير إلى علمه بشيء.

وبينما يؤكد متى أن يوسف قد أخذ مريم إلى بيته، وأعلنها زوجة له، منذ اكتشف الحمل في الأشهر الأولى، وكانت في بيت الزوجية وقت الولادة، إذا بلوقا يؤكد أنها ظلت مخطوبة حتى وقت الاكتتاب،، وولادة ابنها في العراء خارج بيت يوسف، ودون نسب يحتمي بِستَارِه!

وبينما يترتب على رواية متى أن مريم لم تُشهر، ولم تتعرض للاتهام، نرى رواية لوقا تؤدي بالضرورة إلى النقيض تمامًا، حيث لا يتم الزواج إلا بعد ولادة يسوع بفترة، بما يؤدي بالضرورة إلى افتضاحها، والتشهير بها. ويؤكد ذلك ما جاء في التقليد الذي نقلناه عن أوريجانوس.

وبينما نرى متى يظهر يوسف مستجيبًا صادعًا بأمر الملاك، وحريصًا أن يستر على مريم، ومعجلاً بإنجاز أمره، ويضفي عليه من ثم صفات الصدّيقين والأبرار، ويدفع عنه، ويمنحه خصائص النبوّة في العهد القديم، إذا بلوقا يقدمه شاكًا متردّدًا كأنه مغلوب على أمره،، ويضنّ عليه بأي تكريم، وهو ما يوحي باتجاهه إلى إدانته، والتقليل من جدوى وجوده.

التعارض واضح إذن بين الروايتين بما يمنع من الجمع بينهما معًا عند المناظرة مع القرآن الذي يصرح جليًا بانكشاف مريم، وتعرضها للتهمة والشناعة من جهة اليهود. ويستلزم بالتالي أن تختار الكنيسة إحدى الروايتين بالضرورة للمواجهة معه، وإسقاط حقها في الجمع بينهما مع هذا التناقض الصريح.





ثانيًا : سرّ مريم

في القرآن

عرض القرآن لسيرة مريم في مواضع متعددة منه خلال السور والآيات، لكنه فصّل القول بشأنها في موضعين رئيسيين من تلك المواضع: أحدهما في سورة آل عمران، والآخر في سورة مريم.

ففي نص آل عمران[1] يعرض لذكر أخبار الحمل بها، وما نذرته أمها بشأنها. ويذكر نشأتها وتربيتها في كنف زكريا إلى أن جاءتها البشارة بالحمل بالمسيح دون زواج، ودون علاقة بذكر.

وهذا النص لا يعرض لسر مريم، ولا يعنينا فيما نحن بصدده.

أما نص سورة مريم فلا يعرض بحال لنشأتها وطفولتها، وإنما يتصدى مباشرة لخبر البشارة إليها بالحمل بالمسيح حملاً عذراويًا، وما كان من حوارها مع المَلَكَ ثم ما كان من تحقق ذلك الحمل وفرارها إلى مكان بعيد، إلى أن كانت ولادتها له، وعودتها به إلى قومها، حيث ثلموا عرضها، وشنّعُوا عليها، وقذفوها بارتكاب الفاحشة.

يقول القرآن في ذكر البشارة إليها :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾.

﴿ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾.

﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾.

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾.

﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾.

---

(١) آل عمران: ٣٥ - ٤٧ .

﴿ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴾[1].

تمت البشارة إذن، وقُضي الأمر بما هو كائن.

على أن مريم لم يسعها بعد تحقق الحمل إلا أن تهرب، لتستتر حتى تضع حملها:

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾.

﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَنسِيًّا ﴾.

﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾.

﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾.

﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾[2].

واضح من ذلك إذن أن مريم لم تمكث حيث كانت في دار قومها، وحيث الذين يعرفونها، واضطرت تحت وطأة العار الذي حلّ بها، بحسب الظاهر من أمرها، لمن لا يعرفون حقيقة الحال -، أن تهرب وتستتر. ولعلها أن تكون قد عزمت آنئذ ألا تعود حتى لا تواجه العار، ولا تقع تحت طائلة العقاب.

على أن القرآن يذكر أنها عادت إلى قومها، تحمل وليدها بين ذراعيها، وواجهت الموقف، وتعرضت للفضيحة، وشنّع عليها الناس:

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾.

﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾.

---

(١) مريم: ١٦ - ٢١ .

(٢) مريم: ٢٢ - ٢٦ .

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾(١).

ولا نعرف من النص القرآني لماذا عادت مريم بعد فرارها من قومها، واستتارها عنهم: هل جدّ أمر اضطرها أن تعود متحملة لكل ما يجري عليها من جراء ما هي فيه؟ أم ضاقت بها السبل أن تجد مأوى آمنًا تأوي إليه، وترسم فيه طريق حياتها الجديد؟ أم افتقدها قومها فأرسلوا يبحثون عنها حتى التقوا بها، وعادت راغمة لتواجه مصيرها؟

على أية حال، فقد عادت مريم لسبب من الأسباب.

عادت إذن، وتناوشتها ألسنة قومها بشتى الافتراءات والظنون، وهم في كل ذلك معذورون، لأنهم يسلكون حسب ظاهر الحال، خاصة وأن القرآن قد ذكر فيما تقدم أنها كانت مأمورة ألا تبوح بالسر، وألا تدخل مع الناس في جدل أو مراء فيما حاق بها.

ويبدو أن هذه الفضيحة التي ذكر القرآن أنها حاقت بمريم منذ ولادة المسيح لوّنت تاريخ حياتها كله في نظر اليهود، وانسحبت بالتالي على حياة ولدها، وموقفهم من رسالته. لذلك رأينا القرآن يصرح بإدانة اليهود على الافتراءات التي ألصقوها بها في هذا الشأن فيقول: ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾(٢).

وهكذا ينص القرآن صريحًا على تعرض مريم أثناء حياتها للاتهام من قومها بسبب حملها العذراوي، ومعاناتها بسبب ذلك، حيث كانت تبدو بغير بعل، حسب دلالة السياق، فعذلوها، وثلبوا عرضها، بما ذكره على ألسنتهم من تجريح، وندّدوا بإساءتها إلى سيرة أبويها، بما لا يستحقانه، مما جاءت به من عار الزنا، حسب ظنونهم.

* * *

(١) مريم: ٢٧ - ٢٩ .	(٢) النساء: ١٥٦ .

الإنجيل المعتمد للمناظرة

علينا قبل أن نبدأ المقارنة أو المناظرة بين القرآن والإنجيل في سر مريم أن نتحقق أولاً من كيفية التعامل مع الروايتين الواردتين في إنجيلي متى ولوقا بشأن مريم وقصة الميلاد: أنتعامل معهما كأصلين يتخذان موقفًا مُوحّدًا في الخبر والدلالة، ويتفقان في المضمون، ويتكاملان بصورة منطقية واضحة، بلا تعسف أو تأويل؟ أم نتعامل معهما منفصلين، كأصلين مختلفين، تقوم بينهما علاقة التعارض والمناقضة؟

لا شك أنه في حال اتفاق الروايتين، أو تكاملهما، يصبح من الميسور تمامًا تحقيق التعامل بهما من جهة المسيحيين، وتحقيق التعامل معهما من جهة المسلمين، لأنهما يكونان عندئذ بمثابة أصل واحد، يعطي موقفًا واحدًا في الخبر والدلالة.

أما في حال اختلافهما، خاصة إذا أخذ الاختلاف صورة التعارض والمناقضة، فعندئذ يمتنع التعامل بهما ومعهما كأصل واحد، ومن ثم يتعيّن على المسيحيين تحديد أحد الأصلين أساسًا للمناظرة، بما يستلزم بالتالي استبعاد الأصل الآخر، أو إسقاطه، عملاً بالقاعدة المنطقية: أنه إذا ثبت أحد النقيضين سقط الآخر بالضرورة، لأنه يستحيل الجمع بين النقيضين معًا، أو رفعهما معًا.

وقد سبق لنا في هذا السياق أن عرضنا الروايتين معًا، وقارنّا بينهما، ورأينا العلاقة بينهما علاقة خلاف ومناقضة، ويستحيل الجمع بينهما بحال، وأوضحنا شواهد ذلك.

ومن ثم فقد أصبح من اللازم الآن حسم الموقف باختيار أحدهما كأصل وأساس للاعتقاد المسيحي عن سر مريم.

ولكن هذا الاختيار لا يكون من جانبنا، وإنما من جانب المسيحيين أنفسهم مُمثلاً

في قمة الكهنوت والسلطة الدينية، وهي الكنيسة .

وعلى ذلك يجب أن ننظر ماذا تختار الكنيسة، وإلام تتجه؟!.

* * *

موقف الكنيسة وشراح الإنجيل

من : سر مريم

جاء تحديد موقف الكنيسة من سر مريم على النحو التالي كما عبر عنه معجم اللاهوت الكاثوليكي:

«.. ظلت كرامة مريم خفية عن شعبها، وذلك يعود خاصة إلى أن حياتها كلها، نظرًا إلى زواجها الشرعي من يوسف انقضت حسب الشرائع والعادات اليهودية. فإن مريم تشارك في حياة أتقياء شعبها الدينية (تقدمة الطفل وختانته. الحج إلى الهيكل). وتقضي حياة عمل وفقر، وقبول طيّع لتصاميم اللّه التي لا تُدرَك. وهي وقت حياة يسوع العلنية، تحتفظ حسب إرادة يسوع، بموقف يبدو منه أن ما هو أساس ليس الأمومة الجسدية فحسب، ولكن تتميم إرادة الله بإيمان (في هذه الأمومة بالذات). وإنها لتحتجب لتكون بعد ذلك حاضرة في الساعة الحاسمة من حياة «الربّ» واقفة عند أقدام الصليب. وبعد أن غادر المسيح هذه الأرض نرى مريم حاضرة في جماعة التلاميذ تُصلّي...»[١].

ويتضح من موقف الكنيسة هذا، وكما أثبته المعجم المذكور، أنها تعتقد بالزواج الشرعي لمريم من يوسف قبل ولادة يسوع، وهو ما حرصت على توكيده رواية متى، ومن ثم بدا كأنه نسل شرعي، لا غرابة فيه، ولا ظِنَّة بشأنه.

ونفس المعنى ذهب إليه صاحب الكنز الجليل حيث قال:

«إن سر ولادة فادينا من عذراء لم يُفهم دفعة واحدة، بل بالتدريج. ولذلك كانت الحاجة إلى ما يدرأ عنه شوائب العار مدة بقاء ذلك السر مكتومًا فكان الاحتياج شديدًا إلى حجاب الزيجة المكرّمة. ولما كان ذلك كذلك، كان وجود جدول نسب يوسف المحسوب أباه - وهو أبوه الشرعي رجل مريم -

(١) معجم اللاهوت الكاثوليكي: تأليف K. Rahner \ H. Vorglimler نقله إلى العربية: المطران عبده خليفة . منشورات دار المشرق - بيروت.
انظر مادة: مريم: ف٤ ص ٣١٤ .

ضروريًا جدًا ....»[1].

إنه يكرّر نفس الموقف الذي تتخذه الكنيسة، لتكريس رواية متى أصلاً للاعتقاد، مُدّعيًا أن مريم في حملها بيسوع قد احتجبت بما أسماه «حجاب الزيجة المكرمة» لكي يدرأ عنه شوائب العار مدة بقاء ذلك السر مكتومًا»!! ومن ثم كان من الضروري في نظره، حتى تتم لعبة التزوير المقدس، أن يضع كل من متى ولوقا جدول نسب ليوسف «المحسوب أباه» للإيهام بأنه نسب يسوع!!

وهنا لا نرى أي اعتبار لرواية لوقا!!

على أن الكنيسة واعية باختيارها، لأنها لو عرضت في نفس الأونة لرواية لوقا لنقضت موقفها ذاك، وقلبته رأسًا على عقب، لأن الروايتين كما ذكرنا متناقضتان تمامًا، ولا تجمع بينهما جامعة وفاق أو تكامل.

لذلك كان على الكنيسة اختيار رواية واحدة من الروايتين، وحقّقت ذلك باختيارها لرواية متى وحدها أصلاً لذلك الموقف المذكور.

وموقف الكنيسة في ذلك لا يصدر من فراغ، بل له أسبابه ومبرراته:

فالكنيسة تعتقد، أو بمعنى أدقّ هي علّمت الشعب المسيحي أن يعتقد، أن «متى» المنسوب إليه الإنجيل الذي تضمّن تلك الرواية، كان أحد التلاميذ الاثنى عشر المقربين من المسيح، والمَدْعُوّين باسم «الرسل».

أما «لوقا» المنسوب إليه الإنجيل الذي يتضمّن الرواية المقابلة، فإن تعليم الكنيسة بشأنه، أنه لم يكن من الرسل الإثنى عشر، ولا حتى من التلاميذ الآخرين في عصر المسيح، وإنما هو رجل مجهول، تتلمذ على بولس بعد رحيل المسيح، ورافقه، وكتب إنجيله من تعاليمه، ولا يدرون أصلاً على يد من اعتنق هذه الديانة.

لذلك أعطت الكنيسة الأوّلية في التدوين، والأولوية في الاعتبار لإنجيل متى،

(١) د. وليم وَدّي: الكنز الجليل في تفسير الإنجيل: إنجيل متى ص ١ : ١٣ - ١٦ وانظر معه: Matthew Henry's: Commentry' Ch. 1: 18 - 25.

والرواية التي تتصدّره.

ومن ثم يبدو أن الكنيسة قد أغفلت تمامًا افتتاحية رواية لوقا حيث قال: «إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقّنة عندنا، كما سلّمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين، وخُدّامًا للكلمة:

«رأيت أنا أيضًا، إذا قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق، أن أكتب على التوالي إليك أيها العزيز ثاوفليس، لتعرف صحة الكلام الذي عُلّمت به»[1].

ولو أن الكنسة تمعّنت جيدًا في هذه الافتتاحية، وحاولت تطبيقها على رواية متى، لاستدركت أمرها منذ وقت طويل، ولكن حال دون ذلك أوهام الوحي والإلهام التي كانت تقول بها للعامة والسّذّج في أول الأمر، ثم صار أربابها يعتقدون بها دون فحص أو تحقيق، أو هم يزعمون ذلك.

وهكذا تمت المفاضلة في نظر الكنيسة بين الروايتين، وتبنّت رواية مَتَّى أساسًا للاعتقاد، في ذلك النص الذي نقلناه في صدر هذا الكلام، والنص الذي تلاه.

وهذا الموقف الذي تتبناه الكنيسة، وكما فسره مؤلفوها، موقف مغلوط:

لأن على الكنيسة وسَدنَتها من المؤلفين والشراح أن تجيب جوابًا صريحًا وبصفة حاسمة على هذا السؤال: ما موقف الكنيسة من رواية لوقا بعد أن تبنت رواية متى، مع علمها بتناقضهما، والمتناقضان لا يجتمعان معًا، ولا يرتفعان معًا، ولا يمكن التوسط بينهما؟

على أية حال، فإن كل عمدة الكنيسة في موقفها هو رواية متى!

ومن ثم فقد يمكننا القول: إنه إذا كان من حق الكنيسة أن تتبنى رواية متى أصلاً لموقفها واعتقادها، فمن حقنا نحن أيضًا: أن نلزمها اعتماد روايتين متناقضتين إلى هذا الحدّ.

وأن نتبنى نحن أيضًا رواية لوقا في مقابل تبنيها لرواية متى.

(١) ص ١ : ١ - ٤ .

ذلك أنه لن يكون بوسع الكنيسة، أو غيرها، أن تجمع لحسابها كِلاَ النقيضين.

ما رأي الكنيسة إذاً؟!

* * *


المناظرة بين
إنجيل متى والقرآن

المناظرة بين

إنجيل «متى» والقرآن

نحن نحصر موضوع المناظرة هنا بين إنجيل «متى» والقرآن، في هذا السؤال:

هل تعرضت مريم، بسبب حملها العذراوي بالمسيح، إلى اتهام لها من اليهود، أم أن ذلك الأمر لم ينكشف، ومن ثم ظلت في نظرهم محصّنة بريئة من أي اتهام؟

وكيف كان ذلك؟

لقد اختلف الإنجيل والقرآن تمامًا في الجواب:

جواب إنجيل متى

لقد أجاب إنجيل متى على ذلك بأن يوسف النجار خطيب مريم كان قد اكتشف حملها في الأشهر الأولى، فعزم على فسخ خطبتها سرًا، حتى لا يسيء إلى شخصها بذكر السبب أمام الناس، وهنالك ظهر له ملاك الربّ في حلمه، وأعلمه بحقيقة حملها العذراوي من الروح القدس، وأمره أن يأخذها زوجة له، ويسمي ابنها منسوبًا إليه، فلما استيقظ من النوم فعل لوقته كل ما أمره به، فسماه، ونسبه إليه.

ومن ثم: لم تُشهَر مريم، ولم تتعرض لأي اتهام من قومها، لأن أحدًا سوى يوسف لم يعلم قط بهذا السرّ.

يقول متى: «أما ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا:

«لما كانت مريم أمه مخطوبة ليوسف، قبل أن يجتمعا وُجدت حُبلى من الروح القدس. فيوسف رجلها: إذ كان بارًا، ولم يشأ أن يشهرها، أراد تخليتها سِرًا».

«ولكن فيما هو متفكّر في هذه الأمور، إذا ملاك الرب قد ظهر له في حلم

(١) متى: ص ١ : ١٨ - ٢٥ .

قائلاً: يا يوسف بن داود، لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك. لأن الذي حُبل به فيها هو من الروح القدس. فستلد ابنًا، وتدعو اسمه «يسوع» لأنه يخلّص شعبه من خطاياهم».

«وهذا كله كان لكي يتمّ ما قيل من الرب بالنبي القائل: هوذا العذراء تحبل، وتلد ابنًا، ويدعون اسمه «عمانوئيل» الذي تفسيره: الله معنا».

«فلما استيقظ يوسف من النوم فعل كما أمره ملاك الربّ، وأخذ امرأته. ولم يعرفها حتى ولدت ابنها البكر».

«ودعا اسمه: يسوع»[١].

يوسف إذن قد اكتشف حمل مريم في الأشهر الأولى.

ويوسف أيضًا قد ضمّ مريم إلى بيته، زوجة له. منذ تلك الأشهر الأولى، بعد أن علم بالسر، وقبل ظهور حملها للناس، حرصًا على سترها، وكتمان أمرها.

ومن ثم فإن مريم عندما حان أوان ولادتها، وضعت المولود في حجر يوسف، وتحت ستار أبوّته له.

وفضلاً عن ذلك كله: فإن البشارة كانت إلى يوسف وحده، أما مريم فلا خبر قط عن بشارة كانت إليها.

جواب القرآن

صرح القرآن بأن البشارة كانت إلى مريم.

كما صرح أيضًا بأنها بعد أن تحققت من حملها، تركت بيتها، وهربت إلى مكان بعيد:

﴿ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾.

﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾.

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾.

(١) متى: ص ١ : ١٨ - ٢٥ .

﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾.

﴿ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴾.

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾(١).

ثم ذكر بعد ذلك أنها بعد أو وضعت مولودها، أتت به قومها تحمله بين ذراعيها، فأنكروا عليها هذا الأمر، وشهروها به، واتهموها، وقذفوها بالبغاء:

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾.

﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾.

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾(٢).

على أن القرآن قد ذكر في تبرير صمتها أنها كانت مأمورة الا تبوح بالسرّ، والا تجادل أحدًا بشأنه.

﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾(٣).

فالبشارة إذن كانت إلى مريم.

وهي بمجرد شعورها بتحقق الحمل هربت من دار قومها إلى مكان بعيد.

وهنالك، في ذلك المكان البعيد، ظلت، حتى وضعت مولودها، في ستر عن أعين قومها وجيرانها.

(١) مريم: ١٦ - ٢٢ .

(٢) مريم: ٢٧ - ٢٩ .

(٣) مريم : ٢٦ .

إلا أنها بعد ذلك تعود إلى قومها وعشيرتها، معترفة بالمولود أنه ثمرة بطنها، وربيب أحشائها.

وينكر عليها قومها ما يرون، وما يسمعون، ويتهمونها، ويثلبون عرضها، حتى ليقذفونها بالبغاء الذي هو احتراف مقارفة الزنا.

ومريم في شدة معاناتها لا تدري بما تجيب، خاصة وهي مأمورة ألا تجادل، أو تجهر بحقيقة الحال، لأي أحد كائنًا من كان.

بين الجوابين

من مقارنة نص متى بنص القرآن لا نرى بينهما شيئًا يلتقيان فيه:

فبينما يتجاهل متى أن البشارة كانت إليها، ويجعل ذلك إلى يوسف، إذا بالقرآن يجعل البشارة إليها، ويتجاهل هذا المدعوّ خطيبها، ولا يعرض له بحال.

وبينما يذكر متى أن يوسف عندما اكتشف حملها في الأشهر الأولى قرر تخليتها سرًا، ثم إذا به يتزوجها، ويحملها إلى بيته، عملاً بأمر الملاك، وحرصًا على سترها وصيانتها، إذا بالقرآن يذكر أنها عندما شعرت بتحقق الحمل هربت وحيدة من دار قومها، دون زوج أو خطيب يصحبها، ويستر عليها.

وبينما يذكر متى أنها وضعت مولودها في بيت يوسف تحت ستار زواجها منه، وكونه متبنّيًا لمولودها، إذا بالقرآن يقرر أنها وضعت مولودها في ذلك المكان البعيد، وحيث لم يصحبها زوج أو خطيب، أو أحد يهتم بشأنها، من بني قومها.

وبينما يذكر متى أن يوسف سمى المولود، ونسبه إليه، توكيدًا لدعوى ستره عليها، ومن ثم لم تتكشف بحال، إذا بالقرآن يقرر أنها رجعت إلى دار قومها وهي وحدها، تحمل وليدها، معترفة به، متحمّلة ما يجلبه عليها ذلك الاعتراف المثير من خزي وعار.

وبينما تنتهي رواية متى بأن مريم قد ظلت في نظر قومها محصّنة بريئة لم يجنح إليها جانح بظن أو اتهام، إذا بالقرآن ينقل نص اتهامهم لها، وتشنيعهم عليها، وقذفهم إياها.

لا موافقة إذن بحال بين إنجيل متى والقرآن!

* * *



من الطبيعي عند المواجهة بين الخصمين، أن نطلب الأدلة وشهادة الشهود.

ومن ثم: فكل من : إنجيل متى، والقرآن، مطالبان بذلك في شخص من ينوب عن أحدهما، أو يتحدث عنه.

أولاً: أسانيد رواية متى

يصح السند، أو يعتبر جائزًا، قابلاً للبحث والنظر إذا كان لا يستمدّ مضمونه أصلاً من الوثيقة موضع النزاع، سواء كان سابقًا عليها، أو معاصرًا لها، أو لاحقًا بها، طالما كان مستقلاً عنها، دون علاقة تأثر بها، أو رجوع إليها.

ومن ثم: فالسند المطلوب لرواية متى يجب ألا يكون راجعًا إليها، أو مأخوذًا عنها، على أي نحو من الأنحاء.

فهل يتوّفر لنا هذا السند بشأن رواية متى؟

بعد البحث والمراجعة، نستطيع أن نقرر مطمئنين: أن رواية متى تقف وحدها، ولا تجد شاهدًا آخر يؤكد مضمونها، أو يلتقي معها في المقدمة والنتيجة!

وكل ما ننتهي إليه من تقليب النظر بشأنها في كتبهم ومصادرهم، أن رواية متى إنما «تحكي قصة الميلاد من وجهة نظر يوسف»[1] كما أن رواية لوقا، في مقابل ذلك، تحكي القصة نفسها من وجهة نظر مريم عن طريق لقاء الكاتب بها، أو بالتلاميذ، أو غيرهم ممن يرجعون بأصل روايتهم إليها.

وهذا بالتالي يستلزم الإقرار: بأن يوسف عاش حتى قيام المسيح بالتبشير برسالته، حيث التقى به التلاميذ، في حياة المسيح، أو بعد رحيله، وطلبوا شهادته عن المسيح، وسر ميلاده.

* * *

(١) The New Bible Dic. Art. Jesus Christ, Life of, p 622 + Luke, Gospel of, p. 757. + Matthew, Gospel of, p. 795.

وانظر معه: قاموس الكتاب المقدس (إشراف بطرس عبد الملك) المواد التالية:

إنجيل لوقا: ص ٨٢٣ . مريم: ص ٨٥٧، المسيح: ص ٨٦٥ .

نقض الدعوى

وإسقاط السند

نحن ننقض الدعوى بأن رواية متى عن قصة الميلاد «تحكي القصة من وجهة نظر يوسف»، ونرى في ذلك افتئاتًا على يوسف، وتبريرًا للتزوير:

لأنه إذا جاز القول بأن لوقا قد استمدّ أصل روايته من أخبار تنتمي إلى مريم ذاتها، أو إلى التلاميذ المقربين، فإنه لا يجوز أن يقال مثل ذلك عن أخبار تنسب إلى يوسف:

ذلك أن مريم قد عاشت بعد رحيل المسيح أكثر من عشر سنوات على الأقل، فمن الطبيعي إذن أن نتوقع اتصال التلاميذ بها، واستفسارهم منها عن أمور تختص بسر ميلاده، ونشأته، ومراحل حياته، قبل أن يجهر برسالته.

ومن الطبيعي أيضًا أنها تتكلم: لأن ابنها قد صار صاحب رسالة، وصار له أتباع ومريدون يطلبون العلم بحقيقة الأمر من بداياته.

أما يوسف فالأمر يختلف معه:

ذلك أن يوسف لم يعش حتى يرى يسوع صاحب رسالة يتجه بها إلى الناس، الذين يتجهون بدورهم إليه يسألونه باعتباره مسئولاً عن احتضان يسوع وتربيته أن يحدّثهم عن قصته، وحقيقة الحال بشأنه.

إن الأناجيل جميعًا تخلو من أي إشارة أو قرينة على حياة يوسف بعد الثانية عشرة من عمر يسوع، عندما شهد مع أبويه عيد الفصح بأورشليم، حسب شهادة لوقا حيث يقول: «وكان أبواه يذهبان كل سنة إلى أورشليم، في عيد الفصح. ولما كانت له اثنتا عشرة سنة صعدوا إلى أورشليم كعادة العيد»[1].

وبعد الثانية عشرة يصمت إنجيل لوقا، وسائر الأناجيل، إلى أن نراه فيها جميعًا في حوالي الثلاثين يبشر برسالته، أي أن ثماني عشرة سنة كاملة تمضي دون أن نعرف شيئًا على الإطلاق بشأن الثلاثة: مريم، ويوسف، ويسوع. وهذه الفترة

(١) لوقا: ص ٢ : ٤١ - ٤٢

اصطلح الباحثون على تسميتها فترة الصمت Silent period في حياة يسوع، حيث نجهل تمامًا كل ما ألم به، وبأبويه من أحداث ووقائع:

هل مات يوسف في الثانية عشرة من عمر يسوع؟ هل مات بعد ذلك بقليل؟ هل امتدت به الحياة حتى قيام يسوع برسالته؟

لا ندري!

. كل ما ندريه أن الأناجيل لم تشر إليه قط بعد الثانية عشرة!

كما أن كل الأحداث في بشارة يسوع، منذ حوَّل الماء خمرًا، وكانت «هذه بداية الآيات، فعلها يسوع في قانا الجليل، وأظهر مجده، فآمن به تلاميذه»[1]، إلى أن كانت أحداث القبض والصلب، لا نجد فيها ردّ فعل ليوسف، أو وجودًا له بحال، رغم ظهور مريم، وظهور من تسميهم الأناجيل «إخوة يسوع»!

فكيف يمكن أن يكون يوسف حيًا في بداية بشارة يسوع، أو في أي مرحلة من مراحلها، دون ذكره على أي نحو من الأنحاء؟

ثم إنه ليس من المعقول، أو المألوف في حياة الناس، أن يجهر المرء بسرّ كبير يؤتمن عليه كسر ميلاد المسيح، دون أن يكون هنالك حَدَث جلل، أو سبب بالغ الأهمية، يستوجب ذلك. فما هو إذن ذلك الحدث أو السبب الذي يخرج يوسف عن التزامه، ويجعله يجهر بهذا السر هكذا؟

لو عاش يوسف حتى رسالة المسيح لجاز لنا أن نعتبر ذلك هو المبرر للجهر بهذا السر العجيب، ولكن: أين الدليل لمن تسوّل له نفسه أن يدّعي هذا الادعاء؟

إن النتيجة الوحيدة لسياق الأناجيل بشأن يوسف هي: أنه لم يشهد رسالة يسوع، ولم تكن له شهادة بشأنه[2].

---

(١) يوحنا: ص ٢ ١١

(٢) جاء في وثيقة كهنوت المسيح التي سناتي بنصها الكامل خلال هذا الكتاب أن يوسف النجار كان قد مات قبل ترشيح يسوع للكهنوت وذلك قبل تبشيره برسالته. يقول الكهنة لمريم. «فقد مات أبوه «يوسف» وقلبنا يشك فيه إن كان هو أباه». =

وإن الزعم بأن رواية متى تمثل وجهة نظر يوسف زَعْمٌ عارٍ من الصحة والمسئولية، لأنه يستوجب أن يكون يوسف قد عاش حتى رسالة المسيح، وأن متى، أو غيره، قد التقى به لطلب شهادته، وهي دعوى باطلة، تقف معزولة تمامًا عن أي سند من الواقع أو التاريخ.

ومن الطريف أن مؤلفًا معاصرًا قد وجد وقتًا كافيًا أمكنه من تأليف مجلد ضخم جعل عنوانه «المسيح» يقع في زهاء ألف وخمسمائة صفحة، قد ذكر بهذا الشأن ما نعتبره ردًا منهم على أنفسهم بما يبرئ ساحة يوسف من أن تمتّ إليه رواية متى بأصل أو سبب.

يقول المؤلف القبطي: «ولم تذكر لنا أسفار العهد الجديد شيئًا عن حياة السيدة العذراء بعد عودتها من مصر إلى الناصرة، وطوال حياة المسيح معها سوى لمحات قليلة، منها أنها كانت تذهب مع يوسف وابنها كل سنة لحضور عيد الفصح في أورشليم (لوقا: ٢ : ٤١). ويبدو لنا من ذلك أن يوسف - على الرغم من أنه لم يتزوج السيدة العذراء - فإنه حين أخبره الملاك بأنها حبلت من الروح القدس، وأن وليدها هو المسيح المنتظر كرّس حياته لخدمتها وخدمة ابنها، فعاش معهما إلى نهاية حياته في تقديس لهما، وإخلاص في رعايتهما، متظاهرًا بأنه زوج السيدة العذراء، مع أنه ليس كذلك في الحقيقة، ومتظاهرًا بأنه أبو يسوع المسيح مع أنه ليس كذلك أيضًا. لأنه ما كان أحد من اليهود ليصدّق تلك الحقيقة السمائية السامية لو أنه قالها لهم، فانتظر حتى يعلنها المسيح بنفسه. وبذلك وقاهما شرّ مظنة اليهود، وأقوال السوء، التي كان من شأنهما أن يتعرضا لها لو انفصل عنهما..»[1].

إن هذا المؤلف القبطي يوجّه ضربة صريحة دون أن يقصد إلى إخوانه من بني

=وتقول مريم: «... ويوسف الذي قلتم مات كان قد شك في حبلي به...».

انظر: ساويرس بن المقفع: تاريخ البطاركة ص ١٥ .

(١) زكي شنوده: المسيح ص ١١١ - ١١٢ .

ملته الذين يزعمون أن رواية متى ترجع بأصلها إلى يوسف، أو تعبّر عن وجهة نظر يوسف!! وبطبيعة الحال فإنه لا يملك تبريرًا لما يذهبون إليه، تمامًا كما لا يجدون هم دليلاً واحدًا على ما يقولون من نسبة رواية متى إلى يوسف!!

على أن المؤلف الفاضل قد انزلق إلى حيث لا يريد لنفسه ولا لبني ملته، فبعد أن نفى عن يوسف أن يكون قد جهر بالسرّ قال: «. . . فانتظر حتى يعلنها لهم المسيح بنفسه». وهذا يعني إذن أن المؤلف المذكور يحمّل المسيح مسئولية الإعلام بذلك الحمل العذراوي العجيب، وأنه قد صرح بذلك للناس. فنسأله مستفيدين من علمه الغزير: أين نجد ذلك من الإنجيل والرسائل؟ ومن أين علمت أن المسيح قد أعلن ذلك بنفسه؟ وإنا لنسأل ونحن نعلم أن الرجل كسائر علماء ملته لن يحير جوابًا عن سؤال، لأن أكثر قولهم رجم بغير تحقيق، والدليل على ذلك هذه القضية.

أما أن زواج يوسف من مريم قد وقاها وابنها من الفضيحة، وسوء السيرة، فهذا ما نحن بصدده في هذا الكتاب، نردُّ على النصارى كافة، ولا نحمّل واحدًا منهم وحده وزر القول به لأنه قول جميعهم على ما ذكره لهم إنجيل متى.

ونعود فنقول:

إن الاحتمال الوحيد لأصل هذه الرواية في متى: أنها مجرد تمثل، أو تصور، لشهادة يوسف عن قصة الميلاد، كما تخيلها كاتب متى، دون سند صحيح من الإنجيل، أو أي مصدر آخر.

ومن ثم: هي شهادة مرفوضة، وسند ساقط كل السقوط!

ذلك أنه ليس من حق أحد، كائنًا من كان، أن يدّعي لنفسه الحق في تمثل أو تصور شهادة يوسف لو كان في نفس حاله وقضيته، وفرضها على الإنجيل، مهما كان من حسن نيته وقصده، لأن ذلك تزوير صريح للحقائق مهما قيل بشأنه من تعليل أو تبرير.

وبعد ..

فلا سند لرواية متى، ولا دليل، ولا قرينة!

كل ما هنالك حسن نية الكاتب من جهة يوسف، والنية وحدها لا تكفي لنصرة حق، أو خذلان باطل!.

* * *



ثانيًا: أسانيد نصرانية ويهودية
تشهد لصالح القرآن

في مقابل ما تعانيه الرواية في متى من الإفلاس من دليل يعضدها، أو سند يشهد لها ويبرر مضمونها، نجد الخبر القرآني عن اتهام مريم من جانب اليهود تلتقي على توكيده، والشهادة له، أدلة كثيرة لا يستطيع الخصم أن يجنح إلى الطعن فيها، أو المساس بها، دون أن يخدش أناجيله المعتمدة. وأصول دينه وعقيدته.

وأول الأدلة في ذلك نستمده من إنجيلي لوقا ويوحنا، من الأناجيل المعتمدة. ثم من إنجيل يعقوب من الأناجيل الأبوكريفية.

ثمن نتلو ذلك بالدليل من التلمود، مضيفين رواية كلسوس Celsus عن التراث اليهودي.

ونختتم تلك الأدلة بدليلين نستمدهما من التراث القبطي المسيحي:

الدليل من وثيقة «كهنوت المسيح» عند ساويرس بن المقفع في تاريخ البطاركة.

والدليل من وثيقة «ابن سَبّاع» «عن السر في صوم الميلاد كما جاء في كتابه «الجوهرة النفيسة في علوم الكنيسة».

على أننا نبدأ تقديم هذه الأدلة بالدليل النفسي من حياة يسوع ومعاناته بسبب اتهام اليهود لوالدته، كما نستشفّ ذلك من نصوص عديدة في الأناجيل المعتمدة.

وأخيرًا، لا ننسى شهادة التراث الإسلامي كمصب أخير للتراثين اليهودي والمسيحي فيما نقله عنهما، أو عن أحدهما، من خبر عن اتهام اليهود لمريم.

ونبدأ على بركة الله بالدليل النفسي من حياة يسوع، ثم نتلوه بسائر الأدلة والبيّنات حسب ترتيبها الزمني.

الدليل الأول

شهادة الجانب النفسي ليسوع

باتهام اليهود لوالدته

حسب سياقات الأناجيل المعتمدة

الجانب النفسي ليسوع يفرض نفسه فرضًا في مسألة اتهام اليهود لمريم. وليس بمنصف من يتجاهل أهمية هذا الجانب في هذه القضية، وغير محقق من لا يعلم ضرورة ذلك.

فيسوع، أيًا كان الرأي فيه من جانب المسلمين الذي يوقنون بأنه نبي مرسَل أو من جانب النصارى الذي يدّعون له القول بالألوهية، هو في نهاية الأمر إنسان، بكل ما للإنسان من طبيعة وإحساس وانفعال.

فكونه نبيًا أو رسولاً لا ينفي صفته البشرية، ولا يقلّل من أبعاد طبيعته، وإحساسه وكل ما هنالك أنه يفرض عليه مزيدًا من الشدة والحكمة في ضبط نفسه، وقيادتها، وتطويعها.

كذلك فإن دعوى المسيحيين له بالألوهية لم يترتب عليها عندهم نفي الصفة البشرية عنه، بل أقروا، واعترفوا، وأعلنوا، أنه إنسان تام بكل ما للطبيعة الإنسانية من غرائز وإحساسات وانفعالات، وما تنطوي عليه من أبعاد وأعماق، ولا يستثنونه إلا من مواقعة الخطيئة، وما خلا ذلك فهو له مثله مثل سائر البشر، لا يقبلون من أحد كائنًا من كان، أن يسلبه غريزة، أو إحساسًا، أو انفعالاً هو لغيره من الناس، وإلا لما صحّ له في نظرهم وعقيدتهم أن يقوم بعمل الفداء لابسًا صورة إنسان!

يسوع إذن: إنسان!

وقد ترتب على هذه الحقيقة أن رأيناه في الأناجيل يأكل ويشرب، ويجوع

ويعطش، ويفرح ويتألم، ويرضى ويغضب، ويحب ويبغض، ويتعب، ويرتاح، ويأمن ويخاف، وكل ذلك في وقائع وأحداث ساهم فيها، وأحاطت به، دُفع إليها أو حَرّك أسبابها..

والبشرية في يسوع، مثلها مثل البشرية في كل إنسان، أسبق وأعمق من كل حكمة أو نبوة.

ومن ثم كان لا بد ليسوع أن يعاني مثلما يعاني كل إنسان مهما اختلف أسلوب ذلك وصورته.

وقد عانى يسوع في بدء رسالته من أمرين:

الأول: سوء سمعة بلدته «الناصرة».

الثاني: سوء سمعة والديه: يوسف ومريم.

أما عن سوء السمعة من جهة البلدة فربما عبّر عنه أفضل تعبير هذا الخبر:

«فيلبس وجد نثنائِل، وقال له: وجدنا الذي كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء: يسوع بن يوسف الذي من الناصرة!

«فقال نثنائيل: «أمن «الناصرة» يمكن أن يكون شيء صالح»[1].

فهنا نرى إلى أي حدّ بلغ الاحتقار لمدينة الناصرة التي يُنسب إليها يسوع، من بني الإقليم أنفسهم الذي منه تلك البلدة.

وفضلاً عن ذلك، فإن إقليم الجليل الذي منه الناصرة كان هو نفسه موضع إدانة ورفض من جانب غيرهم من اليهود، فعندما اختلفوا بشأن يسوع، كان من عبارات السخرية به أنهم قالوا:

«ألعلّ المسيح من الجليل يأتي؟!»[2].

وعندما تناقش نيقوديموس مع الكهنة بشأنه أجابوه: «فتّش وانظر . إنه لم

---

(١) يوحنا : ص ١ : ٤٥ - ٤٦ .

(٢) يوحنا : ص ٧ : ٤١ .

يقم نبي من الجليل»[1].

فالجليل أقل وأدنى من أن يخرج منه مقام كبير في الديانة يبلغ مبلغ الأنبياء فكيف يكون القول إذن في مدينة الناصرة أحقر مدنه، وموضع الزراية والاتهام من الجليليين أنفسهم؟!

وربما كان الدافع إلى الحط من شأن هذا الإقليم من فلسطين اختلاط اليهود بالوثنيين فيه، إذ كان يلاصق الأرض السورية، فمن ثم تلوثت صورته عند الذين يعتبرون أنفسهم اليهود الخلّص، وأن حياتهم تمضي على وفاق الناموس، وتقاليد الشريعة.

أما من حيث سوء سمعة والديه فقد يدلنا عليها هذا الخبر:

«فكان اليهود يتذمرون عليه لأنه قال: أنا هو الخبز الذي نزل من السماء».

«وقالوا: أليس هذا هو يسوع بن يوسف الذي نحن عارفون بأبيه وأمه؟ فكيف يقول هذا: إني نزلت من السماء؟».

«فأجاب يسوع، وقال لهم: لا تتذمروا فيما بينكم!»[2].

هنا رفض صريح ليسوع من قومه بسبب والديه!

إن الرفض ليس لفقر الوالدين، أو بؤسهما، وإنما لكونهم يعلمون عنهما مآخذ أخلاقية، يرونها كافية في نظرهم لتبرير رفضه.

على أن يسوع إذا كان قد واجه الأمرين معًا في البداية، إلا أنه قد تمكن بعد ذلك أن يرتفع في نظر الشعب عن وصمة البلدة أو الإقليم الذي ينتمي إليه، لكن الشيء الذي ظل يلازمه، ويطارده، حتى في داخل نفسه، كان في معاناته من جهة أبويه، خاصة من جهة أمه. ومن ثم التقت سياقات الأناجيل المعتمدة التقاء عجيبًا في إبراز هذا الجانب من المعاناة الذي تجاهله الباحثون تمامًا، تحت تأثير التقاليد الكنسية غير الصحيحة بأن مريم ويوسف لم يتعرضا لأي اتهام فيما يختص بولادة يسوع.

---

(١) يوحنا: ص ٧ : ٥٢ .

(٢) يوحنا: ص ٦ : ٤١ - ٤٣ .

لقد كان مجرد سماعه للفظ «الأب» أو «الأم» يستفزّ فيه أسباب الثورة والانفعال، حتى لو كان المتحدث إليه بذلك خالي الذهن تمامًا من أي قصد إلى إحراجه، أو المساس بخصوصياته. كان يستشعر في قرارة نفسه جرحًا نازفًا لا يقدر على تجاهله أو الاستعلاء عليه، فمن ثمة كان رد فعله سريعًا بدرجة غير طبيعية حتى إنه ليثير الدهشة في نفوس الآخرين فيما يعتريه من ذلك، أو يلمّ به.

يستأذنه أحد تلامذته لدفن «أبيه»، وليس في ذلك شيء من الإحراج له، أو المساس بخصوصياته من جهة والديه، أو الخروج على الدين أو التقاليد، أو ارتكاب منكر، أو مُستكَره من الأمر، فماذا كان رد فعل يسوع؟

لقد صرخ قائلاً: اتبعني. ودع الموتى يدفنون موتاهم[(١)].

ما هذا الذي يقول يسوع؟ ومن أين جاء به؟ وأي كتاب، أم أي فكر سليم، يقره على ما يقول؟

وإذا لم يكن الأبناء هم الذين يحملون والديهم، خاصة في حالات العوز أو المرض، ويسترون عوراتهم عند الموت، حتى يودعوهم المثوى الأخير في سلام، فمن الذي يفعل ذلك؟ ومن الذي قال إن اتباع يسوع، أو التبشير بكلمة اللّه، يتعارض مع بر الوالدين، والقيام بشئونهما، حتى لو كانا على غير الدين والملة؟ وأين تذهب تلك الوصية الإلهية في التوراة، والتي يحفظها يسوع جيدًا: «أكرم أباك وأمك، لكي تطول أيامك على الأرض، التي يعطيك الرب إلهك»[(٢)]، فأين الإكرام إذن، وهو يدع عورة أبيه لا يسترها، تحت الزعم أنه راح يتبع يسوع أو يبشر بكلمة اللّه؟

إن يسوع ليعلم أن ما يصرخ به من ذلك التعليم الغريب لا يصمد على البحث والمناقشة.

ولكن يسوع من هؤلاء الذين يجب أن نسمعهم مرتين:

---

(١) متى: ٨ : ٢٢ .	(٢) الخروج : ص ٢٠ : ١٢ .

نسمعهم عندما يكونون منفعلين، فنلزم الصمت والمداراة، ونحن نعلم أنهم آنئذ يتحلّلون عمدًا من قيود النقل والعقل معًا، وهم قد يكونون أدرى منا بوجوه المناقضة لما يقولون.

ثم نسمعهم عندما يزايلهم الغضب، وتنفكّ عنهم غمرة الانفعال، ويهدأون، ويعاودون طبيعتهم في رضا واطمئنان، وعندئذ نجد عندهم الفكرة الحسنة، والتعاليم الطيبة.

ويسوع ليس شخصًا عاديًا، وإنما هو إنسان ذو طبيعة رقيقة، وحس مرهف. ورغم انفعاله وتمرده، هو وديع طيب، دمث الأخلاق، حميد السجايا، مأمون محبوب. ومثل هذا لا يكون من السهل عليه إخفاء معاناته والتخفف مما يثقله من هموم وآلام. فتتضح تصرفاته وكلماته بما يكابد على نحو من الأنحاء.

وسؤال السائل الذي ذكرناه أورد إلى ذهنه في سرعة البرق صورة يوسف النجار الأب الذي يُنسب إليه، وما تداعى وراء ذلك من اتهامات اليهود لمريم والمساس بأصله ونسبه، خاصة لو كان يسوع يدرك أن يوسف هذا لم يقم بمهمته في الستر على مريم وابنها كما كان ينبغي. لذلك ثار هكذا، صارخًا بتلك الكلمات ذات الطابع غير المألوف.

ومن ثم فالطبيعة البشرية في يسوع، مهما فرضنا عليها من ضوابط وقيود، لابدّ أن تسفر عن نفسها في فلتات تنمّ عما يصطرع فيها من إحساسات وانفعالات.

وقد يختلف معنا آخرون فيما نراه، لكنا نرى من شواهد الإنجيل في ذلك ما يقنعنا، ويؤكد دعوانا، ويثبت أن يسوع كان يرزح فعلاً تحت عبء ثقيل من شعوره باتهام اليهود لوالدته، وإن كان على يقين تام ببراءتها، ونقائها من كل عيب وسوء.

لكن القضية هنا ليست في إقناعه بما هو مقتنع به.

إن القضية أصلاً فيما وقر في نفوس اليهود من جهتها، وتعلقهم باتهامها،

وحرصهم على خدشه بسببها، وما يثيره ذلك في طريق دعوته من عثرات وعراقيل.

لذلك كان الجرح عميقًا، ينزّ دائمًا، لا يحتمل لمسة أصبع، وإلا انطلقت زعقة هائلة تنفلق لها جلاميد الصخور!

والآن، لننظر بعض انفعالات يسوع على أمه، وما تنطوي عليه من دلالات على معاناته من الشعور باتهام اليهود لها، ومساسهم بسيرتها!

١ - انفعال يسوع على أمه

في عرس قانا الجليل

حكى يوحنا في الإنجيل عن أول أعجوبة قام بها يسوع عندما ابتدأ يباشر مهام رسالته، فذكر عرس قانا الجليل الذي حوّل فيه الماء خمرًا، وقدم الخبر بمواجهة بين يسوع وأمه، جاءت هكذا:

«وفي اليوم الثالث كان عرس في قانا الجليل، وكانت «أم» يسوع هناك. ودُعي أيضًا يسوع وتلاميذه إلى العرس. ولما فرغت الخمر قالت أم يسوع له:

«ليس لهم خمر!

«قال لها يسوع: ما لي ولك يا «امرأة»! لم تأت ساعتي بعد!

«قالت أمه للخُدّام: مهما قال لكم فافعلوه!»[1].

هذا الخبر السريع، وهذا المواجهة الوجيزة، بين يسوع ووالدته، تنطوي على دلالة كبيرة:

ففي وسط العرس، وعلى مسمع ومرأى من الحاضرين، تتقدم الأم المعتزة بولدها، تطلب إليه أن يظهر مجده، ويحقق لها برهان فخارها به بين الناس ولعلها قد سبق لها أن رأت منه ممارسات تدل على قدرته على فعل الأعاجيب

(١) يوحنا : ص ٢ : ١ - ٥ .

والمدهشات، فلم تستشعر أنها تطلب محالاً، أو تتجاوز حق الأم فيما تؤمل من ولدها أن يجيب رجاءها فيه.

وكانت المفاجأة!

لقد أجاب أمه وسط الجمع هكذا: «ما لي ولك يا «امرأة»! لم تأت ساعتي بعد!».

وهنا ملمحان دقيقان لا تخطئهما عين مبصر، يكشفان غير قليل من نفسية يسوع:

الملمح الأول: ما لي ولك يا «امرأة»!

فهل هكذا تُخاطَب الأم من ولدها البار: «يا امرأة»؟!

وإذا خوطبت الأم هكذا، فكيف تُخاطَب امرأة أجنبية بلهجة غير ودية وغير مهذبة؟

أيمكن لشخص لا يعرف علاقة يسوع بمن يخاطبها بهذه اللهجة الجافية أن يقع في روعه أنه يخاطب بذلك والدته الحانية الودود؟

ومع ذلك فلنلتفت إلى الملمح الثاني:

لقد قال: «لم تأت ساعتي بعد»!

وعلى ذلك فلن يفعل شيئًا، ولن يجترح مدهشة، أو أعجوبة، في تلك الليلة، لأن الوقت المقدر لوقوع ذلك لم يأت بعد حسب قوله!

فماذا كان الحال؟

إنه لم يلبث أن قام بأعجوبته، بإحالة الماء خمرًا، في التوّ واللحظة!

فلِمَ أنكر إذن أن تكون ساعته آتية في تلك الليلة، ولِمَ شاب قوله بشائبة الكذب؟.

إن يسوع لا يمكن أن يكون عامدًا إلى خدش والدته، خاصة أمام الناس، ولا يمكن أيضًا أن يكون عامدًا إلى اقتراف الكذب، ولكن كما قلنا من قبل: إن هذه

الانفعالات المتمردة تفلت من رقابة الوعي والقصد معًا، وتنطلق كالقذيفة، لا يمكن استدراكها بعد انطلاقها بحال.

والتفسير مع ذلك قريب:

لقد كان يسوع في بدء التبشير برسالته، إنه يتأهب للتوجه إلى الناس، إنه يطمع في إقناعهم بعمله، وجذبهم إليه، واستجابتهم لدعوته.

إنه في تلك الحال لا يريد، ولا يقبل قط، أن يظهر شيء أو شخص، أو سبب يشدهم عنه، أو يشككهم فيه، أو يضعف من أثر فعله، أو كلماته، إليهم.

وفجأة: تظهر والدته!

يا للحرج!

إن اليهود يتهمونها منذ ولادته!

هنا تهتاج الانفعالات، وتصطرع الآلام في أعماق يسوعَ وكأنه آنئذ يقول لها بلسان حاله: لماذا تظهرين الآن؟ لماذا تنبهين الذكرى المؤلمة؟ لماذا تدفعين بالسلاح في يد الأشرار؟ لماذا تقذفين بالعثرات في طريقي؟

لذلك لم يمسك نفسه عندما تقدمت تخاطبه، أن ردّ عليها بتلك اللهجة القاسية!

لقد رد بإحساسه، لا بلفظه وقصده، وإن كان قد صاغ ذلك في كلمات!

إنه لم يعمد إلى اختيار الكلمات، ولم يفكر في آثارها، وإنما غلبه فيضان الألم والمعاناة، فانطلق عفوًا!

إن الإنسان في بعض اللحظات التي يقهره الانفعال فيها يكون أشبه بذلك الشخص المخدّر الذي ينطق بعبارات وألفاظ لا يفكر فيها، ولا يعمد إلى اختيارها، لأنه مشلول القدرة آنئذ عن التفكير والتدبير، لكنها في الوقت نفسه صادقة الدلالة على ما يثقل كاهله من مخاوف وهموم، وذكريات وأحداث!

ومع ذلك سرعان ما أفاق يسوع، فاستدرك، وفعل ما طلبت الأم الطيبة!

ترى: لو كان يسوع طليقًا من جهة أمه، غير شاعر بشيء يخصها يمكن أن يخدشه الناس به، أكان يقع منه ما وقع، ويظهر على ذلك النحو المثير، من استثقاله لمحضرها، وضيقه بخطابها؟!

٢ - تجاهُل يسوع لأمه وإخوته

حكى مرقس هذه الواقعة:

«فجاءت حينئذ إخوته وأمه، ووقفوا خارجًا، وأرسلوا إليه يدعونه».

«وكان الجمع جالسًا حوله، فقالوا له: هو ذا أمك وإخوتك خارجًا يطلبونك».

«فأجابهم قائلاً: مَن أمي وإخوتي؟».

«ثم نظر حوله إلى الجالسين، وقال: ها أمي وإخوتي. لأن من يصنع مشيئة اللّه هو أخي وأختي وأمي»[١].

وحكى لوقا أيضًا نفس الخبر[٢].

لم يذكر الإنجيليان ما كان منه بعد ذلك مع أمه وإخوته.

لكن الذي يعنينا الآن هو هذا التجاهل الصريح في قوله: «من أمي وإخوتي؟».

هذا التجاهل لا يخلو من دلالة:

فالتجاهل هو في حقيقة الأمر شعبة من شعاب الغضب، وصورة من صوره.

والتجاهل أيضًا دليل على الضيق والاستكراه.

لذلك نرى هذا الانفعال الذي انتاب يسوع في هذه الواقعة ينبع أيضًا من نفس النبع الذي انفجر منه انفعاله السابق في قانا الجليل:

هناك جمع من الناس في ذلك العرس يتهيأ يسوع للتوجه إليهم بالكلمة

(١) مرقس: ص ٣ : ٣١ - ٣٥ .

(٢) لوقا: ص ٨ : ١٩ - ٢١ .

والأعجوبة طمعًا في اجتذابهم إليه، واستجابتهم له.

وفجأة . . . تظهر أمه!

وهنا أيضًا: جمع من الناس يحيط بيسوع، وهو يتحدث، ويمارس الدعوة بالكلمة والأعجوبة، منهمكًا في مواجهة الكتبة الذين قَدِموا من أورشليم، وراحوا ينتقدونه: «فقالوا: إنّ معه بعلزبول، وإنه برئيس الشياطين يخرج الشياطين»[١]. وهو يجادلهم ويناظرهم، يتمنى أن يتمكن من قمعهم وإفحامهم.

وفجأة .. تظهر أمه!

ما هذا الذي يحدث؟ وما هذه الأقدار الغريبة التي اصطلحت على معاكسته والسخرية به؟!

وما بال هذه الأم الطيبة تظهر الآن؟!

إن المشكلة ليست في ظهورها لذاتها، إن المشكلة فيما يستثيره ظهورها في نفوس أعدائه من ذكريات عنها لا تتسم بحب أو مودة، بل بالزراية والمقت والاحتقار:

إنهم يتهمونها في عرضها، وشرف أنوثتها، وإن كانوا لخاطئين.

لكنهم على أية حال بسبب هذا الظهور قد يستعيدون الذكرى الماضية التي ينبغي أن تُنسى، ومن ثم يقذفون الشوك في طريقه، وينالون منه، ويفتتنون الناس بشأنه، ويصرفونهم عن دعوته، ويذهب جهده عبثًا!

أليس ذلك شيئًا أليمًا يسحق النفس، ويطيش له لُبّ الحليم؟!

مسكين يسوع مع هذه الأقدار التي تتعقبه، والأحداث التي تلمّ به!

لكنها مسكينة أيضًا تلك الأم الطيبة التي لم يتحمل قلبها أن تسمع الناس يقولون السوء عن ولدها، فانطلقت مع إخوته غير الأشقاء، للإحاطة به، ورده إلى بيته، وإنقاذه من الناس: «لأنهم قالوا: إنه مختل»[١].

---

(١) مرقس: ص ٣ : ٢١ .

وهكذا أطلق يسوع تلك الآهة المؤلمة: «مَن أمي وإخوتي»؟!

وكأنما أفاق بعد تلك الآهة التي تحشرج بها صدره، ونفّست عن مكابدته فاستدرك قائلاً، وهو ينظر إلى الجالسين حوله: «ها أمي وإخوتي، لأن من يصنع مشيئة الله هو أخي وأختي وأمي»!

فليكن .. يا يسوع!

لكن .. أحقًا تعلم بشأن أمك أنها لم تصنع مشيئة اللّٰه قبل هؤلاء؟!

أحقًا يا يسوع أنك لا تعلم أن هذه الأم التي جفوتها بهذا التجاهل المؤلم هي أشرف وأسمى من كل هؤلاء الجالسين حولك الذين قد لا يتحملون بعض ما تَحَمَّلَتْ من محنة وابتلاء لعل بعضه، أو أهونه، هو ما تفعله أنت الآن معها؟

إن يسوع ليعلم ذلك علم اليقين!

لكنها كما قلنا كانت صرخة الألم من وَقْر إحساسه باتهام اليهود لوالدته، واستغلالها في ضربه ومقاومته.

لك اللّٰه يا يسوع!

ولكِ اللّٰه يا مريم، أيتها البتول الطاهرة الصابرة سيدة نساء العالمين!

٣ -انفعال يسوع على مواطنيه بسبب أمه!

وحكى مرقس أيضًا هذا الخبر عن مواجهة بين يسوع ومواطنيه:

«ولما كان السبت ابتدأ يُعلّم في المجمع، وكثيرون إذ سمعوا بُهتوا قائلين: من أين لهذا هذه؟ وما هذه الحكمة التي أُعطيت له، حتى تجري على يديه قوات مثل هذه؟».

«أليس هذا هو النجار ابن «مريم»؟ وأخو يعقوب، ويوسى، ويهوذا، وسمعان؟ أوليست أخواته ههنا عندنا؟»[1].

---

(١) مرقس: ص ٣ : ٢١ .

«فكانوا يعثرون به!».

«فقال لهم يسوع: ليس نبي بلا كرامة إلا في وطنه، وبين أقربائه، وفي بيته».

«ولم يقدر أن يصنع هناك ولا قوة واحدة ....»[1].

وقد ذكر متى أيضاً هذا الخبر[2].

ويسترعي انتباهنا في هذا النص:

ذلك الاستخفاف الصريح من مواطني يسوع به: «من أين لهذا هذه؟».

كذلك: فإن أكبر ما يذكرون من المآخذ عليه أنه «ابن مريم»! : «أليس هذا هو النجار - ابن مريم؟».

إنهم ينسبونه إلى أمه، على غير العادة في نسبة الأبناء إلى آبائهم، وهو أمر مقبوح عندهم!

هم إذن يعرفون أمه!

ولا بدّ إذن أن لها في نظرهم سيرة غير مُستحبة تبرر أن ينسبوه إليها، للاستخفاف به، والحط من شأنه، وتحقيره. لذلك يصرح الإنجيلي قائلاً: «فكانوا يعثرون به»!

وكان من الطبيعي أن يشعر يسوع بالإهانة التي لطموه بها، وهم جيرانه، وأهل حيّه وبلدته، وأعرف الناس ببدء أمره، وقصة أمه، فأطلق تلك الصرخة الحادة، بعد أن جردوه من غطائه، وعَرّوه من لباس كرامته، وأذلّوا شخصه وكبرياءه: «ليس نبي بلا كرامة إلا في وطنه، وبين أقربائه، وفي بيته»!

وانسحقت نفس يسوع، وتخاذل عزمه، وغامت على روحه غيوم الحزن والألم، فعجز تماماً أن يصنع أعجوبة واحدة!

---

(١) مرقس: ص ٦ : ٢ - ٥ .

(٢) متى: ص ١٣ : ٥٤ - ٥٨ .

كل ذلك الرفض، وكل تلك الإهانة لشخصه، مبررها عندهم سبب واحد، هو سيرة أمه.

وكل ذلك العجز الذي حاق بيسوع في مواجهته لبني وطنه وبلدته سببه شيء واحد، هو إحساسه بالألم بسبب أمه.

وليس في الإنجيل كله، بنسخه الأربع. نص واحد يبلغ مبلغ هذا النص الفريد في الصراحة والوضوح.

ومن لم يقنعه هذا النص بمدى معاناة يسوع بسبب أمه، وشعوره باتهام اليهود لها، فليرح نفسه، فلا خير يُرجى منه في بحث هذه الأمور!

وقد روى متى أيضًا هذه القصة، ولكنه حرّف النص عن وجهه، وعوّجه حسب ما يتفق مع خطته في رواية الميلاد في ادعاء الستر على مريم، وأنها لم تشهر، ولم يعلق بسيرتها أذى.

لذلك نراه يورد قول مرقس: «أليس هذا هو النجار - ابن مريم» محرفًا هكذا: «أليس هذا ابن النجار؟ أليست أمه تدعى مريم؟»! للإيهام بخفاء أمر والدته، وغموض شأنها عن الناس، وصرف النظر عن كون سيرتها هي السبب في نبذه، والتحقير له.

على أية حال، فقد أقر المحدثون والمعاصرون بسبق تدوين إنجيل مرقس على تدوين إنجيلي متى ولوقا، وأنهما قد نقلا عنه، وحوّرا في المعنى والأداء. وبذلك تسقط محاولة متى الساذجة لتحوير النص عن وجهه، وإخفاء حقيقة من أعظم الحقائق في حياة يسوع!

ونكتفي بهذا القدر من نصوص الأناجيل المعتمدة في إبراز الجانب النفسي لمعاناة يسوع من مواطنيه بسبب والدته، واتهامهم لشخصها بسبب ولادته العذراوية.

* * *

الدليل الثاني

رواية لوقا واتفاقها مع القرآن

ذكر لوقا أن البشارة كانت لمريم، لا إلى يوسف خطيبها، فقال:

«وفي الشهر السادس أُرسل جبرائيل الملاك من اللّه إلى مدينة من الجليل اسمها «ناصرة»، إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه «يوسف»، واسم العذراء «مريم»...»[١].

ثم ذكر أن مريم بعد أن تلقت البشارة سافرت إلى قريبتها إليصابات زوج زكريا، وقضت عندها ثلاثة أشهر، ثم رجعت إلى بيتها، قال:

«فقامت مريم في تلك الأيام، وذهبت بسرعة إلى الجبال، إلى مدينة يهوذا، ودخلت بيت زكريا، وسلّمت على إليصابات»[٢]. ثم قال «فمكثت مريم عندها نحو ثلاثة أشهر، ثم رجعت إلى بيتها»[٣].

ولم يذكر لوقا أي شيء عن يوسف في هذه الأشهر الثلاثة.

ولم يفسر لوقا أسباب زيارة مريم لإليصابات، ومُكثها عندها تلك المدة.

أما نحن فنرى أنها ربما فعلت ذلك انزعاجًا بالحدث وطلبًا للمشورة فيما حلّ بها، وأن يكون رجوعها بعد الأشهر الثلاثة الأولى عن مشورة من زكريا وإليصابات إليها بأن تخبر خطيبها بحقيقة الحال بهدف إقناعه بأن يسترها بالزواج، وإلا تدبّروا ما يفعلون إن رفض.

وهنا قد يكون بوسع المسيحيين أن يحتجّوا بأن مريم كانت مطمئنة، موقنة بصحة البشارة، مبتهجة بها، بدليل تلك الأغنية التي ذكر لوقا أنها قد تغنّت بها عند التقائها بقريبتها إليصابات، زوج زكريا، وأم يوحنا المعمدان[٤].

---

(١) لوقا: ص ١ : ٢٦ - ٢٧

(٢) ص : ١ : ٣٩ - ٤٠ .

(٣) ص ١ : ٥٦

(٤) لوقا: ص : ١ : ٤٧ - ٥٥ .

ومن الحق أن جميع نسخ إنجيل لوقا في الترجمات المختلفة تورد هذه الأغنية على لسان مريم، ومع ذلك فقد ذكرت بعض المصادر الإنجيلية أن أوريجانوس Ori-gen (١٨٥ - ٢٥٤م) قد ذكر أن «إليصابات» وليست مريم هي التي تغنت بهذه الأغنية. كما أن بعض نسخ الترجمة اللاتينية القديمة قد ذكرت أن «إليصابات» وليست مريم هي التي تغنت بها (١).

كذلك فإن بعض الترجمات المعاصرة. وهي ذات اعتبار في نظرنا وعند سائر الباحثين. تذهب نفس المذهب. وتؤكد المعنى ذاته. إذ تعلق الترجمة الإنجليزية The New English Bible على تلك الأغنية بأن أغلب الشواهد تنسبها إلى مريم. ثم تقول: والبعض يقرأها إليصابات. وأنه ليس في الأصول أية أسماء: فما هي دلالة ذلك إذن؟ أليس يعني أن نسبة هذه الأغنية إلى مريم هي من قبيل الظن. وأن الدليل الصحيح على كونها لها لا سبيل إليه. ولا أصل له؟

إن الذين زعموا أن الأغنية إنما هي لإليصابات أقرب إلى الحقيقة، وأقوى بشهادة المنطق والتاريخ، فالأغنية بإقرار الباحثين المسيحيين أنفسهم تناظر أغنية حنة في سفر صموئيل الأول (ص ٢ : ١ - ١٠) من حيث المعنى، كما أن فيها اقتباسات لا تخفى عند المقارنة. وعند النظر في دواعي كل من حنة وإليصابات للتغني بأغنية كل منهما، نرى المرأتين تتشابهان من حيث الأحوال والأسباب. إذ كانت كل منهما عاقرًا، وتجاوزت السنين العديدة دون نسل، مع دوام الاقتران بزوجيهما، وكلٌّ منهما واجهت الشناعة من بني قومها، وشماتة الشامتين. ومن ثم كان من الطبيعي أن نتوقع من إليصابات أن تغني كما غنت حنة من قبلها. لأن العلة واحدة، والحال أشبه بالحال. أما مريم ابنة الاثنى عشر ربيعًا، والتي لم تكد بعد تتفتح لمرحلة النضج والشباب، ولم تأنس بعدُ إلى زوج، فما الذي يشغلها بهذا الأمر. حتى تتغنى بأنها ظفرت بعد حرمان، واستجاب لها الربّ، وأقرّ عينها بما سألت. وخذل الشامتين؟! إن الأغنية لا تحمل ملامح مريم بحال. ولا يبررها المنطق. ولا يتقبلها فؤاد ذكي، لأنها تمنع الصورة عن صاحبتها الحقيقية. وتحملها على أخرى، مراغمة للعقل، واستكبارًا على الواقع، وإنكارًا للذوق.

(١) Gospel Parallels: Burton Throckmorton, P. 5 the footnote: m.

وافتئاتًا على الحقيقة.

لا حاجة إذن بالنصارى أن يحتجّوا بأن مريم لم تتزعج لحدَث البشارة استنادًا إلى تلك الأغنية التي ليست لها بحال، بل يجب أن يقروا بأنها قد انزعجت، وشبعت انزعاجًا، لأن تلك هي الفطرة الصحيحة لفتاة واعية ذكية، لم تكن ساذجة ولا رعناء، لا ترى أبعد من قدميها ..

ثم يكمل لوقا الرواية بخبر الاكتتاب الذي جاء بعد ذلك بستة أشهر دون أي خبر عن يوسف خلالها، إلى أن يفاجئنا به وقت الاكتتاب، فيقول:

«وفي تلك الأيام صدر أمر من أوغسطس قيصر بأن يكتتب كل المسكونة».

«وهذا الاكتتاب الأول جرى إذ كان كيرينيوس والي سورية».

«فذهب الجميع ليكتتبوا، كل واحد إلى مدينته».

«فصعد يوسف أيضًا من الجليل، من مدينة الناصرة، إلى اليهودية، إلى مدينة داود التي تُدعى بيت لحم، لكونه من بيت داود وعشيرته، ليكتتب مع مريم امرأته «المخطوبة» وهي حبلى.

وبينما هما هناك، تمت أيامها لتلد. فولدت ابنها البكر، وقمطته، وأضجعته في المذود، إذ لم يكن لهما موضع في المنزل».

وتثور التساؤلات:

لماذا لم يظهر يوسف قط خلال الأشهر الثلاثة الأولى، ولا خلال الستة التالية إلى أن كان وقوع الاكتتاب المذكور؟

ولماذا ظلت مريم حتى وضعت مولودها على قيد الخطبة دون الزواج؟

وهل تلقى يوسف أثناء ذلك بشارة من الملاك بحمل مريم، كما زعم متى في روايته، أم لم يحدث شيء من ذلك؟

وإذا كان قد تلقى بشارة بهذا الشأن فأين الخبر عنها عند لوقا، ولماذا أغفلها؟

ومتى تلقى هذه البشارة: أبعد الأشهر الثلاثة الأولى عندما اكتشف حملها،

كـمـا توهمنا بذلك رواية مـتى، أم كـان ذلك في وقت سـابق مـبكر، أو وقت لاحق مـتـأخـر؟ وهل كـان عند ظهـور الحـمل وبروزه للناس، أم في البدايات وهي لا تزال مستورة؟

فـإن كـان في البـدايات وهـي لا تزال مـسـتـورة فـالغـايـة من البـشـارة إذن تكون مـعلومـة. وهي الستـر عليـهـا، وتحـصـينـهـا من ألسنة الناس وظنونهم. وهنا يلزمـه أن ينجـز الأمر من فوره كما فعل في رواية متى، فيتزوجـهـا، ويحملها إلى بيـتـه، ويسـتـر عليـهـا، ويتـبنى ولـدهـا، فلمـاذا تـأخـر إذن؟ أمـا إن كـان قـد تلقـاهـا بعـد ذلك، فـمـا الجـدوى، وقـد انكشـفت، وافـتـضـحت، وشـاع عنـهـا مـا شـاع، وثلمـهـا الناس، وقـذفـهـا القـاذفون؟.

ومع ذلك فكيف يسـتـقـيم هـذا التـصـور، وهو قـد ظل حـسب روايـة لوقـا هـذه ، وحتى وضـعـت مـولودهـا، لـم يخـط بهـا خـطـوة واحـدة نحـو الزواج، وتـركهـا على قـيد الخطبة، رغم ما بها لتتلقى صفعات الاتهام من هنا ومن هناك؟!

إن لوقا لا يذكر أي خبر عن بشارة إلى خطيب مريم.

كذلك فإنه يحرص على توكيد أن يوسف لم يتقدم خطوة واحدة من الخطبة إلى الزواج من مـريم، بل يقـول عنهـا عنـدمـا حـانت ولادتهـا: «... ليكتـتب مع مريم امـرأتـه «المخطـوبة» وهـي حبلى»، فيصـرّ على أنها وقت الاكتـتاب، وفي تمام حـملهـا، كـانت لا تزال مخطوبة ليلفت انتباهنا إلى حجم مصابها الفادح آنذاك!

هـذه المقدمـات التي ذكرهـا لوقـا تسـتدعـي بالتالي أن نتسـاءل: كيف واجـهت مريم الموقف خـلال الأشهـر التسعة، خـاصـة عند بروز حـملهـا، وظهوره للناس؟ وماذا كـان موقف الناس منها، وهـم لا يرونـهـا أكثر من مخطوبة لم تتـزوج، ولم تتحصن بالرباط الشرعي؟

ثم نتسـاءل أيضـًا: لماذا لم يحدثنا لوقـا عن تلك الفـتـرة من حـمل مـريم التي تلت الأشهر الثلاثة الأولى، وعن حـال مريم فيها، إن كانت قد افتضحت، أم احتالت لهذا الأمر في الستر على نفسها؟

أمـا نحـن فنرى أن الإجـابة علـى ذلك كله تكمن فـي فـحص هذا النـص النـادر

الفريد من رواية لوقا، وذلك حيث يقول:

«فصعد يوسف أيضًا من الجليل، من مدينة الناصرة، إلى اليهودية، إلى مدينة داود التي تُدعى بيت لحم، لكونه من بيت داود وعشيرته، ليكتتب مع مريم امرأته «المخطوبة» وهي حبلى»[١].

لقد فهم الشراح المسيحيون من ذلك النص أن يوسف اصطحب مريم من مدينة الناصرة من الجليل، إلى بيت لحم باليهودية ليكتتبا معًا، وبهذا يرون يوسف ملتزمًا بخطبته لمريم. وأنه كان أيضًا ملتزمًا نتيجة لذلك بتبنّي مولودها، ونسبته إليه. ومن ثم فلا إشكال عندهم بشأن مريم.

وعندنا أنه لو صح ذلك، فإنه يعني أن يوسف كان حريصًا على سمعة مريم، مهتمًا برعايتها، فما الذي منعه أن يؤكد ذلك بالزواج الفعلي، منذ اكتشف حملها فلا يعرّضها لأي موقف مُهين، وهي على تلك الحال من الحمل قبل الزواج، وحيث موقفه منها لا يزال بعيدًا عن الارتباط الشرعي؟ هل كان شاكًا؟ هل كان مترددًا؟ إن كان كذلك فلا يتفق مع الدعوى بأنه حرص على اصطحابها من الناصرة إلى مدينة الاكتتاب. وإن لم يكن شاكًا ولا مترددًا فلا وجه للتخاذل والانتظار، وتركها نهبًا للظنون والافتراءات، وشتى التهم والشناعات، تُقتل كل لحظة بنظرة أو كلمة من هنا أو هناك!

ومن ثم: فهذا الفهم من الشراح المسيحيين لا يحسم الموقف، ولا يمنع من افتضاح مريم، والتشهير بها، من قومها في الناصرة والجليل، ومن كل من يعلم أنها غير متزوجة، ولا كانت متزوجة قط، رغم كونها حبلى ظاهرة الحبل لكل ذي عينين!

لذلك نختلف نحن معهم في هذا الموضع، ونرى أنهم قد أخطأوا القراءة الصحيحة لذلك النص الذي ذكرناه، إذ نلاحظ أن الكاتب لم يقل: «صعد يوسف و«مريم» من الجليل» بل قال: «صعد يوسف أيضًا من الجليل». فالذي صعد إذن هو «يوسف» وحده، ولا ذكر لمريم بحال في هذه المرحلة!

---

(١) لوقا: ص ٢ : ٤ - ٥ .

ومن ثم: فإما أن مريم آنذاك كانت في الجليل، في مدينة الناصرة التي صعد منها، فلم يصحبها معه، فيعارض بذلك قوله من بعد: «ليكتتب مع مريم امرأته المخطوبة وهي حبلى».

وإما أن مريم كانت آنذاك في مكان آخر، فيوجب عليه الداعي ، أو الملزم له إلى الاكتتاب معها، أن يلتقي بها في ذلك المكان الآخر.

ونحن نرى أن مريم لم تكن آنذاك بمدينة الناصرة، أو بأي موضع من الجليل، بل نقرر أنها كانت في موضع آخر هو بيت إليصابات وزكريا في مدينة أورشليم باليهودية على ما سبق أن بيناه من قبل في مناقشة رواية لوقا هذه، وإظهار تعارضها مع رواية متى. وقد ذكرنا هنالك أنها قد التجأت إلى بيت زكريا واليصابات منذ أن شعرت بتقدّم الحمل، وخافت من افتضاحها بين الناس، بعد أن أخفقت في إقناع يوسف خطيبها بحقيقة الحال في هذا الحمل الذي حلّ بها .

وبهذا يتضح السبب في كون كاتب لوقا لم يقل: «صعد يوسف ومريم من الجليل»، بل قال فقط: «صعد يوسف أيضًا من الجليل» لأنها فعلاً لم تكن هنالك في ذلك الوقت.

ويترتب على ذلك بالتالي أنها لم تفتضح بين بني قومها في الناصرة والجليل أثناء الحمل لأنها لم تكن آنئذ بينهم.

يضاف إلى ذلك أن رواية لوقا هذه تظل حتى ولادة يسوع، وختانته، وتطهير أمه بعد أربعين يومًا من ولادته، ثم رجوعهم إلى الناصرة بالجليل تؤكد على استمرار حالة مريم بكونها على قيد الخطبة لم يتغير الحال بشأنها إلى زواج.

ثم تنقطع رواية لوقا في فترة صمت تمتد إلى حين بلوغ يسوع الثانية عشرة من عمره، عند زيارته أورشليم في عيد الفصح:

ماذا تمّ بعد عودة مريم من الناصرة منذ ولادة يسوع؟ ومتى تزوجها يوسف؟ وكيف كانت حال يسوع وأمه خلال تلك الفترة؟ كل ذلك لا ندري عنه شيئًا لا من لوقا، ولا من غيره من الأناجيل المعتمدة.

رواية لوقا إذن تقدم المقدمات الصحيحة التي تمهد بعد ذلك لوقوع الاتهام لمريم من بني قومها وعشيرتها.

إنه يعطينا احتمالات ما يحدث في مدينة الناصرة ودار قومها من ردود فعل عندما يرونها قادمة إليهم تحمل بين ذراعيها طفلاً تدّعي أنه مولودها، وثمرة أحشائها، وهي لا تزال على قيد الخطبة ليوسف، لم يدخل بها بعد، ولعله لن يدخل أبدًا!!

وهنا اللقاء مع القرآن!

وهذه النتيجة تؤدي إلى مداخلة القرآن وملابسته على نحو عجيب من الاتفاق، حيث لم يذكر قط أنها افتضحت أثناء حملها، بل افتضحت بعد أن عادت إلى دار قومها تحمل وليدها بين ذراعيها:

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾.

﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾.

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾[1].

على أن هذا التفسير الذي قدمناه تتبني عليه أيضًا نتائج أخرى:

منها: صحة الصلة بين مريم وزكريا التي تجاهلتها الأناجيل المعتمدة، حيث صرح القرآن بكفالته لها في نشأتها وتربيتها. وحيث صرح أوريجانوس أيضًا، في التقليد السابق نقله عنه في مناقشتنا لرواية لوقا ورواية متى من قبل بأن زكريا قد تدخل من أجل مريم بعد أن وضعت مولودها بفترة، ليؤكد عذراويتها، عندما منعوها في الهيكل من مكان العذارى، بما يدل على انتشار الفضيحة في أنحاء البلاد. وأن الحال قد تقلب بها بعد ولادة يسوع، وكانت تأوي إلى زكريا!!

كما أنه قد يلقي بعض الضوء على جانب من ذلك التقليد الذي تسرب من اليهود إلى المسلمين من كونهم كانوا يتهمون زكريا بإحبال مريم، فقتلوه بسبب ذلك. يقول الطبري في تاريخه: «فقالت بنو إسرائيل: ما أحبلها أحد غير زكريا، هو كان

(١) مريم: ٢٧ - ٢٩.

يدخل إليها. فطلبوه ففر منهم...»[١]. إلى أن ذكر قتلهم له على نحو أسطوري تخلل سياق الرواية.

وبعد ..

فإن افتضاح مريم في خبر القرآن ورواية لوقا يتفق مع المراد من معجزة أن تحمل عذراء بمولود من غير زرع بشر، بينما سترها، وكتمان أمرها، كما تقول رواية متى لا يتفق مع ذلك المراد، لأنه لو ظلّ أمرها سرًا مكتومًا على ما يقول به متى، لم تشهر، ولم تفتضح، لما علم به أحد، فمن أين يتحقق العلم للناس بتلك المعجزة؟

والعجب من متى أنه استشهد بتلك الآية: «ها العذراء تحبل، وتلد ابنًا....»[٢]، وهو أمر يقتضي الإعلان والإشهار، مهما تكن العواقب، بينما هو يدّعي أن ذلك قد أحيط بالسرية والكتمان بين يوسف ومريم!! كيف ذلك، وكيف حاول كاتب متى أن يعاند القدر، بتلك الأكذوبة الساذجة؟ لا ندري!

* * *

(١) تاريخ الطبري : جـ ٢ ص ٦٠٠، ط ٢ دار المعارف.

(٢) اشعياء: ص ٧ : ١٤ .

الدليل الثالث

الشهادتان من يوحنا بقذف اليهود

ليسوع بأنه : مولود من زنا

قدم إنجيل يوحنا خبرين هامين، يعتبران بحق شهادتين صريحتين على اتهام اليهود لمريم، واستغلالهم ذلك في نبذ المسيح، ودفع رسالته.

الشهادة الأولى

اليهود يسألون يسوع عن أبيه!

لقد ذكر لوقا أن يسوع عندما ابتدأ يبشر برسالته كان ينسب إلى يوسف النجار، قال لوقا: «ولما ابتدأ يسوع، كان له نحو ثلاثين سنة، وهو على ما كان «يُظَنّ» ابن يوسف..»[١].

ونلاحظ أن لوقا يستخدم لفظ «يُظَنّ» في نسبة يسوع إلى يوسف، وهو ما يعني أن الناس لم يكونوا على قول واحد، أو يقين صحيح، في نسبة يسوع إلى يوسف، بل كان أمر نسبه «ظنيًا» وليس يقينيًا.

لذلك نرى يوحنا في إنجيله يذكر أنهم سخروا منه عندما تحدث عن «أبيه»، وتهكموا نسبه، وسألوه أين يجدون أباه.

وقد جرى الحوار هكذا عند يوحنا:

قال يسوع: «أنا هو الشاهد لنفسي، ويشهد لي الأب الذي ارسلني، «فقالوا له: اين هو ابوك»[٢].

ترى أي وجه يبرر لهم أن يسألوه عن أبيه، لو كانوا يعلمون، أو بالأحرى يوقنون أن أباه هو يوسف النجار؟

(١) لوقا: ص ٣ : ٢٣ . (٢) يوحنا: ص ٨ : ١٨ - ١٩ .

لا وجه بحال لهذا السؤال إلا كونهم يشكون في نسبه، وفي كونه ابنًا حقيقيًا ليوسف. ومن ثم فالسؤال ينطوي على خبيئة خبيثة هي أنه مولود من زنا؟!

الشهادة الثانية

تعريض اليهود بنسب يسوع

أما الشهادة الثانية التي يقدمها يوحنا فتكشف عن تصريح اليهود بخبيئة نفوسهم عن نسب يسوع حيث عمدوا إلى التعريض به في حوار حاد سريع جرى بينهم وبينه هكذا:

قال يسوع: «أنتم تعملون أعمال أبيكم.

«فقالوا له: إننا لم نولد من «زنا»، لنا أب «واحد» وهو الله»[١].

فهذا تعريض مكشوف، وإيماء إلى تهمة الزنا التي نسبوها إلى أمه. كما أن قولهم «لنا أب واحد» قد يكون تعريضًا له بأنه ينسب إلى رجل، وأنه من صلب آخر؟!

ويربط بعض المعاصرين بين هذه الفقرة من يوحنا وبين القصة اليهودية التي تدّعي كون يسوع ابنًا غير شرعي من علاقة مريم بجندي روماني[٢]، كما سنذكرها بعدُ، في شهادة «كلسوس Celsus».

* * *

(١) يوحنا: ص ٨ : ٤١ .

(٢) A.c. Bouquet: Comparative Religion, p. 237 - 238, and also: Norman Geisler: Christian Apologetics, p. 325.

وانظر كتابنا: عقائد النصارى الموحدين: ص ١٢١ - ١٢٢، ص ١٢٨ - ١٢٩ . ط١ ، دار الأنصار.

الدليل الرابع

الشهادة من الأناجيل الأبوكريفية

شهادة إنجيل يعقوب

بمحاكمة مريم ويوسف بسبب حملها الغامض

أولا: أهمية التراث الأبوكريفي المسيحي:

ثم نصل إلى شهادة الأناجيل الأبوكريفية.

وهنا وقفة قبل أن نسترسل فيما نحن بصدده:

فقد نشأت قضية الأبوكريفا Apocrypha أصلاً منذ قامت الكنيسة في القرون الأولى بالاختيار من بين أناجيل كثيرة، وكتابات متنوعة، لما يتفق مع عقيدتها في المسيح.

ولما اختارت الأناجيل الأربعة المنسوبة إلى كل من : متى، ومرقس، ولوقا ويوحنا، مع سفر الأعمال، وبعض الرسائل التي أرفقتها بتلك الأناجيل، وضمتها جميعًا في كتاب أسمته «العهد الجديد»، كان عليها بعد ذلك أن تتخذ موقفًا حاسمًا تجاه الأناجيل والكتابات الأخرى التي لم تظفر منها بالإقرار، فوصمتها جميعًا باسم الأبوكريفا Apocrypha وهذا اللفظ يستمدّ صورته من اللفظ اليوناني Apokryphos الذي يشار به إلى الشيء المخفي Hidden أو المستور Esoteric وذلك لأن الكنيسة منذ ذلك الحين أمرت بإخفاء وستر هذه الكتابات، ومنعها من النشر والتداول، وتحريم اطلاع الجمهور عليها، لكونها تنطوي على أخبار ومعتقدات تبدو في نظرها مضادة ومخالفة لمعتقداتها، وللحقائق المسلمة لديها، أو المعلنة للجمهور.

وكان من أثر استبعاد هذه المصادر شعور الكنيسة، والمثقفين المسيحيين

بصفة عامة، بقصور ظاهر في الأخبار والمعلومات المتعلقة بكثير من القضايا المطروحة بشأن المسيح وأمه، وبشأن التلاميذ، الأمر الذي حدّ من الأفق التاريخي والتراثي الذي تستطيع الكنيسة أن تمارس مهمتها في حدوده، بما جعلها تعاني من ضيق انحصارها في الرقعة الضيقة من المعلومات التاريخية التي تتاح لها من كتاباتها المعتمدة. وأصبح ذلك ينعكس بالتالي على إمكاناتها وفتاواها في تلك القضايا التي تطرح ولا جواب لها في الرسائل والأناجيل القانونية المقررة.

لذلك بدأت الكنيسة، وعلى الأخص، في القرنين الأخيرين، التاسع عشر والعشرين، تختلس النظر في تلك المصادر الأبوكريفية من أناجيل ورسائل، ولم تلبث أن أقرت أخبارًا ووقائع، أو دعاوى وتصورات، وردت في تلك المصادر المتهمة منها من قبل، حتى وإن كانت على مستوى الأسطورة، والخيال المحض.

ومن دواعي العجب، أن كُتّاب الكنيسة، ومؤلفيها، لم ينجحوا في استشعار موقف الكنيسة ومعاناتها، ولم يتعلموا الدرس، ولم يتنبهوا لخطر دلالته، وإذا بنا نراهم وقد راحوا على عادتهم يهيلون التراب على التراث الأبوكريفي بلا تمييز أو استثناء، ويعتبرونه مجرد خرافات وأساطير، لا تستحق في نظرهم عناء البحث والمراجعة!

وإذا قيل لهم: إن الكنيسة ترجع الآن في كثير من فتاواها وعقائدها إلى تلك المصادر، بما يستوجب مراجعة النظر بشأنها، أجابوا: أن ذلك لا يعني أن - هنالك أساسًا تاريخيًا لذلك، وكل ما في الأمر - حسب تقديرهم - أنها فكرة، أو أفكار استحسنت الكنيسة القول بها، فقالت بها، لكنها لا أصل لها من التاريخ أو الواقع. هذا وهم يتحدثون باسم الكنيسة!

يقول أحد هؤلاء: «... إذا تبنّت الكنيسة عيد دخول السيدة (الهيكل) مثلاً، واقتبست هيكله من الأدب التقوي الشعبي، فلا تلزمنا بالضرورة أن نقول بحدوث الحادثة، ولكنها تدعونا لتأمل معنى روحي قائم أصلاً في التقليد الكنسي، ذي

ارتباط بسر خلاصنا، ولو كنا لا نستطيع أن نتبين ارتباط هذا المعنى بعالم الحس»[١].

ثم يستكمل كلامه قائلا: «... كل هذا يجعلنا نذهب إلى أن العيد عيد فكرة، وأن ليس في القرون الأولى ما يلقي طابعًا ثبوتيًا على الحادثة. فنقول إنه خُلقت الحادثة في الديانة الشعبية، ونشأ العيد مستعملاً الصورة في الديانة الشعبية لدعم الفكرة»[٢].

وخلاصة هذا التبرير الذي يقدمه المتحدث المسيحي أن الحوادث التي تتحدث مثلاً عن الحمل بمريم، ثم مولدها، ثم دخولها الهيكل، ثم وفاتها، لم تحدث على الإطلاق، أو على الأقل لم تحدث على النحو الذي تقول به الكنيسة، والذي ورد في مصادرها الأبوكريفية، فليس هنالك سند صحيح يثبت ذلك. ولكن الكنيسة اكتشفت أنها مع ذلك لا بأس عليها أن تحتفي بتلك المناسبات، وتقول فيها بما قالته المصادر التي ذكرتها، دعمًا لربط الشعب بعقيدته، رغم علم الكنيسة بأن تلك المصادر الأبوكريفية كاذبة، حسب شهادة الكنيسة نفسها فيما تدّعيه من ذلك!!

أرأيت أيها القارئ اتهامًا للكنيسة بالكذب المتعمد، ودعم أكاذيب المتقدمين وتوكيدها، وخداع الجمهور المسيحي في العالم كله، يفوق هذا الاتهام؟!

وكأنه لو ذهب إنسان يبحث ويتثبّت من حقيقة المناسبة يكون على الكنيسة أن تقول له: إن تلك الحادثة لم تحدث، ولم يكن لها وجود، ولكننا نخدع الشعب، ونجعله يتصور ذلك، ويصدقه، ويحتفي به، ليظل الناس على دينهم، مرتبطين بعقيدتهم، متعلقين بذكرياتها، فلا يلتفتون إلى ملة أخرى !! وكأنه يصعب على ذلك الإنسان أن يقول لهم ردًا على ذلك: ما الذي يمنع أن يكون كل ما جاء في عقيدتكم كذبًا في كذب، ما دمتم تعتمدون الكذب، وتروّجون له، وتدينون به؟!

إن كل ما يحمل ذلك الكاتب المسيحي وأمثاله على أن يقولوا بهذا الكلام

(١) ص ٥١ . كتاب الرؤية الأرثوذكية لوالدة الإله. مجموعة من المؤلفين. سلسلة: تعرف إلى كنيستك. منشورات النور ١٩٨٢ بيروت.

(٢) ص ٥١ : نفس المرجع.

الأهوج، هو حرصهم على انتزاع أي قيمة للمصادر الأبوكريفية. إنهم متعصبون بغير تبصّر، ولكنهم أيضًا مدركون لقوة تلك المصادر المستبعدة لو نُشرت، ودُرست من جديد، دراسة جدّية متجردة.

ومع ذلك فنحن لا ننكر أن بعض الكتابات الأبوكريفية تشتمل على أخبار مختلقة، وأساطير وخيالات جامحة، بجانب اتجاهات صريحة التعارض مع العقائد التي يدين بها المسيحيون، ولكن ذلك لا يعني أن تُوصَم كل الكتابات الأبوكريفية بوصمة جزء منها، فلا يمكن اعتبارها جميعًا على مستوى واحد في الانحراف، أو الكذب والاختلاق فهذا محال من الوجهة النظرية، فضلاً عن الواقع المشاهد، والحقائق الملموسة.

ومن ثم فمن المؤكد أن نجد في ذلك التراث ما يستحق الاعتبار، وينطوي على قيمة وأهمية، من جهة العقيدة الحالية، أو المعلَنة، بجانب ما قد يُرى أنه دون ذلك، أو بعيدًا عنه.

ولعل الدليل على صحة ما نقول به أن نفس الكاتب السابق ذكره لم يلبث أن أقر بهذه الحقيقة قال: «من هنا يتبين أن الكنيسة لا تشجب بالضرورة كل ما ورد في أدب الأبوكريفا: **فعند الآباء ما يقارب الأربعين استشهادًا أو تنويهًا بإنجيل «العبرانيين»** الذي كان قسم من المسيحيين العبرانيين يستعمله في أواخر القرن الأول. وإنجيل: **«بطرس» الذي يصف الآلام والقيامة يمكن اعتباره «قويمًا» جملة.** والكنيسة استقت من الأبوكريفا كل أعياد السيدة [مريم]: حبل حنة، والمولد، الدخول [إلى الهيكل]، الرقاد [الوفاة]»[1].

لذلك نرى أن التهجم على التراث الأبوكريفي المسيحي لا يخلو من مجازفة وخطأ ولا يلبث من يندفع إلى الطعن فيه أن يجد نفسه مرغمًا تحت ضغط الحقائق إلى التسليم بالجانب الإيجابي لذلك التراث، الذي لا زال حتى الآن، بعيدًا عن الاهتمام الصحيح من الباحثين سواء في المسيحية، أو في غيرها!

(١) نفس المرجع السابق ص ٢٩ .

على أية حال، فإن أهم ما يؤخذ على المصادر الأبوكريفية في نظر خصومها أمران

الأول: أنها تتسم بغلبة طابع الأسطورة عليها.

الثاني: افتقاد العنصر التاريخي فيها.

ويتبادر إلى ذهن القارئ الذي لم يطّلع، أو لم يحقق، في الأناجيل المعتمدة أنها قد خلت من هذه المآخذ التي تؤخذ على الأناجيل الأبوكريفية، وإلا لما احتجوا بذلك.

والواقع أن هذه الأناجيل المعتمدة، ليست أفضل حظًا من تلك الأناجيل الأخرى في هذه المآخذ، بل ربما زادت عنها في هذه السلبيات كما سنبين بعضه في هذا السياق.

وقد يدهش القارئ أن يعلم أن الكنيسة كانت تدين في البداية بالأناجيل التي تسميها الآن «أناجيل أبو كريفية» وأنها كانت بطيئة جدًا، ومترددة بشكل ظاهر، في قبول هذه الأناجيل الحالية المعتبرة قانونية ومعتمدة!![1].

أي أن الأمر في تخطئة وتصويب هذه وتلك، أمر نسبي، حسب مقتضى الحال، وحسب المنفعة!!

وعلينا الآن أن ننظر في مدى صواب أو خطأ دعاواهم بشأن الأناجيل الأبوكريفية:

تفنيد الدعوى الأولى

ونقول: إن الاعتراض بأن الأناجيل الأبوكريفية تتسم بغلبة طابع الأسطورة عليها يصح في حال خُلو الأناجيل المعتمدة من هذه السمة، لأن هذا يعني صدقها وواقعيتها، وتناغمها مع منطق العقل، وحركة الأحداث. أما إذا اتضح أنها أيضًا مثلها في تلك السمة، فلا وجه عندئذ للاعتراض، لأن كليهما بذلك يستقيان من نبع واحد، بما يقتضي أيضًا أن يؤخذا بمعيار واحد في الحكم والاعتبار.

(١) The New Bible Dic. Art. New Testament Apocrypha, p. 881 .

ونحن إذا تصفحنا الأناجيل المعتمدة، اتضح لنا أن سمة الأسطورة غالبة على أخبارها:

فقد التقت أناجيل كل من : متى، ومرقس، ولوقا، ويوحنا: على ذكر أسطورة إطعام خمسة آلاف رجل، عدا النساء والأطفال، من خمسة أرغفة وسمكتين[١]!

وهذه الأسطورة حارت فيها ألباب باحثيهم وعلمائهم، حتى اتهموا هؤلاء الإنجيليين، وفسروها تفسيرات تناقض تماماً سياق النصوص!

ولم يخل إنجيل كل من متى ومرقس من جموح الخيال والإغراب عندما زعم كلاهما أنه وقت موت يسوع انشق حجاب الهيكل إلى اثنين من فوق إلى أسفل، وزُلزلت الأرض، وتشققت الصخور، وتفتحت أفواه المقابر: «وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين، وخرجوا من القبور بعد قيامته، ودخلوا المدينة المقدسة، وظهروا لكثيرين»[٢].

ولم تكن هذه الأسطورة المجنحة أفضل حظاً من سابقتها فيما ظفرت به من تهكم العلماء وسخريتهم بالذين يلهمهم «الروح القدس»!!

أما لوقا فقد انفرد بذكر أسطورة ظهور الملاك والجند السماويين للرعاة، ليلة ولادة الناصري!![٣].

وأما يوحنا فقد جدد وأضاف أسطورة الملاك الذي كان ينزل في البركة ليحرك ماءها لشفاء جمهور المرضى والعرج والعمي!![٤].

هذا فضلاً عما التقوا عليه بعد ذلك من أساطير إحياء الموتى، والأشفية الجماعية، وغيرها، مما لو صح حادث واحد منه في نظر قومه ومعاصريه لما تركوه وقت القبض عليه، ولا رفعوه على الصليب، يتسلون بالسخرية منه، والتهكم عليه

(١) متى: ص ١٤ : ١٥ - ٢١ ، مرقص: ص ٦ : ٣٥ - ٤٤، لوقا: ص ٩: ١٤ - ١٧ ، يوحنا: ص ٦: ٥ - ١٣ .

(٢) متى: ص ٢٧ : ٥١ - ٥٣ ، مرقس: ص ١٥ : ١٧ - ٣٨ .

(٣) لوقا: ص ٢: ٨ - ١٤ .

(٤) يوحنا: ص ٥ : ١ - ٤ .

وإهانته بالصفع والضرب، والتفل على وجهه الذي لا ندري إن كان آنذاك وجه دجال، أم شيطان، أم رجل صالح!!

وإذا كانت هذه الحكايات التي تحمل طابع الأسطورة المحضة، والخيال الصريح، مدوّنة ومسجلة في أناجيلهم المعتمدة، ويمانون عند تفسيرها، فلماذا يعيبون على الأناجيل الأبوكريفية حكايات مثلها، والكل يستقي من نبع واحد في الأصل والحقيقة؟! وإذا كانوا يتكلفون المحال ليجدوا تفسيرًا يبررون به هذه الحكايات، فلماذا لا يرون للأناجيل الأبوكريفية نفس الحق في تخريج أساطيرها، ومحاولة تعليلها وتبريرها؟! لماذا نحكم على الاثنين بمعيارين مختلفين مع أن مرجعهما واحد في استلهام الخيال، والجنوح إلى الأساطير؟!

لا وجه إذن للاعتراض من هذه الناحية: إذا كان الحال هنا هو الحال هناك!

ومن ثم تسقط تمامًا دعواهم بغلبة الطابع الأسطوري على الأبوكريفا وبراءة أناجيلهم منها!

تفنيد الدعوى الثانية

أما الادعاء بافتقار الأناجيل الأبوكريفية إلى العنصر التاريخي، فهو لازم أيضًا للأناجيل المعتمدة، وبدرجة أكبر، فالباحثون المسيحيون يسلّمون الآن بهذه الحقيقة، ولم يعودوا يجادلون فيها، وقد اعترفوا، رغمًا عنهم، بأن الصيغة التاريخية، والتسلسل الزمني يُفتقدان بوضوح في أكثر أخبار الأناجيل الأربعة المعتمدة.

يقول أحد الباحثين في تأكيد هذه الحقيقة: «لكن الترتيب الزمني لا يمثل دائمًا المرتبة الأولى في الأناجيل، فالأفضلية تُعطي عادة للترتيب حسب المواضيع، فنرى الإنجيليين يجمعون أقوالاً نطق بها يسوع في مناسبات عدة، وربما في فترات زمنية متفاوتة، ويجعلونها في مجموعة واحدة. مثال ذلك: الموعظة على الجبل، والأمثال، والعجائب. فمن الواضح أن عجيبة الشفاء التي تلي الموعظة على الجبل، والتي تفتتح مجموعة من العجائب في الإصحاحين الثامن والتاسع من إنجيل متى، لم تحدث آنذاك. والمشكلة ليست فيما إذا حدثت هذه الأعجوبة، أم لا، ولكن في التأكد من المكان والزمان اللذين حصلت فيهما. لقد استخدم الإنجيليون هذا النوع

من الترتيب، بحسب المواضيع، بغية إيصال أقوال يسوع، وأفعاله، إلى تلك الجماهير التي لم تكن تهتم لسياق الأحداث.

«ولأن هاجس الإنجيليين كان دائمًا إيضاح معنى بعض الأحداث، وربط كل شيء بالظهور الإلهي في المسيح يسوع، وفي شرح معانيه، وليس معرفة زمان ومكان الحدث، فقد عمد الإنجيليون في بعض الأحيان إلى التضحية بالتسلسل الزمني. لقد كتب «أويجانس» أنه لا يجب إدانة بعض الإنجيليين حتى ولو عدّلوا بعض الأشياء: «كانوا يتكلمون عن شيء حصل في مكان ما، وكأنه حصل في مكان آخر، أو عن أمر حدث في زمن ما، كما لو أنه حدث في وقت آخر، أو يدخلون بعض التغييرات في الكلمات التي نطق (المسيح) بها فعلاً. كان قصدهم قول الحقيقة بوجهيها: المادي والروحي. وفي حال استحالة ذلك كانوا يفضلون قول الوجه الروحي. والحق يقال بأن الحقيقة الروحية كانت تُنقل أحيانًا بما يُسمى «الكذب المادّي»...»[١].

وقد سبق لنا في كتاب آخر[٢] أن عرضنا لشهادة أويجانوس المذكورة، ودلالتها البعيدة في تقرير حقيقة هذه الأناجيل. ولكنا نكتفي الآن بعرض تعليلاتهم لافتقاد العنصر التاريخي في أناجيلهم المعتمدة، والذي يرفضون الأناجيل الأبوكريفية لخلوّها منه حسب زعمهم.

يقول بعض المفسرين منهم: «ومن الواضح أن الإنجيليين لم يقصدوا - لا كل منهم بمفرده، ولا جميعهم سويّة - أن يكتبوا خبر حياة المسيح وخدمته، على نوع دقيق، وباعتبار ترتيب زمن الحوادث. بل كان مقصدهم أن يذكروا جوهر تعليمه والحوادث التي هي قاعدة ديانته. فلم يكن عندهم ترتيب الزمن إلا مسألة ثانوية ولذلك لم يكن الآن تعيينُ زمن بعض الحوادث ممكنًا على وجه التحقيق»[٣].

ثم يقول نفس المصدر بشأن إنجيل متى: «.... ولذلك نرى البشير يضمّ الحوادث بعضها إلى بعض باعتبار علاقتها بما أراد أن يذكره من صفات المسيح،

---

(١) ف. كزيتش: المسيح في الأناجيل الأربعة. ترجمة ميشال نجم. ص ٤٧ .

(٢) البدايات الأولى للإسرائيليات: ص ١١٥ - ١١٦ .

(٣) تفسير العهد الجديد في مجلد واحد: مقدمة الأناجيل الأربعة.

وعمله، ولو كان في ذلك خلل من جهة رتبتها التاريخية. فلم يذكر مثلاً انتخاب الرسل، ودعوتهم، في الزمن الذي تما فيه..»[١].

كذلك نرى بابياس Papias أسقف هيرابوليس المتوفى ما بين سنتي ١٣٥، ١٥٥م، يقول بشأن إنجيل مرقس ما يؤكد أن الجانب التاريخي لم يكن يمثل عنصرًا ذا أهمية عند كتبة الإنجيل، أو رواته الأولين: يقول بابياس:

«وأصبح مرقس مترجمًا لبطرس، وسجّل عنه بدقة كل ما كان يذكر، وإن لم يكن بنفس ترتيب الحوادث التي قالها الربّ أو فعلها، إذ لم يكن قد سمع الرب، أو اتبعه، ولكنه تبع بطرس فيما بعد، كما ذكرتُ، وكان هذا قد تعوّد على أن يعلّم حسب مقتضى الحال، دون أن يتحرى الترتيب الزمني لأقوال الرب. ومن ثم لم يخطئ مرقس في تدوين الأحداث كما هي دون ترابط حسب تذكّره لها، لأن اهتمامه كان ألا يترك شيئًا مما كان قد سمع، وألا يدسّ شيئًا بينها»[٢].

هذه هي تعليلاتهم لافتقاد العنصر التاريخي في أناجيلهم المعتمدة.

إنها اعتراف صريح بخلوها من الأسس التاريخية لكل ما ورد فيها من أخبار، وهو ما يسقط حقهم تمامًا في الاعتراض على الأناجيل الأبوكريفية من هذه الناحية.

ومع ذلك نقول: إن من باحثيهم وعلمائهم الذين درسوا الأناجيل المعتمدة والأبوكريفية من يقرر أن العنصر التاريخي واقع ومتوفر في هذه الأناجيل الأبوكريفية، أكثر من تلك المعتمدة. يقول أحد هؤلاء:

«على أن نقطة الخلاف الجديرة بالملاحظة بين الأناجيل المعتمدة والأبوكريفية أن هذه الأخيرة تتميز باهتمامات خاصة أكثر من القانونية فكل منها يسلط الضوء على جانب أو ناحية من تاريخ يسوع: كأسرته، أو طفولته، أو قيامته، أو تعاليمه»[٣].

---

(١) المرجع السابق: مقدمة إنجيل متى.

(١) - Joseph B. Tyson: The New Testament and Early Christianity, p. 170 - 171.

(٢) Ibid: p. 198 - 199

وتتأكد نظرية هذا الباحث من دراسة عن إنجيل يعقوب، وإنجيل توما عن طفولة المسيح، وإنجيل بطرس، وكلها أناجيل أبوكريفية:

ففي إنجيل يعقوب نجد كاتبه يهتم بالجانب التاريخي لولادة مريم، ثم دخولها الهيكل، ثم اقترانها بيوسف النجار. وكذلك بقصة الحمل بيسوع، وولادته في أحد الكهوف.

وفي إنجيل توما عن طفولة المسيح نرى الكاتب يملأ الفجوة التاريخية ليسوع ما بين سن الخامسة والثانية عشرة بذكر بعض الأعاجيب والمدهشات التي كان يصطنعها في لعبه مع لداته من الأطفال.

وفي إنجيل بطرس نرى اهتمام كاتبه منصبًا على مشاهد القيامة حيث يضيف جديدًا ليس موجودًا في الأناجيل المعتمدة.

وكل ذلك يؤكد الهدف التاريخي لكل كاتب من كتبة هذه الأناجيل الثلاثة، وهو ما ينقص بل ويتجاوز اهتمام كتبة الأناجيل المعتمدة.

وهكذا ينتقل الحكم من النقيض إلى النقيض!

وهكذا يصبحون هم وأناجيلهم موضع الاتهام، وبما خطته أيديهم!

لا بد إذن من تناول التراث الأبوكريفيي المسيحي بجدية وحذر، وحرص على التجرد والإنصاف، وهنالك قد يُعاد النظر من جديد في أغلب الأحكام المسبقة التي وُصم بها هذا التراث، وقد تظهر حقائق جديدة تضيء السبيل أمام العقيدة المسيحية، وتصحح كثيرًا من المفاهيم بشأنها، وبشأن المروّجين الأولين لأصولها.

ليس التراث الأبوكريفي المسيحي إذن كمًا مهملاً عديم الجدوى كما يدّعي خصومه، وإنما هو مصدر أصيل، وينبوع من أهم ينابيع العقيدة.

وقد كان آباء الكنيسة في القرنين الأول والثاني بالتحديد ينقلون من هذا التراث على قدم سواء مع الأناجيل المعتمدة الآن إذ لم يكن قد تمّ بعدُ آنذاك تقنين

الكنيسة للأسفار التي تعتمدها، والتي تستبعدها[١]، وإنما كانت كل الكتابات الإنجيلية على اختلافها متداولة بين المسيحيين، وفي الكنائس ذاتها. ومن ثم فتعاليم أولئك الآباء المتقدمين متأثرة على نحو مباشر، أو غير مباشر، بما جاء في بعض هذه الأناجيل التي توصم بأنها أبوكريفية، وهو ما يستوجب التعرف بوضوح على تلك الخلفية التي استلهمها أولئك السابقون الأولون، وظلت تسري بعد ذلك في كيان الكنيسة على امتداد القرون، كإرث مقدس أخذته عن هؤلاء وأرفقته بأسمائهم في هالات مشرقة بالتمجيد والتقديس.

ولا تزال الكنيسة حتى الآن تستلهم هذا التراث تارة بصورة مباشرة، وتارة أخرى، وهي الأكثر بصورة غير مباشرة إذ تصطنع وساطة هؤلاء الآباء في الاستمداد منه، ذرًا للرماد في العيون، وكوسيلة تتعلل بها في إشباع حاجاتها الضرورية.

إن التراث الأبوكريفي المسيحي يمثل في الحقيقة غذاء حيًا للكنيسة، ومنهلاً موردًا من أهم مناهلها، ومصدرًا رئيسًا من أهم مصادر ثقافتها وإلهامها.

وهو ما يعطينا نحن أيضًا الحق في اعتبار هذا التراث، والإفادة منه، فيما نحن بصدده من دراسة عن سر مريم: بين القرآن والإنجيل.

وسنجد في هذه الدراسة أن ما يشهد به الإنجيل الأبوكريفي الذي ننقل عنه تشهد به أيضًا شهادات صحيحة من مصادر أخرى لا يجمع بينها وبينه إلا حقيقة واحدة ألا وهي صحة الواقعة من الوجهة التاريخية.

ثانيًا: شهادة إنجيل يعقوب الأبوكريفي

باتهام مريم، ومحاكمتها، بسبب حملها الغامض!

والإنجيل الأبوكريفي الذي ننقل شهادته الآن هو ما يعرف باسم «إنجيل يعقوب»، أو «سفر يعقوب» The Book of James.

(١) The New Bible Dic. Canon of the o.T., p. 195.

ويُدعى هذا الإنجيل بعدة أسماء:

فيدعى أحيانًا - وهو الأشهر والأشيع - «إنجيل يعقوب»، أو «سفر يعقوب» كما ذكرنا.

ويُدعى أيضًا بسفر «ميلاد مريم» Nativity of Mary

وكذلك يُدعى بكتاب «رؤيا يعقوب» Apoclaypse of James

وهذان الاسمان يردان في سياق هذا الإنجيل، ونصه الأصلي.

كذلك يُدعى الإنجيل باسم: «إنجيل البدايات ليعقوب»:

Protevangelium of James أو Protegospel of James

وأولى هذه التسميات بالقبول هي هذه التسمية الأخيرة بأنه: «إنجيل البدايات» - وربما بدا للبعض أن يترجمه باسم «الإنجيل الأول» وهذا في نظرنا ظاهر الخطأ، لذلك نحن مقتنعون تمامًا بصحة ترجمتنا له بأنه «إنجيل البداية» أو «البدايات» لأن ذلك هو الأصح والأولى، وهو الأنسب أيضًا لمضمونه، لأنه فعلاً يحكي كيف كانت بدايات الأمر بشأن مريم: في الحمل بها، وولادتها، وحملها إلى المعبد، واقترانها بيوسف النجار. ثم بشأن حملها بالمسيح، الذي ينتهي هذا الإنجيل بخبر ولادته في أحد الكهوف، وهذه كما نرى أحداث تسبق بدايات الأناجيل الأخرى المتمدة.

وهذا الإنجيل رغم أن الكنيسة ترفض إقراره، إلا أنه قد ترك بصمة واضحة في تعاليمها وعقائدها، كما سنرى في هذا السياق، حيث أثّر على الإيمان المسيحي بنفس الدرجة التي للأناجيل المعتمدة.

وقد أفاد مؤلف هذا الإنجيل من روايتي الميلاد عند كل من: متى ولوقا، واقتبس من عباراتهما.

ويرى البعض احتمال ظهور هذا الإنجيل وشيوعه في القرن الثاني إذ يرون في كتابات يوستينوس الشهيد المتوفى سنة ١٦٥ ما ينمّ عن معرفته بمضمونه، ومن ثم يمكن تحديد ظهوره ما بين نهاية القرن الأول ومنتصف القرن الثاني، وعلى أقل

تقدير فإن ظهوره لا يمكن أن يتأخر عن نهاية القرن الثاني، إذ كان العلم به شائعًا في القرن الثالث[١].

ويبدأ هذا الإنجيل منذ الحمل بمريم وولادتها، ويستمر في روايته حتى يصل إلى مذبحة الأطفال بهدف قتل الطفل يسوع المسيح.

ففي قصة ولادة مريم يقدم لنا: كُلاً من الرجل» يواقيم Joachem والمرأة «حنة» كزوجين عقيمين، لذلك لم يكن من حق يواقيم أن يقدم قربانًا إلى المعبد في أورشليم، ومن ثم ذهب إلى البرية ليصوم أربعين يومًا وأربعين ليلة ولما ظنت زوجه حنة أنه قد هلك قد نزلت إلى حديقتها تصلي، فظهر لها ملاك الرب، وبشرها بأن ستحمل، فنذرت حنة وليدها للرب. فلما وضعت دعت الوليدة باسم «مريم». وفي الثالثة حُملت مريم إلى المعبد لتربى على أيدي الشيوخ والكهنة»[٢].

«وفي الثانية عشرة اجتمع الكهنة للبحث فيما يعملون بشأن مريم التي آن لها أن تفارق المعبد، واستدعوا اثنى عشر رجلاً من قبيلة يهوذا، أودعوا عِصيّهم بالمعبد وفي اليوم التالي أحضر أبياثار رئيس الكهنة تلك العِصيّ، وأعطى لكل واحد عصاه. وعندما مدّ القديس يوسف يده ليتسلم عصاه، في الحال انطلقت من رأسها حمامة بيضاء كالثلج، في غاية الجمال، وظلت تحوم فترة طائرة بين عُمُد المعبد، إلى أن طارت أخيرًا في اتجاه السموات. عندئذ هنأ الناس جميعًا الرجل الشيخ قائلين: لقد بوركت في شخوختك أيها الأب يوسف، إذ رآك الرب أصلح من يتسلم مريم.

وامتنع القديس يوسف في البداية متعللاً بكبر سنه، لكنه أذعن عندما حذره الكهنة من غضب الرب»[٣].

هذه إذن هي البداية بشأ مريم منذ الحمل بها، إلى أن فارقت المعبد في الثانية عشرة، عندما تسلمها يوسف حسب رواية هذا الإنجيل.

---

(١) انظر كتابنا: البدايات الأولى للإسرائيليات في الإسلام.

(٢). Joseph B. Tyson: The N.T. and Erly Christianity, p. 199

(٣) Fr. Tadrus Y. Malaty : St. Mary in the orthodox concept, p. . 25.

ثم نصل بعد ذلك إلى ما نحن بصدده من بداية الأمر بشأن يسوع، وقصة حمله وولادته، وشهادة هذا الإنجيل بتعرض والدته مريم آنذاك للاتهام والتشنيع من بني قومها بسبب ذلك.

لقد مضى هذا الإنجيل إلى قصة الميلاد. فجاء بخبر حمل مريم بالمسيح إلى أن وضعته أثناء الاكتتاب في مغارة بأحد الكهوف، فيذكر:

«أن مريم لما بلغت الثانية عشرة من عمرها اختير لها رجل أرمل مسنّ، صاحب اولاد، يُدعى «يوسف» ليكون زوجًا لها.

«لكنه قام منها مقام الحارس فقط، صائنًا لحرمتها، وحافظًا لبكوريتها».

«غير ان مريم قد وُجدت حُبلى»!!

«وخاف يوسف أن يكون قد قصر في حراستها، بما أتاح لفاسق أن يفجر بها».

« وحاكمهما الكهنة بتجريعهما الماء المرّ محاكمة بقيت قصتها بعدهما»!

«وفي الاكتتاب الذي تم في عهد أغسطس قيصر ذهبا إلى بيت لحم، بلدة يوسف وهنالك ولد يسوع في أحد الكهوف»![١].

ونلاحظ هنا أن إنجيل يعقوب يصرح بأن يوسف رفع الأمر لوقته إلى الكهنة بمجرد اكتشافه لحمل مريم، حيث حاكموها معًا، ومن ثمة افتضحت مريم أمام الكهنة والشعب.

وإذن فرواية إنجيل يعقوب هذه تضرب بكل عنف رواية متى، وتؤكد وقوع الاتهام لمريم، والتشهير بها منذ حملها بيسوع.

على أن هذه الرواية تختلف أيضًا مع رواية لوقا:

ففي رواية لوقا: ظلت مريم حتى وقت الاكتتاب، وحتى وضعت مولودها على قيد الخطبة، لم يتزوجها يوسف، ولم يحملها إلى بيته، وخاصته، حيث يقول: «فصعد

---

(١) Joseph B. Tyson : The N. T. p. 199

يوسف أيضًا من الجليل .. ليكتتب مع مريم، امرأته، «المخطوبة» وهي حبلى، وبينما هما هنالك تمت أيامها لتلد».

بينما نرى رواية يعقوب هنا تقرر أن «زواج يوسف من مريم هو الذي أدى إلى اكتشافه حملها، وأن ذلك كان قبل الاكتتاب الذي تم بعد ذلك حيث ذهبا معًا إلى بيت لحم بلدة يوسف، وهنالك وُلد يسوع في أحد الكهوف.

ورواية يعقوب مع ذلك لا تحتمل أن يكون اكتشاف يوسف لحملها كان في فترة خطبة، وقبل الزواج، لأن السياق يحول دون ذلك، إذ يقول: «... اختير لها رجل... يُدعى «يوسف» ليكون زوجًا لها، لكنه قام منها مقام الحارس فقط...» بما يعني أنه كان من حقه كزوج أن يُفضي إليها، ويمارس علاقته الشرعية بها، ولم يفعل.

على أية حال فليس من عملنا هنا التأويل والتفسير للتوفيق بين الرويات بعضها وبعض، إذ كانت كل الروايات متهمة في نظرنا بوقوع التحريف فيها إلى حدٍّ صَغُرَ أو كَبُرَ، لكن الذي يعنينا بالمقام الأول أن هذه الرويات رغم اختلافها وتناقضها تفضي في النهاية إلى توكيد حقيقة واحدة صحيحة: هي الإقرار بتعرض مريم أثناء الحمل، أو بعد وضع مولودها للاتهام والتشهير من بني قومها.

وهنا قد يستدعي الأمر أن نتساءل:

ما الدليل على صحة رواية يعقوب بأن يوسف شكا مريم عندما وجدها حبلى، وأن الكهنة حاكموهما، مع أنه لا بد في المحاكمة من ثبوت البراءة، أو ثبوت الإدانة. وفي حالة الإدانة يكون الرجم أو القتل متوقعًا بشأن مريم، فما الذي منع من رجمها أو قتلها، وأدى إلى بقائها حية تُرزق، بما يعني احتمال البراءة والنقاء؟!

ونجيب على ذلك بأن نصوص التوراة في سفر العدد ص ٥ : ١١ - ٣١، وفي سفر الثنية ص ٢٢ : ١٣ - ٢٩ يمكن أن يكون لصالح مريم، وضد يوسف، الذي قد يُرْغَم نتيجة لما جاء بهما على الاقتران بها، والتسليم بعدم إدانتها.

ففي نص سفر العدد يقوم الكاهن بتجريع تلك الزوجة التي شك فيها زوجها من ماء اللعنة المر، فإن كانت بريئة لم يمسسها سوء، وإن كانت مذنبة ورم بطنها،

وسقط فخذها.

وحيث نص كاتب يعقوب على أن المحاكمة قد تمت لهما معًا، وتجرعت مريم من ماء اللعنة المر، فإن هذا يعني أنها لم تثبت إدانتها، ومن ثم لم ترم بطنها، ولم يسقط فخذها، وبرئت أمام يوسف مما اتهمها به.

أما سفر التثنية فهو خاص بالعذراء التي يتهمها رجلها، ففي هذا النص أنه إذا تمكنت العذراء، أو ولي أمرها، من إثبات عذرتها، فإنها تبرأ من اتهام رجلها، ويؤدَّب ذلك الرجل، ويدفع غرامة لوليّها، وتصير زوجة له إلى الأبد.

فهل تم ذلك بشأن مريم؟

لا نظن!

ذلك أنه لو تم لحوكمت مريم بمقتضى هذا النص من سفر التثنية، ولما كان هنالك من مبرر قط للمحاكمة بمقتضى نص سفر العدد الذي ألمح إلى مضمونه كاتب يعقوب. إذ النصان مختلفان تمامًا كما هو ظاهر.

إذن فإن هذا يعني أن مريم لم تحاكم حسب نص سفر التثنية إذ أن يوسف لم يشتك عليها بفقد عذرتها، وإنما اشتكى بخيانتها له كزوجة، وأنها نظرت إلى غيره، وهو ما يتعلق بنص سفر العدد الآنف ذكره. وفي هذه الحالة لن يتعلق الأمر بعذرتها، والتثبت منها، بل تُعامل معاملة المرأة التي افتضت عذرتها، واتصل بها رجلها.

ومن ثم فالأرجح أن يوسف عندما لمس حملها، رغم عدم اتصاله بها، ظن أن عذرتها قد افتضت بالضرورة من علاقة غير مشروعة، فلذلك لم يشتك بافتضاض العذرة، وإنما اشتكى عليها بمجرد الخيانة مستدلاً على دعواه بظاهر حالها، وهو ما يؤكد أن يوسف لم يقرب مريم بالفعل، وأنه كان جاهلاً تمامًا بحقيقة ما هي عليه، وأنها لا تزال عذراء لم يمسسها بشر. وهكذا فقد يوسف هدفه في النيل منها وثبت أنه هو الذي قصر في حق نفسه، بما جعله جاهلاً تمامًا بحقيقة الحال.

وقد جاءت شواهد أخرى تشير إلى أن مريم بعد أون وضعت مولودها كانت لا تزال عذراء:

ففي إنجيل يعقوب الذي نتحدث عنه أن امرأة تُدعى «سالومي Salome قد تحققت من صحة عذراوية مريم بعد ولادتها يسوع»[١].

وفي سفر صعود إشعياء The Ascending of Isaia وهو مكّون من قسمين أحدهما من أصل يهودي والثاني من أصل مسيحي كُتب على الأرجح في تقدير البعض خلال القرن الأول للميلاد - جاء عن مريم[٢]: «أن عذرتها كانت كما هي قبل أن تحمل»!!

كما أن أوريجانوس (١٨٥ - ٢٥٤ م) في تعليقاته على سفر اللاويين يقرر العذراوية الدائمة لمريم.

كما انه أيضًا ينقل تقليدًا بهذا الشأن يثبت عذراويتها بعد ميلاد يسوع، فيقول:

« وقد وصل إلينا تقليد بهذا الصدد: . . . أن مريم بعد أن وضعت المخلّص، ذهبت إلى المعبد، ووقفت في ذلك المكان المخصص للعذارى، إلا أن هؤلاء الذين كانوا يعرفون أنها أنجبت طفلاً، حاولوا إبعادها، لكن زكريا قال لهم: إنها مستحقة لمكان العذارى، لأنها لا تزال عذراء»[٣].

ونتساءل ما الذي يحمل امرأة مثل سالومي أن تقتحم حياة مريم للتأكد من حقيقة حالها في هذا الأمر البالغ الخصوصية والحرج، ثم تخرج لتعلن ذلك على الناس، وتدخل التاريخ بهذا الخبر العجيب؟!

وما الذي يحمل رجلاً مثل زكريا، ذلك الرجل الكبير، ذي الشيبة الصالحة والمركز الديني الوقور، أن يتدخل بشأن مريم، ويدّعي أنها عذراء، مع ما يتحمله من جراء ذلك من مسئولية ضخمة أمام الكهنة، وأمام الشعب؟!

---

(١)، (٢) Fr. Tadrus Y. Malaty: st. Mary p. 20

(٣) Fr. Tadrus Y. Malaty: St. Mary ' p. 22 .

إن هذا يعني أن فضيحة مريم كانت عظيمة، وأن الحادث كان جللاً، وأن الاتهام والتشنيع كانا من الإفراط بغير حدود.

ولا شك أن أحدًا ما كان يجترئ على الإدلاء بهذه الشهادة إلا أن يكون موضع ثقة وتكليف بالتحقق من هذا الأمر.

فالسيدة سالومي هي بالتأكيد قابلة ذات خبرة وتجربة موثوق بها، ولم تقصد لهذا الأمر إلا بتكليف من مسئولين بما استدعاها أن تتحقق وتدلي بشهادتها. متحملة للمسئولية لو ثبت النقيض.

كذلك فإن زكريا لا بد له أن يكون في مركز بالغ الأهمية من رعاية مريم، والمسئولية عنها. ومن ثمة أدلى بتلك الشهادة البالغة الخطر، والمثيرة لأقصى درجات الغرابة والاندهاش من كافة السامعين.

ومن ثم: فاتهام مريم أثناء الحمل، وبعد الولادة، هو السبب الحقيقي وراء هذه الأخبار عن عذراويتها.

ولا نتصور بحال أن لو صحت رواية متى أن أحدًا كان يعرض لهذا الأمر، خاصة بعد ولادة يسوع، ولظل سرًا مكتومًا لا يدري به أحد سواها، وسوى رجلها يوسف.

لذلك كان لا بد أن يحدث حدث يمس مريم، ويضجّ به الناس، حتى يكون هنالك هذا البحث والاستقصاء بشأنها، والحديث عنها.

ونحن لا يعنينا من هذه الأخبار دعوى استمرار عذراوية مريم بعد الولادة، ولكن الذي يعنينا أنها كانت عذراء وهي حبلى بمولودها.

ولعل الذين دوّنوا هذه الأخبار أرادوا بها مجرد التلميح إلى كونها كانت عذراء أثناء الحمل، بما يثبت أنها لم تكن لها علاقة، أو ممارسة جنسية، مع رجل أو زوج، بهدف الرد على شكاية يوسف، ومن طرف خفي يدينونه بأنه لم يكن موفقًا في استجلاء حقيقة الحال.

ويبدو أن اتهام يوسف لزوجه هو الذي استرعى اهتمام خصومها، وخصوم ابنها، من بعدُ، فظل أثر ذلك عالقًا بسيرتها طوال حياتها وحياته، على ما رأينا من

قبل من إشارات إليه في الأناجيل المعتمدة، مما سبق أن بيناه في هذا الكتاب.

ومن ثمة كان المنحازون إليها ضد اتهام يوسف لها هم الذين يشددون في إثبات عذراويتها، ليس فقط أثناء الحمل، بل بعد الحمل أيضًا، رغم الصعوبة في تصور ذلك، متجاهلين أنه يلزمهم فيه أن الطريق الذي يمر منه الجنين سالمًا في الخروج مع بقاء عذرتها حسب دعواهم لا يضيق عن علاقة مع بقاء تلك العذرة أيضًا (!!) خاصة وقد بالغوا في ذلك مبالغة ممجوجة، فرددوا ذلك الزعم الغوغائي الذي جاء بسفر أنشودة سليمان The Odes of Solomon «أنها تمخضت، ووضعت مولودًا، دون استشعار لأي ألم»!![1] فالذي لا تشعر معه بالألم الشديد، يبرر ألا تشعر بذلك مع ما هو دونه في الألم والمشقة!!

وخير لهم إذن أن يقنعوا بأنها كانت عذراء فقط أثناء الحمل به، فالعذراوية لا مبرر لها بعد الميلاد!!

ولا يبعد أن تكون هذه الدعوى متأثرة بآراء الغنوسيين، وسائر القائلين بالثنائية الكونية، من الذين أنكروا الطبيعة البشرية للمسيح، وزعموا أنه كان مجرد صورة أو طيف لا يُمسَك ولا يُلمَس، ويُعرف مذهبم باسم الظاهرية أو الطيفية أو الخيالية Docetism كما بيناه في كتاب سابق[2].

وبعد . . .

فهذه شهادة إنجيل يعقوب الأبوكريفي عن تعرض مريم للاتهام والتشهير من بني قومها سواء أثناء الحمل، أو بعد الولادة، مع العلم بأن كاتب هذا الإنجيل يعترف بإنجيلي متى ولوقا وينقل عنهما، ولا يقصد إلى الحط من شأنهما، أو إهدار قيمة أي منهما.

لقد تأثر المسيحيون عامة، وعلى رأسهم الكنيسة، بهذا الإنجيل: فمنه عرفوا لأول مرة اسمي والدي مريم: يواقيم وحنة.

---

(١) St. Mary: p. 20

(٢) انظر كتابنا : البدايات الأولى للإسرائيليات، وانظر أيضًا محاورة الخليفة المهدي مع الجاثليق النسطوري طيموتاوس الأول الفقرات ١٢ - ٢٠ حيث يتشبث الجاثليق بدوام بتولية مريم بعد الولادة في مغالطة واضحة

ومنه أخذوا القول بالعذراوية الدائمة لها، وتبنته الكنيسة منذ القرن الخامس.

ومنه عرفوا أن إخوة يسوع المذكورين في الأناجيل إنما كانوا أبناء يوسف من زوجة سابقة على مريم.

ومنه أخذت الكنيسة عقيدة الحمل بمريم بغير دنس Immaculate of Mary التي أعلنتها منذ ١٨٥٤م.

وإذن: فشهادة إنجيل يعقوب هي شهادة من مصدر تضعه الكنيسة في قمة اعتبارها، مهما أنكرت أصله، أو ادّعت عدم قانونيته.

* * *

الدليل الخامس

شهادة التلمود

يعتبر التلمود مصدرًا رئيسيًا عند المسيحيين، ولعله أهم مصادرهم على الإطلاق، بعد الأناجيل، في تقديم البينة التاريخية على وجود المسيح، ووقائع القبض والصلب، وما كان هنالك من محاكمة وإشهار.

ومن ثم فالإشارة في التلمود إلى المسيح، أو والدته، تحمل مغزى خطيرًا بالغ الأهمية، سواء من جهة الرِّبيِّ الذي كتبها، ووعيه بقيمتها، أو من جهة القارئ الذي ينبغي أن يتسم بمثل ذلك في النظر والاهتمام.

ونحن نجتزي بفقرتين وردتا في التلمود بشأن اتهام اليهود لمريم، ننقلهما عن بعض المؤلفين الغربيين الذين ذكروا إحداهما أو كليهما في سياق الإثبات التاريخي لوجود يسوع، وكلتاهما إقرار صريح من علماء اليهود، ورؤساء دينهم، باتهام مريم بارتكاب الفاحشة.

وكما ذكرنا من قبل: نحن لا نبحث بشأن مضمون الاتهام، لكننا نبحث في إثبات وقوع الاتهام، بصرف النظر عن كونه صحيحًا أو باطلاً، للبرهنة على صحة ما ذكره القرآن في ذلك، وللرد على المسيحيين حيث أنكروا اتهامها من جانب اليهود، وادعوا أن ذلك إن كان، فلعله كان بعد القرن الأول، لا في حياتها وحياة المسيح.

الشهادة الأولى من التلمود

وها نحن نورد نص الشهادة الأولى من التلمود بصريح الاتهام ليسوع بأنه مولود من زانية:

«كتب الربي شمعون بن عزاي R. Shimeon ben' Azzai «عن يسوع:

«لقد وجدت سجل مواليد بأورشليم مدونًا به: «إن هذا الشخص نَغْل مولود من

زانية،[1] Such - an - One is a bastard of an adultress

ونتساءل: كيف يجوز لهؤلاء الرَّبِّيين، أو غيرهم من اليهود، أن يوجّهوا مثل هذا الاتهام إلى يسوع ووالدته، وهم يعلمون حسب شهادة كل من إنجيلي متى ولوقا أنه كان حتى الثلاثين من عمره يُذكر على أنه ابن يوسف النجار؟

إن الجواب على ذلك لا يكفي فيه أن يقال إنهم يختلقون ذلك لأنهم خصومه، بل لا بد من تحقيق الأمر لنتبين المبرر الذي يجعلهم يتعلقون خاصة بهذا الجانب من حياته.

لقد سبق لنا أن رأينا إنجيل يوحنا يقدم شهادتين في نفس القضية، وبنفس المنطق، ونفس الألفاظ، على ألسنة معاصريه في حجاجهم معه، فهم إذن لا يقولون ذلك في خُفية عنه، ولا من بعد رحيله كما يزعم الأتباع، وإنما في وجهه مباشرة حسب شهادة الإنجيل نفسه، وشهادته مقدمة على شهادتهم بالبداهة.

إن مغزى ذلك أن مولد يسوع لم يتم بصورة معتادة أو مشروعة، وأنه كان هنالك لغط غير قليل بشأن نسبه، إلى الحد الذي جعل الأمر يؤخذ مأخذ الجد من هؤلاء المعاصرين.

وهذا يعني بعبارة أخرى أنه لا أصل إطلاقًا لرواية متى، وأن يوسف لم يكن قط بجانب مريم، أو ملتزمًا نحوها بتبني ولدها، سواء أثناء الحمل أو وقت الولادة، لأنه لو كان ذلك صحيحًا لما تعرضت بحال لشيء من هذه الاتهامات.

مريم إذن واجهت الموقف وحدها، ولم تدر السبيل إلى مخرج مشروع بعد أن تخلّى عنها خطيبها، وأعوزتها الحيلة إلى النجاة من حكم المجتمع!

وعلى ذلك لا بد أن تكون قد انكشفت وتعرضت لاستجواب قانوني عن مولودها انتهى إلى تسجيله بهذه الصورة المخزية التي شهد بها التلمود!

ونحن نرجح أن يكون ذلك قد تم بعد العودة من الاكتتاب، وأن يكون يوسف عند العودة قد ضعف عن مواجهة الموقف، فانصرف إلى شأنه متخليًا عنها، وهنالك

---

(١) Norman Geisler: Christian Apologetics, p. 325

كانت الورطة!!

وفي هذه الفترة التقطها القرآن!

على أنه لا مانع من أن يكون يوسف قد عاد بعد ذلك بوقت طويل أو قصير، ولسبب أو لآخر، واقترن بها، وتبنى ولدها، لكن بعد فوات الأوان!!

والنص التلمودي يتداخل ويتناغم تمامًا مع النصين في القرآن وإنجيل لوقا على نحو عجيب ينفي عنه شبهة الاصطناع!

الشهادة الثانية من التلمود

أما الشهادة الثانية من التلمود فقد جاءت هكذا:

«قال الربي اليعازر Rabbi Eliezer».

«لقد تنبأ «بلعام وراى : انه سيقوم رجل «مولود من امراة» ويحاول أن يزعم نفسه إلهًا، ويجرُّ العالم كله إلى الضلال . . . وسيحتال ، ويدّعي أنه يرحل، ثم يعود، في النهاية»[١].

وكل ما يعنينا من هذه الشهادة قوله:

«رجل مولود من امراة»!!

هذه العبارة مغزاها واضح:

فكل رجل يولد من رجل وامرأة معًا، وهذه حقيقة لا تحتاج إلى تنويه.

وكون القائل يقول عن يسوع: إنه «رجل مولود من امرأة» ثم لا يزيد ، يؤكد أنه:

غير معروف الأب.

أو: أنه لا أب له.

واعتقاد اليهود أن يسوع لا أب له، من حيث وُلد ولادًا عجيبًا، أمر غير حاصل

(١) J. N. D. Anderson: Chrstianity: The Witness of History, p. 21

ولا يمكن انتظاره منهم.

فلم يبق إذن: إلا اعتقادهم بأن له أبًا، لكنه غير معروف.

وتطبيق الربي إليعازر لهذه النبوءة على يسوع تعني أن اليهود في شخص الربي المذكور لم يقروا قط بأبوة يوسف النجار ليسوع، وإلا لما طبقوا عليه هذه النبوءة، وللزمهم نقضها من أساسها، وإسقاط غايتهم في الاستشهاد بها.

وهذا لا يعني بالضرورة تعسفهم بشأنه، ولكن قد يعني من باب آخر قيام شكوك قوية عندهم تمنع إقرار ذلك. كأن تكون هنالك لديهم أخبار عن مريم في حال حملها به، وولادتها له، أثارت شكهم، وبررت في نظرهم ذلك الادعاء.

وإذن فهم بهذه النبوءة يتهمون مريم لأسباب يعلمونها، أو بدرت إلى ظنونهم، بأنها ولدت ابنها من «أب» غير معروف، بطريق غير مشروع.

ويترتب على ذلك في نظرهم توجيه اتهامين إليها:

الأول: أنها ولدت ابنًا بطريق غير مشروع.

الثاني: أنها ألصقت الابن بأب غير أبيه الحقيقي، هو يوسف النجار.

وهذا يطابق تمامًا شهادة يوحنا الإنجيلي في الحوار التالي بين يسوع ومعاصريه:

قال يسوع: أنتم تعملون أعمال أبيكم (يعني إبليس).

«فقالوا له: إننا لم نولد من - زنا».

«لنا أب «واحد» - وهو الله»[1].

والتعريض واضح تمامًا في قولهم: «لم نولد من زنا» وفي قولهم: «لنا أب واحد» !!

وهو ما يكشف عن خبيئتهم بأنه ينسب إلى رجل (هو يوسف) وهو من صلب آخر!!

---

(١) ص ٨ : ٤١ - ٤٢ .

لكن . . من عساه أن يكون ذلك الأخر؟!

لقد ذاعت عند اليهود قصة بهذا الشأن الْتَقَى على ذكرها التراثان الإسلامي والمسيحي معًا: وهي أن مريم كانت على علاقة بجندي روماني يُدعى «بانتيرا» «Panthera» وينطقه الإسلاميون «بانديرا» أو «فنديرا»، وإليه يُنسب يسوع.

ولهذه القصة أصول في التلمود تتسم بالإبهام والغموض يكتم اليهود عن النصارى دلالاتها الحقيقية، لذلك آثرنا صورتها التاريخية عند الباحثين تجنبًا لمناقشات ليس هذا موضعها.

وقد عرض لهذه القصة أوريجانوس Origen المؤلف المسيحي العظيم المولود سنة ١٨٥ والمتوفى سنة ٢٥٤ م وأورد فقرات منها، وذلك في رده المشهور على «كلسوس Celsus» الفيلسوف اليوناني الوثني الذي وضع حوالي سنة ١٨٠ م كتابًا في تفنيد عقائد اليهود والمسيحيين أسماه «العلم الحقيقي»، أو «البحث الحقيقي»: Alethes Logos واستشهد فيه بتلك القصة اليهودية في طعن نسب المسيح.

وقد جاءت بعض فقراتها هكذا في ردّ أويجانوس عليه:

أن مريم «عندما حبلت بها طردها النجار الذي كانت «مخطوبة » له، لأنها اتهمت بالزنا. وأنها ولدت طفلاً لعسكري روماني يدعى «بانتيرا» «Panthera».

وأن يسوع «قد وُلد في قرية يهودية معروفة، من امرأة فقيرة في تلك البلاد كانت تحصل على معيشتها من الغزل. وطردها زوجها النجار لاتهامها بالزنا.

وبعد أن طردها زوجها، وهامت على وجهها وقتًا ما، ولدت يسوع في خزي وعار. وهو طفل غير شرعي. وإذْ استؤجر في مصر كخادم بسبب فقره، وإذْ حصل على قوة لأجراء المعجزات، تلك القوة التي يفتخر بها المصريون؛ عاد إلى وطنه منتفخًا جدًا بسببها، وبواسطتها أعلن أنه إله».

وتضيف القصة: «أنه اخترع موضوع ميلاده من عذراء»[١].

هذه الفقرات اقتبسها أوريجانوس من كتاب كلسوس في سياق تفنيده لحججه ضد المسيحيين.

على أن أوريجانوس لم ينكر قط أصل القصة، ولكنه زعم أن: «تمسكهم (يعني اليهود) بأن العذراء لم تحبل بيسوع من يوسف، جعل الأكذوبة واضحة جدًا لدى الذين يقدرون أن يدركوا ويتبيّنوا مثل هذه الاختراعات.

وهل يتفق مع العقل والمنطق أن ذاك الذي تجاسر على أن يفعل كل هذا من أجل الجنس البشري.. هل يُعقل أن ذلك لا يولد ولادة معجزية، بل يولد ولادة أقذر وأشنع من كل الولادات»؟![٢].

إن أهم ما في رد أوريجانوس شهادته بأن اليهود كانوا مصرّين على رفض الادعاء بأبوّة يوسف ليسوع، ذلك الادعاء الذي اصطنعته مريم ويوسف للخلاص من مأزق ولاده العذراوي، وهو ما يلتقي تمامًا مع نص يوحنا الذي ذكرناه.

إن أوريجانوس لا ينفي أصالة القصة عند اليهود . وإن راح يفندها لصالح عقيدته.

أما النص الإنجيلي الآخر الذي يداخل النبوءة اليهودية عن «رجل مولود من امرأة» فقد جاء هكذا عند يوحنا:

قال يسوع: «أنا الشاهد لنفسي، ويشهد لي الآب الذي أرسلني !

«فقالوا له: أين هو أبوك؟»[٣].

هنا إذن إصرار معاصريه على أن يوسف ليس أباه، وأن اسم أبيه الحقيقي غير مُعلَن وغير مذكور، وأنه لا يستطيع أن يتحدث بشأنه، لعدم علمه به، أو لخزيه

(١) أوريجانوس : الرد على كلسوس : ك ١ : ف ٢٨ ، ٣٢ . تعريب القمص مرقس داود .

(٢) نفس المصدر : ك ١ : ف ٣٢ ص ٥٨ .

(٣) يوحنا : ص ٨ : ١٨ - ١٩ .

بسببه، فمن ثمة قذفوه به، كما رأينا في قصة كلسوس، كل ذلك رغم علمهم بنسبته إلى يوسف النجار حسب شهادة الأناجيل.

إن شهادة التلمود تتداخل بوضوح، وتتناغم تماماً، وعلى نحو عجيب، مع شواهد الإنجيل، ونكتفي بهذا القدر، ففيه كفاية، وفيه بلاغ!.

* * *

الدليل السادس

الشهادة من وثيقة

«كـهـنـوت الـمـسـيـح»

عند ساويرس بن المقفع

ونتقدم الآن إلى شهادة أخرى ذات أهمية قصوى نستمدها من التراث القبطي.

إنها فصل من كتاب تاريخ البطاركة للأنبا ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين من علماء المسيحيين في القرن العاشر. وقد صدّر كتابه بهذا الفصل تحت عنوان «كهنوت المسيح» ويتضمّن معلومات جديدة ونادرة، تختلف إلى حدّ كبير عن المعروف حتى الآن عن رواية الميلاد في الأناجيل المعتمدة، خاصة إنجيل متى.

أما ساويرس بن المقفع الذي نقل إلينا هذه الوثيقة الهامة عن كهنوت المسيح فقد كان في بدء أمره كاتبًا للإخشيديين، وكان يُكنى بأبي بشر، ثم ترهبن بعد ذلك، وارتقى في السلك الإكليريكي، حتى صار أسقفًا على إيبارشية مدينة الأشمونين التي بأسيوط من صعيد مصر.

وقد عاش ساويرس في القرن العاشر، ولا يُعرَف تاريخ مولده أو وفاته، وإن كان يُقال - حسب بعض الشواهد من كتابه المذكور - إنه عاش عمرًا مديدًا جاوز الثمانين.

وكان يتسم بالغزارة في التحصيل، والقوة في الجدل.

وكانت له مؤلفات كثيرة في الدفاع عن المذهب القبطي ضد النساطرة والملكانيين: وضد المسلمين واليهود.

وقد ترجم له ميخائيل مطران تنّيس في الجزء الثاني من المجلد الثاني لتاريخ

بطاركة الكنيسة المصرية[1] حيث ذكر أنه «صنف عشرين مقالة، سوى ميامر وتفاسير، وأجوبة ومسائل»[2] أتى على ذكرها في ترجمته، وقد بلغ بها أبو البركات بن كبر، صاحب «مصباح الظلمة في إيضاح الخدمة» ستة وعشرين تأليفًا ذكرها في ترجمته[3].

وقد ذكر له مترجمه ميخائيل محاورة مع يهودي صديق للوزير يعقوب بن كِلّس جرت في حضرة الخليفة الفاطمي المعز لدين الله، ألزمه فيها.

وأهم كتب ساويرس كتاب تاريخ البطاركة، وهو أشهرها على الإطلاق، ويسمى أحيانًا: سير البيعة، أو تاريخ بطاركة الإسكندرية. ويعتبره الأقباط «المصدر الأساسي لتاريخ الكنيسة القبطية في القرون الوسطى»[4]. وكذلك هو مصدر أساسي «لكنيسة الحبشة أيضًا، وتاريخ الكنيسة في النوبة»[5].

وقد تُرجم هذا الكتاب إلى اللاتينية والإنجليزية، كما اهتم المستشرقون بنشر أصله العربي نشرات عديدة، بعضها يشمل النص كله، والبعض يقتصر على جزء من نص الكتاب.

ويثني مترجمه ميخائيل كاتب سيرته عليه ثناء حارًا يكشف عن ثقة الأقباط بعلمه وعقيدته، فيقول: «. . . وكان من جملة الأساقفة حاضرًا أسقف «قِدّيس» فاضل، على كرسي الأشمونين، يسمى «سويرس، ويعرف بابن المقفع. وكان كاتبًا، ثم صار أسقفًا وأعطاه الرب نعمة وقوة في اللسان العربي، إلى

---

(١) انظر المصدر المذكور ص ٩٢ - ٩٣ مع ص ١٠٩ - ١١٠ .

(٢) نفس المصدر ص ١٠٩ - ١١٠ .

(٣) مصباح الظلمة: جـ ١ ص ٣٠٦ . وانظر لويس شيخو : وزراء النصرانية وكُتّابها في الإسلام، البند ٢٦٢ تحقيق الأب كميل حشيمه اليسوعي.

(٤) الأب قنواتي: المسيحية والحضارة العربية ص ١٩٩ .

(٥) نفس المصدر : ص ٢٠٠ .

أن كتب كتبًا كثيرة، وميامر ومجادلات ومن قرأ كتبه، عرف فضله، و«صحة علمه» ودفعات كثيرة جادل قضاة من شيوخ المسلمين بأمر الملك المعزّ، فغلبهم بقوة الله ونعمته . . »[١].

وتتسم مقالات ساويرس بالمرارة والمعاناة، والحقد على المسلمين، والتنفير من دينهم، تارة يصرح، وفي أغلب الأحيان يلجأ إلى التورية والتلميح. والطابع الأغلب على كتاباته هو النزعة الدفاعية عن عقيدته، ومذهب جماعته. وقد يدل ذلك أيضًا على روح العصر الذي عاش فيه، من حيث التسامح الديني من ناحية ومن حيث قلق الأقباط من ناحية أخرى من انتشار وغلبة اللغة العربية والروح الإسلامي. آنذاك.

وهو صحيح العقيدة تمامًا عند بني مذهبه، لم يشكّوا فيه قط.

ومن ثم: فهذه «الوثيقة» التي نقلها في كتابه عن «كهنوت المسيح» وصدّره بها، لا يكمُن وراءها كيد، ولا تنبع من سوء اعتقاد بشأن الإنجيل، أو العقيدة المسيحية التي ينتمي إليها.

أما إذا قيل: لماذا نقلها، وهي تنطوي على مناقضات شديدة مع إنجيل متى، ومع الشائع والغالب على النصارى؟

فإننا نقول: هذا سؤال للتاريخ، ويلزمهم جوابه!!

لماذا هي «وثيقة»؟

رأينا أن نطلق لفظ «الوثيقة» على هذا الفصل من كتاب تاريخ البطاركة لأهميته، وتفرّده بمعلومات لم تصلنا في مصادر أخرى. بالإضافة إلى كون هذا المحتوى قد مر بمراحل الرواية الشفاهية، ثم البحث والتحقيق من علماء الكنيسة على ما هو مذكور فيه، ثم الإقرار والتدوين، ثم العثور على المخطوط المدوّن باللغة القبطية بدير السيدة (مريم) بنهيا في القرن العاشر زمن ساويرس، الذي ترجمه

(١) ص ٩٢ - ٩٣ جـ ٢ من المجلد الثاني - تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية.

بدوره عن طريق مساعديه إلى العربية، ووصلنا خلال كتابه عن تاريخ البطاركة.

ويتمثل خطر هذه الوثيقة في كونها تقدم معلومات جديدة عن رواية الميلاد، تختلف، وتتميز تمامًا، عما ورد في رواية متى، وعن بعض ظواهر النص في رواية لوقا. كما أنها تُلقي ضوءًا قويًا على بعض ما ورد في إنجيل يوحنا[١]، وعلى الشواهد التي أتينا بها من الأناجيل الأربعة المعتمدة في دراستنا للجانب النفسي ليسوع خلال هذا الكتاب، وتؤكد صحة ما قررناه في هذا الشأن. بالإضافة إلى كونها تكشف عن حقائق جديدة بشأن مريم لم تذكرها تلك الأناجيل. وكذلك بشأن يسوع من حيث توكيدها على أنه من رجال الكهنوت اليهود، وهو أمر تجاهلته الأناجيل تمامًا، ولم تصرح به، رغم وجود تلميحات إلى ذلك فيها من حيث مخاطبة الجمهور له باسم «المعلم» في مواضع كثيرة من نسخ الإنجيل الأربع، والأكثر دلالة على ذلك استخدام اللفظ «ربي» واللفظ «ربوني» في مخاطبته، وهي ألقاب تقتصر على علماء الدين اليهود وحدهم:

يقول يوحنا في إنجيله: «فالتفت يسوع، ونظرهما يتبعان، فقال لهما: ماذا تطلبان؟».

«فقالا: «ربّي» - الذي تفسيره يا معلم - أين تمكث؟»[٢].

ويقول أيضًا: قال لها يسوع: يا مريم! فالتفتت تلك وقالت: «ربّوني» ! الذي تفسيره يا معلم»[٣].

كما أنه قد لا يخلو من مغزى أن هذه الوثيقة قد دُوّنت في فترة حكم يوليانوس الكافر، أي ما بين سنتي ٣٦١ ، ٣٦٣م في ذلك القرن الذي شهد التشكيل النهائي لملامح العقيدة المسيحية، وفي فترة ما بين المجمعين

---

(١) انظر إنجيل يوحنا : ص ٨ : ١٨ - ١٩ ، ٤١ - ٤٢ .

(٢) يوحنا : ص ١ : ٣٨ .

(٣) يوحنا : ص ٢٠ : ١٦ .

الكبيرين اللذين تم فيهما تقرير ذلك. وهما مجمع نيقية سنة ٣٢٥م، ومجمع القسطنطينية سنة ٣٨١م.

تلخيص الوثيقة

تذكر الوثيقة أن صائغًا نصرانيًا كان يُدعى «فيلبس النصراني» ارتبط برباط صداقة مع كاهن يهودي يُدعى «تاوضوسيوس» من بلاد الشام. وكان هذا النصراني قد طمع بسبب تلك الصداقة أن يجذب صاحبه إلى النصرانية. وفاتحه في ذلك. وقدر له اليهودي مشاعره نحوه، وكاشفه بسر عن المسيح يعرفه علماء اليهود حسب روايته، وإن جاهروا بالإنكار، وهو أن يسوع الناصري هو المسيح الحقيقي الذي سبقت به بشائر الأنبياء. وحكى له أن اليهود عندما أرادوا اختيار يسوع للكهنوت اصطدموا بمشكلة نسبه، إذ لم يعرفوا له أبًا ينسبونه إليه، وكانت هنالك أقاويل تقذف ميلاده، وتتهم أمه عندما سُلّمت ليوسف النجار، بجانب أنهم كانوا غير موقنين بأن يوسف أبوه. وقد بالغوا في الشك حتى لقد سألوها إن كانت هي أمه الحقيقية، أم هي مجرد امرأة وجدته، واحتضنته، وهو من نسل أخرى، وعليها أن تذكر أباه الذي ولدته منه، أو ولدته منه المرأة الأخرى. ولم تكن لها من حجة على قولها بأنه ابنها، وأنه ليس من سفاح، إلا الاحتجاج بكون عذرتها سليمة. وبعد أن تم التحقق من ذلك أقروا قولها حسب شهادته، واختاروا يسوع للكهنوت.

بين الوثيقة والأناجيل

نحن نرى من مضمون هذه الوثيقة ما يناقض تمامًا رواية متى عن قصة الميلاد حيث تدّعي أن يوسف عندما اكتشف حمل مريم لم يشهرها، ونفّذ كل ما أمره به الملاك، فأخذها زوجة، وتبنى ولدها، وكتم سرها، إذ نرى هنا التصريح عن يسوع بأن الشعب «كانوا يقذفون ميلاده»، وأن مريم عندما سُلّمت ليوسف كانت متهمة: «نريد أن نعلم كيف كان ميلاده؟ لا يكون من «زنا» ، لأن أمه لما سلمت ليوسف تكلموا عليها . .»

كما يتضح من هذه الوثيقة أن اليهود كانوا حائرين بشأن علاقة يسوع بمريم إن كان مولودًا منها حقيقة، أم له أم غيرها، وفي الحالين لا يعرفون أباه: «ولأجل كلمة واحدة نحن شاكّون إلى الآن، ونريد أن نعرف منك: من «أين» هو؟ أو «ممن» حبلت وولدته؟».

وكانوا لا يقرون بأبوة يوسف له: «وقالوا لها: يا مريم: الحقيقة نريد أن نسمع منك: ابن مَن هو؟ فقد مات أبوه يوسف وقلبنا يشكّ فيه إن كان هو أباه . . . . .».

كما تؤكد هذه الوثيقة أن مريم كانت متهمة برجل آخر غير يوسف:

«. . . فأما قولكم إن رجلاً سرقني، فإن خاتم عذرتي يشهد لي بصحة قولي لكم . . .»

كما تقر مريم حسب شهادة هذه الوثيقة بأن يوسف كان يشك فيها، ولم يصدقها:

«. . . ويوسف الذي قلتم مات كان قد شكّ في حبلي به مثلكم، وسألني قائلاً: ما الذي حلّ بك؟ فحلفت له أن لم يمسني رجل قط، فلم يصدّقني . . .».

وبينما تتعارض هذه الوثيقة تمامًا مع رواية متى، على ما ذكرنا، إذا بها تتفق مع أكثر استنباطاتنا من رواية لوقا.

كما أنها تلتقي التقاء عجيبًا مع ما جاء في شهادتي إنجيل يوحنا السابق ذكرهما من قبل، فتكاد تستخدم نفس الألفاظ بحروفها:

إنهم في يوحنا يسألونه : أين هو أبوك؟»[1].

وهنا نرى نفس السؤال: «من أين هو؟» أو «ممن حبلت وولدته» «... ابن مَن هو؟...» مَن هو أبو يسوع الذي ولدْته منه؟ . . . .».

(١) يوحنا : ص ٨ : ١٩ .

وفي يوحنا يقولون له: «لم نولد من «زنا» [١] . . . » معرّضين به.

وهنا يقولون: « . . نريد أن نعلم كيف كان ميلاده: لا يكون من «زنا» لأن أمه لما سُلّمت ليوسف تكلموا عنها . . »!!

وهكذا يتضح خطر هذه الوثيقة بالنسبة إلى الأناجيل حيث تدعم جانبًا وتنقض جانبًا آخر.

ولا نعلم أن أحدًا قط قد اهتم قبلنا بدراسة هذه الوثيقة، أو حاول التقصي على النتائج البعيدة المدى التي تترتب على ما جاء فيها.

إن هذه الوثيقة تستمد مضمونها من مصادر ذات أهمية قصوى. ونحن لا نستبعد أن يكون كاتب يوحنا قد عرف تلك المصادر وأفاد منها، وكذلك لا يبعد أن تكون نفس المصادر كامنة وراء رواية لوقا.

وعلى ذلك فهذه الوثيقة الخطيرة تستأصل تمامًا كل شك في دعوانا باتهام اليهود لمريم بشأن المسيح في حمله وولادته، وتقطع بأن ذلك الاتهام بلغ أقصى مداه، وظل ممتدًا منذ ولادة يسوع حتى سنوات بشارته، والتقى على ذلك الشعب والكنهوت معًا.

وقد رأينا بوضوح أن هذه الوثيقة تتلاءم جيدًا مع لوقا ويوحنا، ولكنها في المقابل تتناقض تناقضًا شنيعًا، وبغير مدى، مع رواية متى.

ومشكلة رواية متى أنها لا يمكن تأويلها، أو التصرف في مضمونها، لتلتقي بكل من لوقا ويوحنا، ولا يمكن بحال خلق أي توافق مشروع بينها وبين مضمون هذه الوثيقة.

وعلى ذلك :

فإن متى يقف وحده في جانب.

ولوقا ويوحنا وهذه الوثيقة، وسائر المصادر التي ذكرناها من قبل، ونذكرها من

(١) يوحنا: ص ٨ : ٤١ .

بعدُ تقف في جانب آخر، مناقض تمامًا لجانب متى.

وعلى المسيحيين إذن أن يحلّوا هذه المعضلة، ويكشفوا هذا التعارض الشنيع، بين رواية متى وغيره من سائر أناجيلهم ومصادرهم التي ذكرناها ونذكرها بعدُ.

* * *

إطلالة تاريخية علي زمن تدوين وثيقة كهنوت المسيح

يرجع تاريخ تدوين وثيقة كهنوت المسيح إلى النصف الثاني من القرن الرابع حسب ما هو مذكور فيها من أن وقائعها حدثت في عهد «يوليانوس الكافر» Julian the Apostate المولود سنة ٣٣٢ - والمتوفى سنة ٣٦٣ م) وهو ابن أخت الملك قسطنطين المتوفى سنة ٣٣٧ م صاحب مجمع نيقية. وقد نُصّب يوليانوس امبراطورًا بعد وفاة قسطنطينوس الثاني سنة ٣٦١م. وكان يوليانوس مبغضًا للمسيحية، ووضع في ذلك تأليفًا بعنوان: ضدّ المسيحيّين Adversus Christianos يمكن التعرف على مضمونه من ردود كيرلس بطريرك الأسكندرية عليه[١].

والواقع أن القرن الرابع الذي وقعت فيه أحداث الوثيقة يعتبر أهم وأخطر القرون على الإطلاق في تاريخ المسيحية.

فهو القرن الذي بلغت فيه المسيحية أمانها التام منذ أصدر الامبراطور قسطنطين منشور ميلان سنة ٣١٣ بالتسامح الديني.

وهو أيضًا القرن الذي تشكلت فيه القسمات الكاملة للمسيحية الحالية، وذلك منذ أن أعلن قسطنطين اعتناقه لهذه الديانة، ورغبته في انتشارها في الامبراطورية الرومانية، لتكون دعامة للوحدة السياسية، مجتهدًا في أن ينزع عنصر التنافر بين المسيحية والديانات الوثنية، لتيسير انتقال الوثنيين إلى الديانة الجديدة وقد توسل إلى تحقيق غايته بالدعوة إلى مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م لترجيح مذهب مسيحي معين يوافق تلك الغاية، تحت دعوى فض النزاع الذي أثاره آريوس وأتباعه في الكنيسة.

وبالفعل تحقق للإمبراطور ما أراد، حيث تمكّن من ترجيح كفة الفئة القائلة بتأليه المسيح على الفئات المخالفة، وعَهِد إلى هؤلاء المؤلهين بوضع

---

(١) The Concise Oxford Dic. of the christian church, Art. Julian the Apostate.

أسس العقيدة الجديدة.

وكان من نتائج هذه المرحلة أنه أمر بنشرة جديدة للأناجيل كلّف بها أوسابيوس القيصري - أسقف قيصرية - وهو المؤرخ المشهور صاحب تاريخ الكنيسة والمتوفى حوالي سنة ٣٤٠ م(١).

ثم تعاقبت الأحداث التاريخية بعد ذلك خلال القرن الرابع حتى كان مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ م الذي عُقد للبتّ في طبيعة «الروح القدس» وعمله. وبعد أن ذاعت وانتشرت آراء الآريوسيين، والمتأثرين بهم، من القائلين بالتوحيد المجرد، وكون الروح القدس ليس أكثر من مخلوق من المخلوقات،وكان من أشهر من تزعموا القول بذلك «ماكيدونيوس» Macedonius أسقف القسطنطينية.

وانعقد المجمع المذكور،وقال بتأليه الروح القدس، كما سبق لمجمع نيقية أن قال بتأليه المسيح.

وهكذا تحدّدت ملامح اللاهوت المسيحي.

لقد أصبح للألوهية ثلاثة وجوه: لاهوت الآب، لاهوت الابن، لاهوت الروح القدس.

ولم تكن هذه الصيغة من قبل في أصول الأناجيل حتى ذلك الحين. ولو كانت فيها لما اختلفوا، ولا عقدوا مجامعهم للبتّ بشأنها.

ولكنهم بعد مجمع القسطنطينية دوّنوها في ختام الإنجيل الأول: إنجيل متى، وذكروها على لسان المسيح ذاته، فزعموا أنه بعد قيامته قال للتلاميذ الأحد عشر المدعّوين رسلاً:

«اذهبوا، وتلمِذوا جميع الأمم، وعَمدوهم باسم: الآب، والابن، والروح القدس»(٢).

ونحن من جانبنا نسقط الدعوى بأصالة هذا النص في الأناجيل المعتمدة

---

(١) أوسابيوس: حياة قسطنطين: ك ٤ : ف ٣٤ - ٣٦ - ٣٧ . ترجمة مرقس داود.

(٢) متى . ص ٢٨ : ١٩

وخاصة إنجيل متى، ونؤكد أنه مُقحَم على هذا الإنجيل بعد مجمع القسطنطينية السابق ذكره، معتمدين في دفع الدعوى على الأدلة الآتية:

الدليل الأول: أن معمودية التلاميذ كانت على اسم يسوع فقط؛ وذلك أن التلاميذ بعد رحيل يسوع وقيامته، كانوا يُعلِّمون بأن تكون المعمودية على اسم يسوع فقط، كما جاء على لسان كل من بطرس وبولس، وهما رأسا التلاميذ، والزعيمان اللذان عنهما أُخذت تلك الديانة المنسوبة إلى المسيح.

وقد حكى سفر أعمال الرسل ذلك عن بطرس هكذا «فقال لهم بطرس: توبوا، «وليعتمد» كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا . . »[١].

كما نص على ذلك بولس نفسه في الرسالة إلى رومية حيث قال: «أم تجهلون أننا كل مَن «اعتمد» ليسوع المسيح، «اعتمدنا » لموته»[٢].

وإذا كان ذلك صحيحًا عن التلاميذ، وعن هذين الزعيمين المعتبرين، فمن أين جئتم بذلك القول بأن المعمودية تكون بصيغة التثليث؟

إن قلتم : أخذناها عنهما، طالبناكم بنفس الصيغة والنص من كلامهما، ولا سبيل لكم إلى ذلك بحال، إلا أن تلجأوا كما هي عادتكم إلى اختطاف كلمة من هنا مع كلمة من هناك لإخراج صورة تخدعون بها أنفسكم، والمساكين الذين لا علم لهم ولا تحقيق، وأنتم أدرى من غيركم بأن كل ما تقومون به مجرد وهم لا أصل له. ونحن لا نُسلِّمه لكم.

ولعلكم أيضًا أن تتبجّحوا فتقولوا : أخذناها من يسوع، معتمدين على ذلك النص موضع النزاع.

فنسألكم بالتالي: من أخبركم بها عن يسوع؟

لقد نصصتم أنتم أنفسكم في ذلك النص على أنه لم يقل ذلك إلا بعد قيامته، وللأحد عشر فقط، وكان بينهم بطرس، وعنه، وعن التلاميذ الآخرين من الأحد

---

(١) لوقا: أعمال الرسل: ص ٢ : ٣٨ .

(٢) بولس : الرسالة إلى رومية: ص ٦ : ٣ .

عشر المذكورين أخذها بولس بعد ذلك.

وإذن: فأنتم، وعلى رأسكم كتبة الأناجيل قد أخذتم جميعًا عن الأحد عشر ومنهم بطرس. فكيف يتلقى بطرس والتلاميذ تعليمًا صريحًا هكذا: «عمّدوهم باسم : الآب، والابن، والروح القدس» ثم يذهبون فيُعلّمون بخلاف ذلك تمامًا، حيث يأمرون بأن يكون التعميد على اسم يسوع فقط، ويكتمون ذلك التعليم الواضح الصريح؟ أنصدقكم أنتم، أم نصدق التلاميذ وعلى رأسهم الزعيمان اللذان أخذتم عنهما دينكم: بطرس وبولس؟

إن الطريقين لا يلتقيان أبدًا، فإما نصدقكم، وإما نصدقهم، ولا سبيل إلى تصديق الفريقين معًا بحال.

ثم يلزمكم بعد ذلك أن معمودية بطرس وبولس على اسم يسوع فقط إما باطلة أو صحيحة؟

فإن قلتم : باطلة، ألزمناكم أن كل ديانتكم باطلة، لأنها عن هذين أُخذت.

وإن قلتم : صحيحة، ألزمناكم ما لزمهما، إذ كانت شهادتهما أولى وأسبق من شهادتكم .

ثم يلزمكم أيضًا أنه إذا صحّ ذلك النص من إنجيل متى بالتعميد بصيغة التثليث أن تخبرونا عن مشكلة بطرس مع إخوانه بشأن الوثني الروماني كرنيليوس عندما قَبِله في طاعة الإنجيل حسب تعبيركم، أي وافق على ضمه إلى ملّة يسوع، وقام بتعميده ومَن معه: ألم يكن ذلك على قولكم بعد فترة من قيامة المصلوب، أي ما يعني أنه بعد أمره لتلاميذه بهذه الصيغة لدعوة الأمم إلى ملّته، وتعميدهم بصيغة التثليث؟

فإذا كان ذلك، وسمعها حسب قولكم في الإنجيل الأحد عشر رسولاً، وقد شاهدوا المصلوب القائم من الموت: فكيف كان هؤلاء الذين كان معهم بطرس حين رأوه وسمعوه يقول ذلك، هم أول المحتجّين على بطرس عندما استجاب لكرنيليوس:

مع أنه من المفروض أنهم جميعًا بعد عودتهم نقلوا ذلك بحرفه، بنصّه وفصّه، إلى باقي التلاميذ، فأحاط به الجميع لساعتهم، ومن ثم فلا يكون لأحد عذر منذ تلك اللحظة في عدم العلم بالقيامة، ودعوة الأمم، والمعمودية بصيغة التثليث؟

فما بالنا نراهم بعد ذلك في قصة كرنليوس قد أنكروا على بطرس، وقاوموه، ونرى هذا المسكين ينسب عمله إلى نفسه، ولمجرد اجتهاده الشخصي، دون أن يُذكّرهم بهذا القول المقدس المفترض أنه وسائر الرسل قد سمعوه من المسيح ذاته بعد القيامة، وأخبروا به سائر التلاميذ والأتباع، لو كان لهذا القول حقًا أدنى أساس من الحقيقة على وجه من الوجوه؟

لا يُعقل بحال أن يكون لما كتبتموه في متى على لسان المصلوب من دعوة الأمم، وتعميدهم بصيغة التثليث من أساس ثم ينسبه بطرس إلى نفسه متعرّضًا للرفض والمقاومة، أو متعرّضًا للاحتجاج من زملائه الذين سمعوا مثله: لأنهم آنئذ سيصرخون بأنهم قد سمعو ذلك من القائم من الموت، ويرفضون أن يحتجن بطرس لنفسه تعاليم معلمهم على أنها وفق رؤيته واجتهاده ليشرّع لهم ويترأس عليهم.

كذلك لا يُعقل، ولا هو من معتاد الأحوال بين الناس، أن يضرب النسيان على أذهان جميع الرسل والتلاميذ وسائر الأتباع، وذاكرتهم، فينسوا، ويهملوا كل الإهمال، نصًا أساسيًا هو عماد العقيدة التي يدينون بها، ومن أجلها مات المصلوب!

بل ينبني على ذلك أيضًا ألا يكون هناك مبرر لمجمع نيقية سنة ٣٢٥ م لتأليه المسيح، حيث جاء نص التثليث في متى صريحًا بألوهيته، وعلى لسانه هو ذاته عقب قيامته مباشرة؛ فأي حجة تعلو هذه الحجة، وأي برهان أسطع من هذا البرهان، ليعقدوا مجمعًا للّغو والخلاف؟!

بل ولا يكون هنالك مبرّر أيضًا لمجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ م بشأن الروح القدس الذي لم يكونوا في مجمع نيقية على علم بشأنه إن كانوا

يؤلّهونه كما فعلوا بالناصري، أم ينتظرون حتى يتبيّنوا ما يقولون فيه. الأمر الذي امتدّ بهم أكثر من خمسين عامًا حتى فرض عليهم الواقع حكمه. فأي حاجة كانت بهم إلى ذلك وها هو المصلوب قد جعله الوجه الثالث للاهوت: أي هو إله مثل الآب، ومثل المصلوب الذي ألّهوه في نيقية: فهل سيدرون بشأنه أكثر مما يدري مصلوب اليهود؟

إن عقد المسيحيين لمجمعي نيقية والقسطنطينية المذكورين بشأن التأليه للصلوب وللروح القدس هو دليل قاطع على أن ذلك النص الذي أنطقوا به المصلوب عقب القيامة المزعومة لا أصل له بحال من الأحوال، وإلا لأفادوا منه في القضايا التي أشرنا إليها، وقضايا أخرى كثيرة، قبل المجمعين المذكورين.

وجدلُهم إذن في صيغة التعميد باسم يسوع وحده، وإنكارهم لتلك الصيغة، ليقولوا بأن الأصل هو التعميد بصيغة التثليث يُلزمهم أن تلك الصيغة ردّدها بحرفها الرسل الأحد عشر ومنهم بطرس، ثم أخذها عنهم بولس، وسائر التلاميذ. وهو ما لا سبيل لهم إلى إثباته بحال، وهو ما يقطع بوضعهم لهذا النص في الإنجيل في نشرته عقب مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ م، وأنه لم يكن من قبل قط، ولا يجوز .ولهذا لا يرجعون بأصول أناجيلهم إلى ما قبل القرن الرابع، وخاصة أواخره!

الدليل الثاني: نقلت «الدسقولية - تعاليم الرسل » النص التالي على أنه وارد في الإنجيل:

«لأن المسيح يقول في «الإنجيل» المقدس، في أحد الفصول، ويثبّت ويكمّل العشر كلمات التي للناموس.

«مكتوب في الناموس: لا تزن!»

« وانا اقول لكم: إني انا الذي نطقت بالناموس من فم موسى»

«وانا الآن أقول لكم: إن كل من نظر إلى امرأة «صاحبه» ليشتهيها يزني بها في قلبه».

هكذا جاء في نشرة القمص مرقس داود [١].

وجاء في نشرة د. وليم سليمان قلادة هكذا:

«لأن المسيح قال في الإنجيل» المقدس، في بعض الفصول، محققًا ومكملاً العشر كلمات التي للناموس:

« لأنه مكتوب في الناموس: لا تزن!»

«وأنا أقول لكم هذا : إني أنا الذي نطقت بالناموس من جهة موسى»

«وأنا أيضًا أقول لكم: إن كل من نظر إلى امرأة «صاحبه» ليشتهيها فقد فرغ من الزنا بها بقلبه»[٢].

والنصان متطابقان كما نرى في نسختي الدسقولية.

فإذا رجعنا إلى الأناجيل الحالية، وجدناه في متى وقد جاء هكذا:

«قد سمعتم أنه قيل للقدماء : لا تزن!»

«وأما أنا فأقول لكم : إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه»[٣].

ومن مقارنة النص في نسختي الدسقولية بالنص الوارد في الإنجيل نلاحظ عدة تعديلات:

ففي الدسقولية نراه يقول: «مكتوب في الناموس».

بينما في الإنجيل الحالي نراه يقول: «قد سمعتم أنه قيل للقدماء»، فوضع تجهيلاً بمصدر القول بعد النص عليه في النسخ السابقة.

كذلك نراه في الدسقولية يقول: «إن كل من نظر إلى امرأة «صاحبه» ليشتهيها.. »، فحدّد بلفظ «صاحبه» مجال التحريم، ويعني بلفظ «صاحبه» الذي

(١) الدسقولية: نشرة مرقس داود. طبعة خامسة ١٩٧٨ - المقدمة ص ١٣.

(٢) الدسقولية: نشرة قلادة. طبعة أولى ١٩٧٩ - المقدمة - فقرة ١٤ ص ٢٢

(٣) متى: ص ٥ : ٢٧ - ٢٨

هو من جنسه وعنصره الإسرائيلي.

بينما نراه في الإنجيل الحالي يقول: «إن كل من نظر إلى امرأة ليشتهيها» فجعل التحريم مطلقًا بخلاف ما كان عليه النص من قبل.

وقد بينا دوافعهم إلى هذا التعديل في كتاب سابق[1]، وذكرنا أن نص الإنجيل الحالي يبين الصورة كما خرجت إلى الأمم الذين كانوا وثنيين لا يعنيهم موسى وكتابه، وكذلك حيث ارتأوا أنه ينبغي إطلاق التحريم في النظر إلى المرأة أيًا كانت بخلاف ما كان عليه النص القديم من تقييد التحريم بالمرأة اليهودية فقط.

ولم يكن هنالك دافع ملح عليهم بضرورة هذين التعديلين قبل القرن الرابع حيث ظفرت المسيحية بحرية الدعوة بعد منشور ميلان سنة ٣١٣، وبعد تنصر الامبراطور قسطنطين، وعقد مجمع نيقية سنة ٣٢٥، فخرجت النصرانية إلى كل الأمم متمردة على العنصرية الإسرائيلية، ومنفصلة عن ناموسها.

أما التعديل الثالث: فهو أخطرها جميعًا، وهو قوله:

«وأنا أقول لكم: إني أنا الذي نطقت بالناموس من فم «جهة» موسى».

فقد أسقطوا هذا الجزء برمته من الإنجيل الحالي، والقضية الآن: لماذا أسقطوه؟

إنهم لا يستطيعون التشكيك في أصالة نص الدسقولية، لأن كاتب الدسقولية - في كلتا النسختين - قد نص على أن المسيح قد قال ذلك في «الإنجيل» المقدس حسب عبارته، فلم ينسبه إليه اعتباطًا، أو بجهل، كما أن جملة النص كما أورده الكاتب يشهد فعلاً بصحة نقله، بدليل أن النص وارد في الإنجيل الذي بين أيدينا الآن، ونعرف موضعه منه بوضوح، باستثناء ذلك الجزء الذي أسقطوه.

فلماذا إذن أسقطوا هذا الجزء بالتحديد من الإنجيل الحالي؟

قد يكون مما يعين على الإجابة أن نذكر أن كُتّاب الكنيسة يذهبون إلى أن

(١) انظر كتابنا : عقائد النصارى الموحدين : ص ١٦٥ - ١٦٩ . دار الأنصار .

الدسقولية من نتاج القرون الثلاثة الأولى. ويحدد بعضهم كتابتها خلال النصف الأول من القرن الثالث[١]، أي في نفس المرحلة التاريخية التي أدركها وعاصرها كل من اكليمندس الاسكندري المتوفى سنة ٢١٥، وأوريجانوس المتوفى سنة ٢٥٤ . وإن كنا نحن نرى فيها آثارًا للقرن الرابع كذلك. ليس هذا موضع ذكرها ، والكلام عنها .

فما الذي يعنيه ورود ذلك النص حتى القرن الثالث، وسقوطه من الإنجيل الحالي؟

يكفي أن نقول في تبرير ذلك إن القرن الرابع الذي تلاه كان عصر المجامع المقدسة التي بعدها سقط هذا النص واختفى من الإنجيل:

ففي القرن الرابع كان أول مجمع مسكوني للبتّ في طبيعة المسيح، وذلك هو مجمع نيقية الذي أمر قسطنطين الإمبراطور بعقده سنة ٣٢٥ لتأليه المسيح.

وفي نفس القرن أيضًا كان المجمع المسكوني الثاني المسمى مجمع القسطنطينية المنعقد سنة ٣٨١ بشأن الروح القدس، وانتهى إلى القول بألوهيته.

وكان الامبراطور بعد المجمع الأول قد كلّف مستشاره الديني أوسابيوس القيصري بالإشراف على نشرة جديدة للإنجيل[٢] . ومن الطبيعي أن نتوقع اهتمام الامبراطور ومستشاريه بأن تكون النشرة الجديدة مساوقة لما انتهى إليه المجمع المذكور من قرارات في قضايا الاعتقاد.

ومن الطبيعي أيضًا أن نتوقع نفس النتيجة بعد مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ وضرورة مراجعة الإنجيل مرة أخرى ليساوق قرارات هذا المجمع، وينص على تأليه الروح القدس، وطبيعة عمله واختصاصه، وكانوا من قبل في المجمع الأول قد اقتصروا على الإشارة إليه بقولهم: «ونؤمن بالروح القدس»، دون أن ينسبوا إليه الألوهية، أو يذكروا شيئًا عن عمله ووظيفته. ولو كانوا موقنين آنذاك بتأليهه أو طبيعة عمله واختصاصه ما منعهم شيء من النص على ذلك خاصة لو كان الإنجيل

(١) د. أسد رستم: آباء الكنيسة في القرون الثلاثة الأولى ص ١٦٩

(٢) أوسابيوس القيصري: حياة قسطنطين : ك ٤ : ٢٤ - ٣٦ - ٣٧ ، ترجمة مرقس داود.

حسب زعمهم قد نص بشأنه على ما يُستدل به على ألوهيته وعمله.

ولكنهم في الواقع لم يكونوا موقنين بشيء يختص به، ولم يكن في الإنجيل نص بشأنه. فتركوا الأمر رهنًا بالتطورات، على قيد البحث والنظر، بما يتفق مع دعواهم بالألوهية لابن مريم.

وظل الحال غامضًا بشأنه، إلى أن شاع تعليم لأسقف القسطنطينية «ماكيدونيوس» Macedonius الذي كان متأثرًا بتعاليم الآريوسيين، وقال بأن الروح القدس مخلوق من المخلوقات، وأنه مجرد خادم، أو مساعد للابن الذي هو بدوره مخلوق أيضًا حسب قول الآريوسيين.

وهنا تحفّز مؤلهو المسيح وعقدوا مجمع القسطنطينية، وقالوا فيه بتأليه الروح القدس، كما ألهوا الابن أو المسيح من قبل في المجمع الأول، وحدّدوا مجال عمل الروح واختصاصه، ونصوا على أنه «الناطق بالناموس في الأنبياء»، وضمّنوا ذلك أمانتهم هكذا:

«و «نؤمن» بالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الآب، والمسجود له والممجد مع الآب والابن - والناطق (بالناموس) في الأنبياء».

وكان من الطبيعي أن يراجعوا الإنجيل حتى يساوق التطور الجديد الذي توصلوا إليه ونصوا عليه، بشأن الروح القدس.

وهنا رفعوا ذلك النص الذي وضعوه من قبل على لسان المسيح في الإنجيل ونقلته الدسقولية، وأحالوه إلى الروح القدس، كما رأينا في نص أمانتهم المذكور.

وكان هذا إذن هو السبب في ذلك الاختلاف الذي ذكرناه بين نص الدسقولية الذي يرجع إلى القرون الثلاثة الأولى ونص الإنجيل الحالي.

وكان لا بدّ لهم أن ينصوا في الإنجيل على ألوهية الابن والروح معًا، فوضعوا صيغة التثليث، وجاءوا بها على لسان المسيح ذاته هكذا:

«اذهبـوا، وتلمِـذوا جـمـيع الأمم، وعـمِّـدوهم باسم: الآب، والابن، والروح القدس»[١].

ومـن ثم أصبح هـذا التـثليث مـساويًا في الجوهر والألوهيـة بين الأقـانيم الثلاثة.

ونحن نتحداهم أن يخرجوا لنا النص الذي أسقطوه من الإنجيل الذي بين أيديهم الآن، أو يبرزوا أي نسخة من الإنجيل قبل القرن الرابع، أو يثبتوا أنه كان أصلاً من كلام المسيح، ولن يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً؛ لأن الذين وضعوا لهم ذلك من قبل على لسان المسيح كانوا وثنيين مثلهم يعتقدون بالألوهية للمسيح. ولم يكونوا قد اعتقدوا بعد بالألوهية للروح القدس، فنسبوا إلى مسيحهم ما أملاه الوَهْمُ عليهم. فلما جاء أساقفة القرن الرابع كانوا مدركين جيدًا لهذه الحقيقة، وهي أن أصول دينهم لا أساس لها من يقين يعتصمون به، وأن الإنجيل يُكتب حسب ما يغلب به الوهم والتصور، ففعلوا ذلك بإنجيلهم، يقتادهم في ذلك روح الحيرة التي ورثوها عن آبائهم، وكَرَّسَها فيهم دهاء ذلك الوثني قسطنطين الذي لعب بدينهم حسب هواه، وبلغ من هزئه بهم ويملتهم أن كان يعلن أنه رئيس الكنيسة وكاهن الوثنيين في وقت واحد. وهو أمر يدل على مدى هوانهم في نظره، خاصة وأنه رغم دعواه باعتناق ملتهم لم يتعمد إلا في آخر حياته مستكملاً التمثيلية، ليأمن جانبهم على بنيه من بعده. ومع ذلك قبلوا ما كان يُملَى عليهم من وثنيات ذلك الداهية، والذين خلفوه، حتى بعدت الشُّقَّة بينهم وبين أصول دينهم التي جاء بها المسيح!

وكان من أمرهم ما كان!!

ومن يدري ! فلعل الأيام أن تكشف عن شيء من سخريتها بالآدميين، وتطرح من خباياها ما يسفر عن وجه الجريمة العظمى التي ارتكبوها في حق دينهم وملتهم في ذلك القرن الرابع المشئوم!!

(١) متى : ص ٢٨ : ١٩

الدليل الثالث: يقر القديس باسيليوس الكبير - المولود سنة ٣٢٩، والمتوفى سنة ٣٧٩ - بأن التعميد بصيغة التثليث إنما هو مجرد «تقليد» أو «تسليم» Tradition حيث هو من أسرار الكنيسة غير المكتوبة، التي تسلّمها الآباء من المسيح والحواريين وتوارثوها شفاهًا بالتتابع، ويتحفّظون من إعلانها، أو حتى كتابتها، كي لا يطّلع أعداؤهم على أسرار ديانتهم.

وهم يفسرون الإنجيل على ضوء تلك التقاليد، وليس العكس، وبدون ذلك لا يصح التفسير في نظرهم.

وقد جاء إقرار باسيليوس بذلك في رده على المعترضين في زمنه على تأليه الروح القدس من آريوسيين وغيرهم حيث كان هؤلاء يحتجون بأن تأليه الروح لم يرد في أي أصل مكتوب، ويطالبون من يؤلهونه بتقديم السند الكتابي من الإنجيل أو غيره من أصولهم المدوّنة الذي يبرر دعواهم. وهو ما يعني أن صيغة التثليث حتى ذلك الوقت من القرن الرابع لم تكن قد دُوّنت بعد في الإنجيل.

يقول باسيليوس: «إنهم يريدون هدم «التسليم» الرسولي ومحوه، ليصبح في مستوى تراب الأرض. وهم مثل الذين عليهم دين، واقترضوا من آخرين، ولكنهم يطلبون الإبطال، أي الوثيقة المكتوبة، فهي وحدها التي تؤكد وجود الدين. هكذا هؤلاء يطلبون البراهين «المكتوبة» ويرفضون تسليم الآباء غير المكتوب كأنه بلا قيمة أما نحن فلن نتأخر عن الدفاع عن الحق، ولن نهرب مثل الجبناء. لقد سلمنا الرب كأساس للخلاص: التعليم بأن الروح القدس يُحسب مع الآب في جوهر واحد. أما المقاومون فهم يقولون عكس ذلك، ويعبرون عن رأيهم بفصل الروح القدس عن الآب، واعتباره في مرتبة الأرواح الخادمة»[١].

ثم يستكمل باسليوس دفاعه، مؤكدًا أن التعميد بصيغة التثليث لم يرد قط في أي أصل مكتوب كالإنجيل أو غيره، وإنما هو مجرد تقليد أو تسليم، يسلم شفاهًا من الآباء عن المعمودية:

---

(١) القديس باسيليوس الكبير: الروح القدس ف ١٠ ص ٩١، تعريب د. جورج حبيب بباوي.

يقول باسليوس: «وسوف أحتاج لوقت طويل جداً، إذا حاولت أن أسرد «أسرار» الكنيسة غير المكتوبة. أما عن باقي الموضوعات فلا يجوز لي أن أقول عنها أي شيء أما عن الاعتراف بإيماننا «بالآب» والابن والروح القدس، فما هو المصدر المكتوب لهذه العقيدة؟ إذا كان حقاً أننا اعتمدنا، فإن «التسليم» الخاص بالمعمودية يحتم الإيمان والاعتراف بصيغة معروفة عند معموديتنا . . . »[١].

إننا هنا نرى التساؤل الصريح من باسيليوس الذي يستبعد وجود أي أصل كتابي لصيغة التثليث، مؤكداً أنه مجرد تقليد أو تسليم شفاهي يقال فقط عند المعمودية.

ثم ينهي باسيليوس حديثه في نفس الموضع السابق بقوله: «.. ومع أننا شرحنا كل شيء بكفاية إلا أنهم (يعني المعارضين) لا يكفون عن الثرثرة في أذهاننا بأن تقديم المجد للآب، والابن، مع الروح القدس، ليس في الأسفار المقدسة، وتعوزه الشهادة . . . »[٢].

ونتساءل نحن: لو كانت صيغة التعميد بالثليث موجودة آنذاك بإنجيل متى كما هي الآن، أكان الخصوم يحتجون هذا الحجاج بأنها ليست في الأسفار المقدسة، وأنها لا شهادة عليها من الإنجيل؟ وهل كنا نرى باسيليوس هكذا حائراً في الرد عليهم، ولا حجة له إلا أنها مجرد تقليد أو تسليم يقال عند المعمودية لا تأذن الكنيسة بتدوينه وإشهاره؟!

لقد عاش باسيليوس هذا خلال القرن الرابع، في نفس المرحلة التاريخية التي شكلت قسمات المسيحية الحالية، ولم يكونوا حتى وقت وفاته سنة ٣٧٩ م قد حسموا الموقف بعد بشأن الروح القدس الذي ألهوه في مجمع القسطنطينية بعد ذلك سنة ٣٨١ . وحديثه هذا، وإقراره الصريح بأنه ليس هناك مصدر كتابي واحد

(١) نفس المصدر : ف ٢٧ ص ١٦٣

(٢) نفس المصدر ونفس المرجع ص ١٦٤ . ويمكن مراجعة نفس الفصول من ترجمة الأرشمندريت أدريانوس شكور لنفس الكتاب في مجموعة: أقدم النصوص المسيحية - سلسلة النصوص اللاهوتية .

مدوّن به صيغة الثليث، رغم وجود الأناجيل الأربعة التي يعرفها، ويستظهر ما فيها تمامًا، دليل قاطع على أن تلك الصيغة لم تكن قط بذلك الإنجيل الذي توجد فيه الآن. أو غيره من الأناجيل الأخرى المعتمدة.

الدليل الرابع: خلو نص أوسابيوس المشهور من صيغة التعميد والتثليث: وذلك أن نص أوسابيوس قد جاء هكذا: «اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم باسمي..»[١].

ويرجع هذا النص إلى نفس المرحلة التاريخية التي نتحدث عنها، حيث توفي أوسابيوس حوالي سن ٣٤٠، أي أن القديس باسيليوس الكبير السابق ذكره قد أدرك فوق العشر سنين الأخيرة من حياة أوسابيوس.

وبالمقارنة بين نص الإنجيل الحالي: «اذهبوا ، وتلمذوا جميع الأمم، وعمدوهم باسم الأب، والابن، والروح القدس»[٢] ونص أوسابيوس : «اذهبوا، وتلمذوا جميع الأمم باسمي» نتبين أمرين في غاية الأهمية:

الأول: خلو نص المؤرخ تمامًا من استعمال لفظ «التعميد» أو أي إشارة إليه.

الثاني: خلو النص أيضًا خلوًا تامًا من أي أثر للقول بالتثليث أو ما يؤدي إليه.

إن كل ما يتضمنه نص أوسابيوس هو دعوة المسيح لتلاميذه إلى التبشير به. وقد أكد هذه الحقيقة. وهذا المضمون. أوسابيوس نفسه في المناسبة التي اقتضته ذكر هذا النص إذ قال: «. . . أما سائر الرسل (يعني تلاميذ المسيح) الذين استمرت المؤامرات ضدهم بقصد إبادتهم، وطوردوا من أرض اليهودية، فقد ذهبوا إلى كل الأمم «ليكرزوا» بالإنجيل، معتمدين على قوة المسيح الذي قال لهم: «اذهبوا ، وتلمذوا جميع الأمم باسمي».

---

(١) أوسابيوس القيصري : تاريخ الكنيسة : ك ٣ : ف ٥ : ٢

(٢) متى: ص ٢٨ : ١٩

فكل الهدف والمضمون لتلك الآية، أو لذلك النص، هو مجرد «الكرازة»، أي البشارة بالمسيح:

لا ذكر إذن للتعميد،

ولا ذكر أيضًا للتثليث.

وهذا هو كل الأصل في زمن أوسابيوس لذلك النص الذي حوّروه بعد مجمع القسطنطينية، وضمّنوه تأليه المسيح، وتأليه الروح القدس، واستقروا به على صيغة التثليث الحالية.

ونتساءل : أيمكن لرجلين لهما تلك المكانة العظمى عندهم، وهما : أوسابيوس القيصري، الذي يدعونه أبا التاريخ الكنسي، وكان أسقفًا لقيصرية بفلسطين، ومستشارًا للامبراطور قسطنطين، وباسيليوس الذي يدعونه الكبير، ويقولون إنه «قديس» أن يلتقيا على إنكار نص في الإنجيل يتضمن صيغة التثليث التي يمجدانها. ويدافعان عنها وعن الإنجيل والتقليد؟ وهل هناك باعث واحد، أو شبهة واحدة يمكن أن تبرر اتهامًا لهما بذلك؟!

إن الرجلين موثوق بهما تمامًا عندهم في الحفاظ على الإنجيل والتقليد، والدفاع عنهما، والعمل في سبيلهما، وذلك من كافة المسيحيين، بما لا يدع مجالاً للشك في أي منهما خاصة في هذه القضية، فضلاً عن أن أوسابيوس بصفة خاصة كان مؤتمنًا على الإنجيل من الامبراطور ذاته الذي كلفه بإخراج نشرة جديدة للإنجيل بعد مجمع نيقية سنة ٣٢٥ الذي ألهوا فيه المسيح، فأنجز النشرة، وتلقى الشكر من سيده. وعليهم إذن أن يقرروا موقفهم منه: أيقبلون شهادته على إنجيلهم الذي مرّ من تحت يديه، فيلزمهم ألا يجادلوا فيما قررناه، أم يرفضون تلك الشهادة فيلزمهم الطعن في أمانته، وفي صحة الإنجيل الذي نسخه، وهو أصل ما هم عليه اليوم؟!

الدليل الخامس: موقف أوريجانوس من المعمودية والثالوث يؤكد عدم أصالة النص في الإنجيل: فقد وُلد أوريجانوس معلمهم العظيم سنة ١٨٥ وتوفي سنة

٢٥٤، وكان حريصًا على نسخ الكتاب المقدس بعدة لغات، وقام بشرح الإنجيل أيضًا. أو التعليق عليه، وترك في ذلك تراثًا قيّمًا يعترفون به، ويغترفون منه، رغم خلافهم مع بعض آرائه واتجاهاته.

وقد جاء عن أوريجانوس أنه كان يرى أن صيغة التثليث باسم الآب، والابن والروح القدس تُوهم بأن النصارى يعبدون ثلاثة آلهة لا إلهًا واحدًا، لذلك كان يستحسن عدم ذكر التثليث لمن يؤمن بالإله الواحد.

وكان يرى أيضًا أن المعمودية ليست فريضة حتمية، بل هي مجرد سُنّة أو تقليد.

وها هو النص بحروفه على لسان سليمان الغزي الأسقف الذي عاش خلال القرنين العاشر والحادي عشر:

«عبد عبيد يسوع. وأصغر أولاد بيعته، يردّ على مَن قال كمقالة أوريجانوس ومارون اللذين قالا:

«لا حاجة لمن وحّد الإله إلى ذكر الأقانيم، إذْ كانت تُوهم الناس بأن النصارى يعبدون ثلاثة آلهة.

«وزعما بجهلهما : أن المعمودية «سُنّة» وليست فريضة»[1].

ونتساءل : أيمكن لرجل مثل أوريجانوس المؤتمن على كتبهم المقدسة، والذي كان لسان الكنيسة. وحجتها، في الردّ على خصوم عقيدتهم، وتقويم عقائد المنحرفين منهم عن نهج الكنيسة. أيمكن لرجل مثل هذا أن يطّلع على نص في الإنجيل على لسان المسيح الذي يعبده حيث يراه يأمر بالمعمودية والتثليث، ثم يقول لا حاجة بالنصارى إلى ذلك؟ كيف يمكن له أن يراه يأمر بالمعمودية ويفرضها فرضًا، ثم يقول هو إنها مجرد سنة أو تقليد وليست

(١) مجموعة التراث العربي المسيحي المجلد رقم (٩) سليمان الغزي - الجزء الثالث : المقالات اللاهوتية النثرية. الفقرة ٣٩. ص ٦٣ - ٦٤ . تحقيق ناوفيطوس أدلبي.

فريضة؟ وكيف يمكن له أن يراه يأمر بذكر صيغة التثليث ثم يقول هو لا حاجة بمن وحّد الإله إلى ذلك؟!

إن موقف أوريجانوس ليس له إلا دلالة واحدة، وتفسير واحد، وهو أن ذلك النص لم يكن قط مدوّنًا بالإنجيل في زمنه، وأنه كان مجرد تسليم أو تقليد Tradition كما ذكر هو، وكما ذكر باسيلوس فيما بعدُ كما بيناه من قبل.

وكون أوريجانوس يستحسن عدم ذكر الثالوث حتى لا يوهم بثلاثة آلهة يتفق تمامًا مع تجاربه مع الذين كان يُرسَل إليهم من الكنيسة ليردهم إلى عقيدة التثليث حين ينحرفون عنها لكونهم لا يستطيعون التوفيق بين القول بثلاثة أقانيم والقول بإله واحد. وقد عثر المعاصرون على نسخة من حوار له يحاول فيه إقناع أسقف يُدعى «هيراقليدس» بأن التثليث لا ينفي الوحدانية[(١)].

على أن أوريجانوس وإن دافع عن التثليث، إلا أنه لم يقل دائمًا بثالوث تتساوى فيه الأقانيم الثلاثة في الجوهر والمنزلة، كما ستقرر ذلك الكنيسة فيما بعد في مجمعي نيقية وقسطنطينية، بل قال أيضًا بثالوث متدرج[(٢)]، يعترف فيه بأن الابن والروح القدس دون الآب وأقل منه، وهو ما يقتضي بالضرورة عدم الوحدة في الجوهر في الأقانيم الثلاثة، بما يستتبع بالتالي أن الألوهية ليست إلا للآب وحده ومن ثم يصبح قول الكنيسة بعقيدة التثليث موضع شك كبير من جانبه حتى وإن لم يتجاسر على الجهر بتقرير هذا الاعتقاد.

وهكذا تلتقي الأدلة الخمسة، ويلتقي تعليم بطرس وبولس بشأن المعمودية مع شهادة كل من الدسقولية وباسيليوس وأوسابيوس وأوريجانوس لتوكيد حقيقة واحدة: هي: أن النص الوارد في ختام إنجيل متى عن المعمودية والتثليث نص

---

(١) د. أسد رستم: آباء الكنيسة في القرون الثلاثة الأولى ص ١٣٩ - ١٤٠

(٢) نفس المصدر: ص ١٤٣

مدسوس ولم يكن قط بذلك الإنجيل قبل مجمعي نيقية والقسطنطينية في القرن الرابع.

وهكذا، وفي تلك المرحلة الخطيرة من تشكيل قسمات العقيدة المسيحية، وملامحها النهائية، وفيما بين المجمعين المذكورين، تم أيضًا تدوين وثيقة كهنوت المسيح.

* * *

لغز في وثيقة كهنوت المسيح

هل مات يوسف بعيداً عن بيت مريم؟

لقد لفتت نظرنا عبارة وردت في وثيقة كهنوت المسيح بشأن يوسف النجار زوج مريم، ومربي يسوع، تستوجب أن نتوقف عندها بتأمل:

لقد قال الكهنة لمريم وهم يحاورونها لتدلهم على الأب الذي ينتمي إليه يسوع:

« .. فقد مات أبوه «يوسف» وقلبنا يشك فيه إن كان هو أباه. . . ».

وإذا بها ترد هكذا: « . . **ويوسف الذي «قلتم» مات كان قد شك في حبلي به. . .».**

إن مريم في هذه العبارة الموجزة تثير أمامنا قضية هامة نطرحها بدورنا تحت أنظار الباحثين:

إنها لا تقول عن يوسف إنه «قد مات» بل تنسب ذلك إليهم هكذا: «الذي قلتم مات» فهم إذن الذين قالوا بموته، وليست هي!!

ما معنى هذا؟

ألا يدل ذلك على أن يوسف كان قد انفصل عن مريم، أو عاش بعيدًا عنها، فمن ثم لم يمت في بيتها، ولم يكن عندها يقين بشأنه وقت هذا التحقيق؟

وإذا افترضنا صحة ذلك أليس يستدعينا بالتالي أن نتساءل عن أسباب الانفصال بينهما. أو أسباب حياتهما منفصلين؟

ثم ألا يدفع هذا إلى التساؤل والدهشة معًا: كيف يمكن لسيدة مثل مريم تتسم بالتعقل والفضيلة معًا أن يبلغ بها الحال في هجر يوسف. أو الانفصال عنه هذه الدرجة من الكراهية والنفور حتى إنها لا تبالي بحياته أو موته. ولا تدري إن كان حيًا أو ميتًا؟ ألا يمكن أن ينمّ هذا عن وقوع أمر شديد يمس صميم الذات. ويهدر الكرامة؟ فما عسى أن يكون ذلك الخلاف أو النزاع الذي وقع بين هذين الزوجين.

ايكون بشأن ولدها يسوع، أم عن موقف ليوسف من سلوك مريم، أو حياتها أو بعض شئونها؟.

إن آخر مرة رأينا فيها يوسف كانت حسب رواية لوقا ويسوع في الثانية عشرة من عمره عندماذهب به أبواه إلى أورشليم في عيد الفصح[١]، أي أن مريم كانت آنذاك في حوالي الخامسة والعشرين من عمرها، ثم يخيم الصمت الطويل بعد ذلك على الأناجيل كلها حتى الثلاثين من عمر يسوع عندما نهض للتبشير برسالته، وهنا خلت كل الأخبار في تلك الأناجيل من أية إشارة إلى وجود ليوسف على نحو من الأنحاء، وهو ما يعزز إشارة هذه الوثيقة إلى وفاته قبل اختيار يسوع للكهنوت، والقضية إذن هي في التعرف على مدى الفترة التي كانت بين موته وبين إرسالية يسوع، وكذلك على السبب في موت يوسف بعيدًا عن بيت مريم وابنها، وهو الأهم في نظرنا لتقييم صورة كل من مريم ويسوع على نحو أصح.

على أن كون الكهنة يتحدثون عن موت يوسف بيقين، ويقرون بشكهم في كونه أبًا ليسوع يستدعي الاهتمام، لأن هذا قد يعني أن لهم علمًا بشخص يوسف وأحواله، وأنه لم يكن بعيدًا عن الصلة بهم، أو الحديث إليهم، أو نقل بعض أخباره إلى بعضهم، ومن ثم لا يبعد أن يكون شكهم في كونه أبًا حقيقيًا ليسوع راجعًا إلى شيء أدركوه من أحواله في علاقته بمريم، أو موقفه تجاهها وتجاه ولدها. وهذا بدوره قد يكون فيه مبرر لما روته القصة اليهودية التي نقلها كلسوس ثم أوريجانوس من أن مريم عملت ماشطة، وعملت بالغزل لتتمكن من أن تعول ولدها ، خاصة وأن أوريجانوس لم ينكر هذه القصة، ولم ينكر كون مريم عملت بذلك لتقوم بشئونها وشئون يسوع.

على أية حال، فإذا كانت المعلومات لا تواتينا في هذا الشأن، وإذا كانت المصادر منقطعة تمامًا في هذه القضية، إلا إنها يجب أن تطرح، لعلها تشهد بمدى أهمية هذه الوثيقة عن كهنوت المسيح، وأن تخالس أنظار الباحثين للالتفات إلى مغزاها، والإفادة بما يتوافر من معلومات أو أخبار يمكن أن ترتبط بها، وتسهم في كشف غموضها.

(١) لوقا: ص ٢ : ٤٢

وبعد ..

فنكتفي بما ذكرنا، متقدمين إلى إيراد نص وثيقة كهنوت المسيح، دون أي تعديل، أو تهذيب، اللهم إلا في أضيق الحدود، حسب الضرورة الملحة مع تقويم لبعض الأخطاء الإملائية واللغوية، وهي قليلة جدًا لا تستحق مجرد التنويه بها.

توثيق نشرتنا

لوثيقة كهنوت المسيح

عندما نشرنا كتابنا هذا «سرّ مريم» في طبعته الأولى سنة ١٩٩٤ م اقتضى الأمر أن ننشر وثيقة «كهنوت المسيح» التي تحدثنا عنها في الصفحات الماضية. عن كتاب «تاريخ البطاركة» للمؤرخ القبطي ساويرس بن المقفع الذي صدّر كتابه بها بعد أن سبقها بأربع مقدمات. وقد ورد بالوثيقة أن تدوينها وإقرارها من الكنيسة كان قد تمّ في فترة حكم يوليانوس الكافر بين سنة ٣٦١ وسنة ٣٦٣ م، أي أن هذه الوثيقة عمرها الآن عند كتابة هذه السطور ٢٠٠٣ (السنة الثالثة من مطلع القرن الحادي والعشرين) يبلغ ١٦٤٠ عامًا (ألفًا وستمائة وأربعين عامًا شمسية كاملة)، وأن المصدر التاريخي الذي نقلناها عنه «تاريخ البطاركة» الذي كتبه المؤرخ القبطي ساويرس بن المقفع في القرن العاشر للميلاد يزيد عمره الآن على الألف عام.

وهنا المبرّر لهذه الكلمات:

فقد عثرنا - بالصدفة - على نشرة ظهرت في مصر في ثلاثة مجلدات لجملة تاريخ البطاركة الذي يبدأ بالمجلد الوحيد الذي كتبه ساويرس بن المقفع. ثم استكمله من بعده مؤرخو الكنيسة القبطية حتى الوقت الحاضر. وقد رأينا تلك النشرة الجديدة تحمل تاريخ الطبع سنة ١٩٩٩م (ألف وتسعمائة وتسع وتسعين للميلاد) من إعداد نفس الشخص الذي قام بإعداد الطبعة التي نقلنا عنها نص وثيقة «كهنوت المسيح»، والتي صدرت سنة ١٩٨٤م. وكان آنذاك هو : «الراهب صموئيل السرياني». ثم صار في تاريخ النشرة الجديدة : «الأنبا صموئيل - أسقف شبين القناطر وتوابعها».

كانت النشرة السابقة تحمل أسفل الغلاف هذه العبارة : «طبعة خاصة للدارسين بمعهد الدراسات القبطية»، كما كانت هنالك بعد الصور والفهرست في أول الكتاب صورة لمقدمة بخط اليد في الصفحة (٤)، ثم أربع مقدمات أصلية بالكتاب من الصفحة (٥) وتنتهي الرابعة بالأسطر الثلاثة الأولى من الصفحة (١٢) حيث يتلوها مباشرة نص وثيقة «كهنوت المسيح» والتي تنتهي بنهاية الصفحة (١٨). وبعدها في الصفحة (١٩) تبدأ سيرة «مار مرقس : الكاروز الشهيد».

أما في النشرة الجديدة سنة ١٩٩٩ إعداد: «الأنبا صموئيل - أسقف شبين القناطر وتوابعها»، وهو نفس الراهب الذي أعدّ النشرة السابقة، فبعد صورة بطريرك الأقباط تأتي صورة «نيافة الأنبا صموئيل - أسقف شبين القناطر وتوابعها» وفي ظهر الصورة «المقدمة» التي كان قد نشر صورتها بخط اليد في النشرة السابقة، لكنها مطبوعة ولا تحمل أي ترقيم، ولا طرأ على نصها أو مضمونها أي تغيير. وبعدها مباشرة تبدأ أول صفحة بسيرة: «مارمرقس: الكاروز الشهيد» بأول ترقيم، أي الصفحة (١) الأولى؛ بينما في النشرة السابقة كانت هذه الصفحة تحمل الترقيم (١٩)!

وهنا نتساءل أو نستفسر: أين مقدمات الكتاب، وأين الفصل الخاص عن «كهنوت المسيح» الذي يمثّل نصًا تراثيًا خطيرًا، وهو نص الوثيقة التي نشرناها نحن بعنوان «وثيقة كهنوت المسيح»؟

لا أثر لشيء من ذلك أصلاً في النشرة الجديدة التي أعدها نيافة الأسقف المذكور، ولا إشارة قط إلى حذف أو إسقاط لشيء من أصل الكتاب!

ترى أيملك أحد إخفاء نص تراثي بالغ الأهمية كهذا عمره من عمر الأناجيل الحالية؟

ترى أحدث ذلك عن قصد؟

أحدث ذلك عفوًا؟

لا أدري!

ولا أكتب هذا لانتظار جواب، بل أكتبه للباحث والدارس، وللمثقف القبطي

والمسيحي، ومن يعنيه النظر والتحقيق في هذه الأمور.

وها أنا أستدرك ما حدث، فأقرن النص في هذه النشرة لكتابنا «سرّ مريم» بصورة النص الأصلي لوثيقة كهنوت المسيح!

كما أنني قد استدركت أيضًا على وثيقة ابن سبّاع في الجوهرة النفيسة التي تكشف اتهام يوسف النجار لمريم، وتعييره لها: واحتمال إسقاطها من نشرات جديدة لكتاب الجوهرة النفيسة: فصوّرناها وألحقناها بموضعها من الكتاب. بعد وثيقة كهنوت المسيح!

نص وثيقة كهنوت المسيح

قال الأنبا ساويرس بن المقفع:

«نبتدئ بعون الله، وحسن توفيقه، بكَتْب سِيَر البيعة المقدسة:

«قال المصنّف : فيما صنّفته أنا الخاطئ ، جمعته من دير القديس «أبي مقار» . وديارات الصعيد . وتولى نقل بعضه الشماس الديِّن «ميخائيل بن بدير» من لغة القبطي إلى العربي، مما يأتي ذكره في موضعه، سوى ما كان في المدينة العظمى، وما وُجد منها مختصرًا من سِيَر الأوَل. . .(١) فأول ذلك مانُقل بدير السيدة بنهيا عن سبب كهنوت المسيح... (١)ودخوله إلى الهيكل بسلام . . . . (١).

«إنه لما كان في زمان يوليانوس الملك الكافر، كان رجل يهودي كاهن لليهود، اسمه «تاوضوسيوس» شيخ مقدَّم، وكان إنسان نصراني صائغ يعرفه، وبينه وبينه مودة أكيدة، واسم النصراني «فيلبس».

«ولما كان في بعض الأيام، وصل فيلبس إلى بعض مدن الشام، وأرسى مركبه في الميناء، ليبيع تجارة كانت معه. فاجتمع فيلبس باليهودي الكاهن، تاوضوسيوس صديقه، فوادده، وحادثه ، وقال له:

(١) هذه المواضع بها تضرعات وتمجيدات للمسيح كإله فأسقطناها، كما أسقطنا البسملة المسيحية من رأس النص، وانظر النص المصوّر.

«يا أخي، أحب أن تكون نصرانيًا، لتصح مودتنا، وتريح الدنيا والآخرة.

«فأجابه تاوضوسيوس، وقال له بمحبة عظيمة: قد اهتممت بخلاصي، وقد افتكرتُ فيما أردتُ إطلاعك عليه، ولا أدَعُك خاليًا من معرفة الله تعالى الشاهد عليَّ فيما ذكرته لك . ولا تشُكّ في ذلك، لأجل إظهارك لي محبتك. وأوثر أن تحفظ ما أقوله لك في قلبك، ولا تقوله لأحد، وهو أن الذي بشر به روح القدس والأنبياء هو المسيح، الذي أنتم تسجدون له، وتعترفون أنه بحق قد جاء. وأنا أومن (به) بقلب صادق نقي بغير شك بالجملة، لأنك أخ وودود، ولذلك أظهر لك هذا السر. فأثبته لديك، لما قد ظهر لي من محبتك، وإرادتك لي الخير والجيد. فصدقني الآن يا أخي، فإن أفكاري الجسدانية منعتني أن «أتعمّد» لأني غير متواضع، ولا أصلح، لأني عاجز. وأنا كاهن لهذا الشعب، ولي منهم مجد عظيم، وكرامات، وتقدمة. وقد كسبت منهم ذخائر وأموالاً. وأنا إن خرجت منهم أُعدمتُ ذلك كله. وليس شعبي وحده يرفضني، بل والنصارى أيضًا، لما أشاهد من اليهود إذا تعمّدوا، وكيف يكونون وسمعت أيضًا أنكم تقولون إذا تعمد يهودي (إن مَن عمّد يهوديًا[1]) كمن عمّد حمارًا. فبأي وجه الآن أتعمد؟ وأيضًا إنني أرى النصارى يخطأون، ويغضبون الله، ويرفضون الناموس، عوض ما يسلكون في الأدب المستقيم، والحق الذي قد صار لهم. وأشاهد قومًا إذا رأوهم هكذا ضعفت قلوبهم وأمانتهم، وتأسَّوْا بهم.

«ولما فتّشنا عن الخلاص الذي كان لكم منا عرفنا المسيح بالحقيقة، والرسل الذي صاروا لكم معلّمين، فهم أيضًا من جنسنا. وأنتم ترفضون ما بشروكم به، وما علّموكم إياه.

«ولأجل أن بقية الأمم لم يتعمّدوا، ولم يؤمنوا إلى الآن، كذلك أنا أيضًا لم أتعمّد لأجل مجد العالم، والكرامات التي أنالها من شعبي. ولأجل ما أشاهدكم تفرّطون فيه من أمر المسيح لكم ووصيته ووصية تلاميذه لكم به. فامتنعت أن يضيع عليّ مجدي وكرامتي وأصير مفرّطًا مثلكم فيما قد أُعطيتموه. وهذا الذي يمنعني من

(١) هذه الجملة أضفناها ليستقيم النص.

المعمودية. وأكثر جماعتنا اليهود (قد) تحققوا حقيقة أمر المسيح وعجائبه أكثر منكم، غير أنهم بعيدون من الخلاص الذي صار لكم.

«والآن، فأنا أطيّب قلبك بالأسرار الجليلة عندنا من البدء، وأظهر ذلك لك، لأنا عارفون، محققون بعجائبه وأفعاله أكثر منكم أنتم النصارى، ونعلم حقًا أنه المسيح الذي أتى: فاسمع مني هذا السر:

كان في الزمان الأول، والهيكل مبني بأورشليم، وكان لليهود عادة أن يقيموا اثنين وعشرين كاهنًا في الهيكل، أمرًا لازمًا لهم. وكان في الهيكل كتاب مكتوب بنسبة كل من يصير كاهنًا. واسم أبيه وامه، ليُعلم أنه متبع لأمر الله تعالى. وكان اليهود مستمرين على هذه العادةً. وكان يسوع المسيح في ذلك الزمان في «اليهودية»، وكانت هذه الكتابة قبل ظهوره. فمات كاهن من الاثنين والعشرين كاهنًا. فاجتمع الكهنة وحدهم يختارون من يقدمونه عِوضًا عنه. فلم يتفق رأيهم على مَن يصلحونه. وكانوا يقاومون بعضهم بعضًا. وكلما ذكروا أحدًا لم يرضوا به..

«ثم إنهم تقارعوا على أن مَن وقعت قرعتهم عليه بعد تخيّره يصلحوه إذا لم يكن فيه عيب ولا علة، ولا في جنسه عيب ولا سبب. فإذا وجدوا مَن له نسب وليس هو عالمًا رفضوه ولا يقدمونه. وهذا كان تدبيرًا من الله تعالى لأجل مقاومتهم. كي لا يتقدم إلا صاحب الكهنوت المستحق لذلك، وهو يسوع المسيح. وإذا واحد من الكهنة بعد ذلك قد تحرك فيه روح القدس، ففار لله تعالى، فوقف في وسطهم وقال:

« - لنا اليوم عشرة أيام مجتمعين، ولم نستطع أن نقدم أحدًا. وأنا أتحقق وأعلم أن الخطاب وتطويله لأجل مَن يقدمه الله تعالى. وهذا سبب الخلاف بيننا، وفساد رأينا، وسوف يظهر ذلك بإرادة الله تعالى.

«فقالوا له: إن كنتَ تعرف أحدًا فاذكره لنا علانية، ونعترف جميعًا لك بمنة عظيمة.

«فقال لهم: (لا أقول) [١] حتى تعاهدوني ألا تردّوا ما أقوله، وتقبلوا مني. وأنا

(١) أضفناها ليستقيم السياق.

أقول لكم مَن يصلح ، وأعلم أنكم لا تقدرون على رده.

«فلما سمع جميع الكهنة ذلك حلفوا له أيمانًا بحق وصدق أنهم إذا ظهر لهم مَن هو مستحق يقبلونه ويقدمونه.

«فلما توثق منهم قال لهم: يا إخوتي ، إن الله تعالى (قد) طرح في فكري مَن هو مستحق لهذا . هو «يسوع» الذي يُعرف بابن يوسف. لأنه رجل كامل في جنسه وخصاله وأفعاله، وله القدرة على الكلام والفعال قدام الله تعالى والناس واعلموا أنكم لا تجدون مثله في هذا الشعب؛ الذي ليس فيه رياء ولا علة.

«فلما سمع الكهنة كلامه، وعرفوا منه هذا القول، بُهتوا، وتحيّروا، لأجل الأيمان.

«فقالوا له بمكر، وظنوا أنهم يردّون خطابه: نعم مَن ذكرت، لأنا نطلب الجيد. لكن ليس هو من قبيل الكهنة، والشعب أيضًا يقذفون ميلاده - لأجل [١] الأطفال الذي قتلهم هيردوس بسببه بالسيف[١] -.

«فأجاب ، وقال لهم بغير غضب: اثبتوا على الحق، فإني أهديكم إلى الصواب من أجله، لئلا تزوغوا عن الله تعالى فنبعد من الحق، ونصدق الكذب، لأني أعلم أننا إذا فحصنا عن الحق أظهره الله تعالى».

«فقالوا: طيّب قلوبنا كما تعلم لأجل ميلاده وقبيلته، ونحن نساعد فيما تذكره.

« فقال لهم: فتشوا لتعلموا أن في زمان هرون الكاهن قد كان اختلاط من هرون ويهوذا. وقد شهد داود النبي على ذلك، وقد فحصت أنا كثيرًا لأجل يسوع وقبيلته ونسبه، فوجدت مريم أمه مختلطة بالقبيلتين. وهي أيضًا بارة لأجل سر عظيم آخر، ومن أجل ذلك أنا أقترح أن تفتشوا لتعرفوا بالحقيقة صحة قولي، وتعرفوا أني عندكم صادق.

«فظنوا أنهم بهذا الفكر يبطلون أمره.

وبدأوا يفحصون عن الجنس، فوجدوا مريم توحّد القبيلتين. فما قدروا أن يزوغوا عنه لأجل لأيمان، فبدأوا يتخاصمون على القبيلة وقالوا: رأي آخر: نريد ان

---

(١) هذه العبارة زائدة في الأصل، ويجب إسقاطها، حتى لا ينحرف المعنى.

نعلم كيف كان ميلاده. لا يكون من زنا. لأن امه لما سُلِّمت ليوسف تكلموا عليها.

«واتفقوا جميعهم على هذا الكلام.

«وأحضروا مريم أمه إلى الهيكل. وخاطبوها بلطف، لتُعلِمهم السبب في حبلها بيسوع، ومن اين هو.

«وكان الناموس في أيديهم شاهدًا عليهم معها، لئلا يظنوا بها سوءًا إذا قالت الحق.

«وحلفوا لها على ذلك

«وقالوا لها: أيتها المرأة: هو ذا ترينا كلنا مجتمعين لخير لا لشر، بل لأمر الله تعالى نقيمه. وقد انقضينا على رأي واحد لأجل ولدك، لأنا نراه يرضي الله تعالى والناس، وهو عجيب عندهم. وجماعة يمجدون الله تعالى من أجله. لأنه في هذا الزمان عندهم شبه سليمان بن داود، الذي رزقه من امرأة أوريا الحِثّي ولذلك اصطفيناه، وتقارعنا عليه، لنقيمه كاهنًا لأجل صلاحه.

«ولأجل كلمة واحدة نحن شاكّون إلى الآن، ونريد أن نعرف منك: من اين هو؟ او: ممن حبلت وولدته؟ ليُعلم الحق منك لئلا يُقال عنك كلام ردئ، ولا عن الكهنوت. فلهذا أحضرناك لنعلم الصحيح، ولا نكون مشكّكين، ثم تزيلين الخصومة فيما بيننا. وهو ذا الناموس قدامنا، ونحن معترفون قدام الله تعالى الذي لا يُرى. أنه لا ينالك منا شر ولا تبكيت. بل نشكرك كثيرًا لأنك لم تخفي عنا الحق.

«وكانت تظن أن السر المخفي الذي لولادتها العجيبة إذا أظهرته لهم لا يؤمنون به، لأجل عِظَم الأمر عليهم، وأنه لا تقبله عقولهم أن تلد امرأة من غير رجل، أو يكون ابن بلا أب.

«فقالت لهم: إذا قلت لكم ما أعرفه تقبلونه مني، فإذا أظهرت لكم السر في حملي، وولادتي العجيبة ما تؤمنون بكلامي والجيد لي أن أسكت.

«أما هم فلأجل فكرهم الردئ قالوا لها: يا مريم بالحقيقة نريد ان نسمع منك ابن مَن هو؟ فقد مات ابوه يوسف وقلبنا يشك فيه إن كان هو اباه. ولهذا طلبنا منك

القول الصحيح، وتتكفّ كل خصومة لأجل ولادتك. ونحن نسألك أن تظهري لنا هذا السر بالحقيقة بغير شك. ولا تحتشمي من أحد، لأنا ما يخفى عنا الصواب. ومتى كتمت الأمر الناموس يحكم عليك باللعنة إلى الأبد.

«قالوا لها هذا وشبهه. فاضطربت مريم قائلة: أنا قلقت من كل وجه لأجل الذي ولدته، الغير مدرَك. وهو ذا اليوم حتى أظهره. وأنا الآن عارفة بالولادة التي تلزمونني بإظهارها. وإذا سمعتموها ما تصدقونها. ولا تقبلون ما أقوله لكم ويوسف الذي قلتم مات كان قد شك في حبلي به مثلكم، وسألني قائلاً: ما الذي حل بك؟ فحلفت له أن لم يمسسني رجل قط، فلم يُصدّقني، حتى ظهر له ملاك الله، وطيّب قلبه. وليس هو حيًا فيشهد لي عندكم بصحة ما قلته، لأن الناموس يقبل شهادة شاهدين أكثر من شهادة واحد. فأنا أعترف قدام الله وهذا الناموس أني ولدت ابني يسوع بلا رجل. وأنا أذكر لكم كيف كان حبلي به.

«فقالوا لها: إن الأمر ظاهر. ونحن نعترف قدام الله وناموسه المقدس أنك بالحقيقة ولدت هذا المولود، وهذا شيء غير مخفي، لأن امرأة تقبل الحبل والأوجاع وألم الولادة هي التي تفرح بولادتها دون غيرها. فقد اعترفت الآن بالحق أنك ولدته. ونحن لنا زمان ما خاطبنا أحدًا. والآن، فنحن جلوس نخاطب امرأة. وقد قلنا لك إنا ما نبكّتك إذا قلت ما يجوز أن نسمعه منك ونقبله.

«وكانت مريم مفكرة حائرة، خائفة، مطرقة بوجهها إلى الأرض، باكية، فقالت: الآن أنا عالمة أنني ولدت يسوع كما تقولون. وأنا معترفة بذلك. فأما قولكم: إن رجلاً سرقني، فإن خاتم عذرتي يشهد لي بصحة قولي لكم.

«فلما سمعوا هذا اضطربوا، وقالوا: هذا ما لا نقبله، لأنه كلام عجيب.

وكيف نقدر أن نكتب اسم ابنك في النسبة بغير اسم أبيه، ومن أي سبط هو، كما جرت العادة؟

«فلما سمعت مريم هذا من الكهنة قالت لهم: قد قلت لكم من الأول أني ما أعرف شيئًا مما قلتم. فافعلوا ما أردتم، لأني ما أقول لكم ما لم يجر عليّ.

« فلما قالت هذا لم يرادِدْها أحد منهم، بل تحركوا بأمر الله، وأنفذوا،

وأحضروا الثقات عندهم من النساء القوابل، وسألوهن باجتهاد وحرص أن يكشفن أمرها إن كانت عذراء كما قالت قدام الله والناموس.

«فكشفنها. وقلن لهم: حقًا قالت. هي عذراء كما قالت، تامة، لم تتفك عذرتها عند ولادتها يسوع، كما تعرفون جميعكم أنه وُلد منها.

«ثم إنهم فتشوا عن جيرانها ومعارفها، لعلهم يجدون أحدًا يقاوم الولادة. فما وجدوا. بل كل أحد مصدق لولادتها، وزمانها الذي ولدت فيه الوِلاد العجيب. بالسر الذي لا يدرَك.

«ولم يجد الكهنة شيئًا يحتجون به عليها، أو يكذبونها. بل حقًا ظاهرًا.

«ثم بعد ذلك قدموها إليهم ضرورة بخوف، وقالوا لها: قد فتشنا. فلم نجد شيئًا يخالف قولك، وما ذكرتِه. وليس صوابًا أن نكتب ما تقولينه ونحن الآن نقسم بالله الضابط الكل أن تعرّفينا: مَن هو ابو يسوع الذي ولدته منه. حتى نكتب اسمه في المسطر والنسبة.

«فامتلأت مريم من روح القدس، وقالت: ما أقول شيئًا بمكر ولا كذب، والله الذي أقسمتم عليّ باسمه شاهد. وبدأت تقول لهم: إن جبرائيل الملاك جاء إليّ، وبشّرني، وشرحت لهم قضية حالها. فبهتوا، وتعجبوا. وطلبوا إلى الله أن يغفر لهم ما قد ظلموها به من القول.

«وقال بعضهم: حقًا إن هذا هو المسيح الذي تنبأت عنه الأنبياء أنه يأتي من بيت داود، ومن بيت لحم، من سبط يهوذا.

فدعوا يسوع. وأقسموه كاهنًا. وكتبوه في النسبة، اليوم والشهر والسنة وقالوا: يسوع ابن الله وابن مريم العذراء الذي ولدته وهي عذراء، إنه كاهن، وهو مستحق.

«وهذا الذي كان من التدبير كما قال لوقا الإنجيلي المتطبب في فصل من إنجيله، أن يسوع لما رجع من الجليل بقوة الروح، خرج خبره في كل الكورة، وكان يُعلّم في مجامعهم، ويمجّده كل أحد. وجاء إلى الناصرة حيث كان تربى. ودخل كعادته إلى مجمعهم يوم سبت. فدفع له الخادم السفر الذي فيه نبوءة إشعياء النبي

المكتوب فيه: «روح الربّ عليّ، ومن أجل هذا مسحني، وأرسلني، لأبشر المساكين، وأنذر المأسورين بالتخلية، والعميان بالنظر، وأرسل المربوطين وأبشر بالسنة المقبولة للربّ». ثم طوى الكتاب، ودفعه للخادم، وجلس. وكانت عيون الحاضرين شاخصة إليه، وبدأ يقول لهم: اليوم، كملت هذه النبوءة في مسامعكم. وكانوا جميعهم يشهدون له، ويتعجبون من كلام النعمة الخارجة من فمه.

«فلما سمع فيلبس النصراني هذا من تاوضوسيوس اليهودي فرح فرحًا عظيمًا.

«ثم قال له (تاوضوسيوس) : إنما عرفت هذا، وتكلمت به لأني من مُعلّمي الناموس وقارئيه، وهو الذي ثبّت في قلبي أن الذي ولدته مريم هو المسيح. وتمت عليه نبوءة يعقوب ليهوذا ولده، لا على غيره. وأنه لا يأتي بعده مسيح آخر. وقد صح لنا أنه الذي تنتظره الأمم، وهو الآتي إلى العالم، المنجي لمن آمن به. ولا يكون بعده رئيس ولا مقدم ولا كاهن في إسرائيل كقول داود النبي عنه في مزمور له: «أقسم الرب ولم يندم أنك الكاهن إلى الأبد كشبه طقس ملشيصداق[١]». فمَن هو من ذرية آدم كاهن يعيش إلى الأبد؟ وداود أيضًا يقول في مزمور له: «مَن هو الإنسان الذي يعيش ولا يعاين الموت[٢]»؟ فهوالمسيح الذي قال عنه داود إنه الكاهن الحي الدائم.

«فأجاب فيلبس وقال له: يجب أن تعلم أن كتمانك هذا الأمر يوجب عليك دينونة في اليوم العظيم. وأنا أوثر أن أظهر الذي سمعته منك للملك المحب لله، وينفذ، ويحضر النسبة المكتوبة في المسطر، لكي يظهر تبكيت اليهود، وقلة إيمانهم.

«فأجاب اليهودي ، وقال للنصراني: أنت تعلم أنك تأتي على نفسك بدينونة العهد الذيّ بيننا. والأمر الذي تظن أنك تظفر به، فلا تقدر عليه، ولا تتمكن منه، لأن اليهود إذا علموا بهذا أثاروا حربًا كبيرة، وتجري أمور يموت فيها خلق كثير، وإذا أُلزموا بإظهار النسبة، وما فيها مكتوب، رأوا أن يحرقوها بالنار، أو يُقتل جميعهم بالسيف، ولا يظهرونها، وتكون أنت المخطئ، وتضيع النسبة بعد ذلك.

(١) مزمور ٩٩ . بالبيروتية ١١٠ .

(٢) مزمور ٨٨ . بالبيروتية ٨٩

والنصارى ما هم محتاجون لها، لأنها مسطر كهنة اليهود وأنتم قد آمنتم به. وعرفتموه من أقوال الأنبياء والرسل وتحققتم أمر دينكم. وهذا المسطر يبكت اليهود إلى الأبدفي بقائه عندهم.

فلماذا تريد إزالته من بينهم؟ فصدّقني يا صديقي إن كل كتاب قرأته من الناموس، ومن نبوءات الأنبياء من أجل المسيح، كانت هذه وهذه نسخة النسبة عندي أقوى بها على إيماني بالمسيح الذي تعبدونه أنتم. وقد ظهر هذا لجميع المعلمين. وأنا أعلم أنك إن ذكرتها ضيعتها.

فقبلت أنا فيلبس منه مع سؤال كثير الا أظهر هذا الأمر. وخوّفني . فأمسكت لأنه استحكم علي بالله، وقال: إن هذه الشهادات تُقنع أنه يسوع المسيح بالتبكيت لليهود، والتثبيت لنا ولأمانتنا.

«أنا فيلبس كتبت هذا، وأحضرته قدام جماعة البيعة، وأساقفة قديسين، ورهبان مصطفين. فلما علموا تعجبوا من ذلك وتحققوا صحة قول اليهودي، وشهادة اليهود للسيد المسيح في الكهنوت، كما قد كُتب في المسطر.

«ثم كتب الأساقفة والرهبان كتبًا بسبب الكهنوت، فوجدوا أو سابيوس بنفلوس يذكر هذا في مواضع كثيرة في سير البيعة، لأن «يسيبوس[١]» أظهره في كتب الهياكل. وذكر هذا يسيبوس أنه نظر يسوع مع الكهنة يدخل الهيكل في وقت التطهير. ثم يذكر أيضًا شهادة لوقا الإنجيلي على ما قدمنا شرحه. ولأجل أن السيد المسيح أيضًا صنع مخصرة من حبل، وأخرج (اللصوص) من الهيكل.

«صحّ هذا. وجميع هذه الشهادات أن قول اليهودي صحيح، وأنه لأجل صداقته مع فيلبس أظهر له هذا الأمر المخفي، وشهد له به.

«فلما تمم اليهودي تاوضوسيوس هذا الكلام الصحيح لصديقه فيلبس تعمّد، وصار نصرانيًا، وخُتم بخاتم المعمودية، وأخذ السرائر المقدسة، وتعجب كل أحد من

(١) لعله يقصد به يوسيفوس المؤرخ اليهودي المعاصر للمسيح.

حسن إيمانه بالسيد المسيح . . . .[١]. وكانت مسرة عظيمة لي أنا فيلبس مع تاوضوسيوس المتعمد. ولما رأى كثير من اليهود ذلك، مع معرفتهم به أنه من معلمي الناموس عندهم، وأنه كان مقدمًا عليهم، وينال منهم كرامات عظيمة، فرفض جميع ذلك ، وصار نصرانيًا، آمن منهم جماعة وتعمدوا، فمجدت الله تعالى أنا فيلبس على ربحي نفس صديقي اليهودي كان، وهو الآن نصراني . .[٢]».

تم نص وثيقة كهنوت المسيح.

* * *

(١ و ٢) تمجيدات للمسيح كإله !! وانظر صور النص.

تاريخ البطاركة

للأنبا ساويرس بن المقفع

أسقف الأشمونين

اعداد وتعليق

الراهب صموئيل السرياني

١٩٨٤

طبعة خاصة للدارسين بمعهد الدراسات القبطية

الغلاف الخارجي والداخلي (طبعة الأصل)
للنسخة التي نقلنا عنها وثيقة كهنوت المسيح

من هو الانبا ساويرس بن المقفع اسقف الاشمونين ؟

هو أحد علماء الكنيسة في القرن العاشر الميلادي الف اكثر
عشرين كتابا طبع وترجم معظمها الى لغات كثيرة و الباقى بعضه
بعضه مفقود . وذكرت قائمة مؤلفاته في كتاب مصباح الظل
ايضاح الخدمة لابي البركات بن كبر كما ذكرت في سيرة البا
لوثاؤس البطريرك (٦٢) .
ولد حوالى سنة ٩١٥ م من والد لقب بالمقفع ومعناه : المنكس الرا
انما أو من كانت يده متشنجة .
كان كاتبا ماهرا في الدولة الاخشيدية وترك مركزه بيتر
اختير اسقفا لايبارشية الاشمونين وهو اقليم : polis
العصر اليوناني وتقع ٨ كم شمال غرب ملوى .
كان يحضر مع البابا ابرام بن زرعة في لقاءاته مع المعز لدين الله ا
عة في المناظرة مع الوزير اليهودي يعقوب بن كلس وصديقه مو
هودي وعاصر معجزة نقل الجبل المقطم . كما كان له لقاءات
ديس الواضح بن الرجا حيث كان يقص عليه قصة الهاشمي (من العرا
ى رأى الجسد في شكل طفل صغير في الصينية فكف عن الهجوا
الكنائس والقاء القربان والكأس حتى آمن بالسر المقدس وكف
افعاله المرذولة .
ذكر الانبا ساويرس انه جمع سير البطاركة من دير ابو مقار و دير نهيا وغيره
دحظ انه كتب السير الاخيرة بالتفصيل حيث انه عاصر عصره

صورة المقدمة التى كتبها الراهب الذى قام باعداد
السيرة التى بيدنا عدد نص وشفاه لهوت المسيح

صورة النص الأصلي الكامل لوثيقة "كهنوت المسيح"

البحر ونجوم السماء فتمم وعدك لنا نحن الخطاة ولا تلتمس منا توبة ولا عملاً بل برأفتك ورحمتك واحسانك انعم بالمعونة على طلبة عبدك الخاطئ الغافل عن وصاياك من كتب هذه السير الجليلة مبتدئا قائلاً

بسم الاب والابن والروح القدس الاله الواحد

نبتدئ بعون الله وحسن توفيقه بكتب سير البيعة المقدسة قال المصنف فيما صنفته انا الخاطئ جمعته من دير القديس ابى مقار ، وديارات الصعيد وتولى نقل بعضه الشماس الديّن ميخائيل بن بدير من لغة القبطى الى العربى مما يأتى ذكره فى موضعه سوى ما كان فى المدينة العظمى وما وجد منها مختصراً من سير الاول منها المسيح عونى ورجاءى وناصرى وخلاصى فاول ذلك ما نقل بدير السيدة بنهيا عن سبب كهنوت المسيح السيد جل اسمه ودخوله الى الهيكل بسلام الله امين امين امين

انه لما كان فى زمان يوليانوس الملك الكافر كان رجل يهودي كاهن لليهود اسمه تاوضوسيوس شيخ مقدم وكان انسان نصرانى صائغ يعرفه وبينه وبينه مودة اكيدة واسم النصرانى فيلبس ولما كان فى بعض الايام وصل فيلبس الى بعض مدن الشام وارسى مركبه فى المينا ليبيع تجارة كانت معه فاجتمع فيلبس باليهودى الكاهن تاوضوسيوس صديقه فوادده وحادثه وقال له يا اخى احب ان تكون نصرانياً لتصح مودتنا وتربح الدنيا والاخرة فاجابه تاوضوسيوس وقال له بمحبة عظيمة قد اهتممت بخلاصى وقد افتكرت فيما اردت اطلاعك عليه ولا ادعك خالياً من معرفة الله تعالى الشاهد على فيما ذكرته لك ولا تشك فى ذلك لاجل اظهارك لى محبتك وازواز ان تحفظ ما اقوله لك فى قلبك ولا تقوله لاحد وهو ان الذى بشر به روح القدس والانبياء هو المسيح الذى انتم تسجدون له وتعترفون انه بحق قد جاء وانا اومن بقلب صادق نقى بغير شك بالجملة لانك اخ وودود ولذلك اظهر لك هذا السر فانه لديك لما قد ظهر لى من محبتك وارادتك لى الخير والجيد فصدقنى الان يا اخى فان افكارى الحداثية ممتى ان اتعمد لانى غير متواضع ولا اصلح لانى عاجز وانا كاهن لهذا الشعب ولى منهم مجد عظيم وكرامات وتقدمة

وقد كسبت منهم ذخائر واموالاً وانا ان خرجت منهم اعدمت ذلك كله وليس شعبي وحده يرفضني بل والنصارى ايضاً لما اشاهد من اليهود اذا تعمدوا وكيف يكونون وسمعت ايضاً انكم تقولون اذا تعمد يهودي كمن عمد حماراً فبأي وجه الان اتعمد وايضاً اني ارى النصارى يخطأون ويغضبون الله ويرفضون الناموس عوض ما يسلكون في الادب المستقيم والحق الذي قد صار لهم واشاهد قوماً اذا رأوهم هكذا ضعفت قلوبهم واماناتهم وتأسوا بهم ولما فتشنا عن الخلاص الذي كان لكم منا عرفنا المسيح بالحقيقة والرسل الذين صاروا لكم معلمين فهم ايضاً من جنسنا وانتم ترفضون ما بشروكم به وما علموكم اياه ولاجل ان بقية الامم لم يتعمدوا ولم يؤمنوا الى الان كذلك انا ايضاً لم اتعمد لاجلٍ مجد العالم والكرامات التي انالها من شعبي ولاجل ما اشاهدكم تفرطون فيه من أمر المسيح لكم ووصيته ووصية تلاميذه لكم به فامتنعت ان يضيع علىّ مجدي وكرامتي واصير مفرطاً مثلكم فيما قد اعطيتموه وهذا الذي يمنعني من المعمودية واكثر جماعتنا اليهود تحققوا حقيقة امر المسيح وعجائبه اكثر منكم غير انهم بعيدون من الخلاص الذي صار لكم والان فانا اطيب قلبك بالاسرار الجليلة عندنا من البدء واظهر ذلك لك لانا عارفون محققون بعجائبه وافعاله اكثر منكم انتم النصارى ونعلم حقاً انه المسيح الذي اتى. فاسمع عني هذا السر كان في الزمان الاول والهيكل مبني باورشليم وكان لليهود عادة ان يقيموا اثنين وعشرين كاهناً في الهيكل امراً لازماً لهم وكان في الهيكل كتاب مكتوب بنسبة كلمن يصير كاهناً واسم ابيه وامه ليعلم انه متبع لامر الله تعالى وكانوا اليهود مستمرين على هذه العادة وكان يسوع المسيح في ذلك الزمان في اليهودية وكانت هذه الكتابة قبل ظهوره فمات كاهن من الاثنين وعشرين كاهناً فاجتمعوا الكهنة وحدهم يختارون من يقدمونه عوضاً منه فلم يتفق رأيهم على من يصلحونه وكانوا يقاومون بعضهم بعضاً وكلما ذكروا احداً لم يرضوا به ثم انهم تقارعوا على ان من وقعت قرعتهم عليه بعد تخبره يصلحوه اذا لم يكن فيه عيب ولا علة ولا في جنسه عيب ولا سبب فاذا وجدوا من له نسب وليس هو عالم رفضوه ولا يقدمونه وهذا كان تدبيراً من الله تعالى لاجل مقاومتهم كيلا يتقدم الا صاحب الكهنوت المستحق لذلك وهو يسوع المسيح. واذا واحد من الكهنة بعد ذلك قد تحرك فيه روح القدس فنار لله تعالى فوقف في وسطهم وقال لنا اليوم عشرة ايام مجتمعين

لم نستطع ان نقدم احداً وانا احقق واعلم ان الخطاب وتطويله لاجل من يقدمه الله تعالى وهذا سبب الخلاف بيننا وفساد رأينا وسوف يظهر ذلك بارادة الله تعالى. فقالوا له ان كنت تعرف احداً فاذكره لنا علانية ونعترف جميعا لك بمنة عظيمة. فقال لهم حتى تعاهدوني الا تردوا ما اقوله وتقبلوا مني وانا اقول لكم من يصلح واعلم انكم لا تقدرون على رده. فلما سمعوا جميع الكهنة ذلك حلفوا له ايمانا وحق وصدق انهم اذا ظهر لهم من هو مستحق يقبلونه ويقدمونه. فلما توثق منهم قال لهم يا اخوتي ان الله تعالى طرح في فكري من هو مستحق لهذا هو يسوع الذي يعرف بابن يوسف لانه رجل كامل في جنسه وجماله وافعاله وله القدرة على الكلام والفعال قدام الله تعالى والناس واعلموا انكم لا تجدون مثله في هذا الشعب الذي ليس فيه رياء ولا علة. فلما سمعوا الكهنة كلامه وعرفوا منه هذا القول بهتوا وتحيروا لاجل الايمان فقالوا له بمكر وظنوا انهم يردوا خطابه. نعم من ذكرت لانا نطلب الجيد لكن ليس هو من قبيل الكهنة والشعب ايضاً يختفون ميلاده لاجل الاطفال الذين قتلهم هيرودس بسببه بالسيف. فاجاب وقال لهم بغير غضب اثبتوا على الحق فاني اهديكم الى الصواب من اجنه لئلا تزوغوا عن الله تعالى فنبعد من الحق ونصدق الكذب لاني اعلم ان اذا فحصنا عن الحق اظهره الله تعالى. فقالوا طيب قلوبنا كما تعلم لاجل ميلاده وقبيله ونحن نساعد فيما تذكره. فقال لهم فتشوا لتعلموا ان في زمان هرون الكاهن قد كان اختلاط من هرون ويهودا وقد شهد داود النبي على ذلك وقد فحصت انا كثيراً لاجل يسوع وقبيله ونسبه فوجدت مريم امه مختلطة بالقبيلتين وهي ايضاً بارة لاجل سر عظيم اخر ومن اجل ذلك انا افرح ان تفتشوا لتعرفوا بالحقيقة صحة قولي وتعرفوا اني عندكم صادق. فظنوا انهم بهذا الفكر يبطلوا امره وبدأوا يفحصون عن الجنس فوجدوا مريم توحد ° القبيلتين فيما قدروا ان يزوغوا عنه لاجل الايمان فبدأوا ان يتخلصوا عن القبيلة وقالوا. رأى اخر نريد نعلم كيف كان ميلاده لا يكون من زنا لان امه لما سلمت ليوسف تكلموا عليها. واتفقوا جميعهم على هذا الكلام. واحضروا مريم امه الى الهيكل وخاطبوها بلطف لتعلمهم السبب في حبلها بيسوع ومن ابن هو. وكان الناموس في ايديهم شاهداً عليهم معها لئلا يظنوا بها سوءاً اذا قالت الحق. وحلفوا لها على ذلك وقالوا لها. ايتها الامرأة هوذا ترينا كلنا مجتمعين لنخبر لا لشر بل لامر انه

تعالى نقبه وقد انقضينا على رأى واحد لاجل ولدك لانا نراه يرضى الله تعالى والناس وهو عجيب عندهم وجماعة يمجدون الله تعالى من اجله لانه فى هذا الزمان عندهم شبه سليمان بن داود الذى رزقه من امرأة اوريا الحثى ولذلك اصطفيناه وتقارعنا عليه لنقيمه كاهناً لاجل صلاحه. ولاجل كلمة واحدة نحن شاكون الى الان ونريد ان نعرف منك من ابن هو او ممن حبلت وولدتيه ليعلم الحق منك لئلا يقال عنك كلام ردى ولا عن الكهنوت فلهذا احضرناك لنعلم الصحيح ولا نكون مشككين ثم تزلين الخصومة فيما بيننا وهوذا الناموس قدامنا ونحن معترفون قدام الله تعالى الذى لايرى انه لا ينالك منا شر ولا تبكيت بل نشكرك كثيراً لانك لم تخف عنا الحق. وكانت تظن ان السر المخفى الذى لولادتها العجيبة اذا اظهرته لهم لا يؤمنون به لاجل عظم الامر عليهم وانه لا تقبله عقولهم ان تلد امرأة من غير رجل او يكون ابن بلا اب. فقالت لهم اذا قلت لكم ما اعرفه تقبلونه منى فانا اظهرت لكم السر فى حملى وولادتى العجيبة ما تؤمنون بكلامى والجيد لى ان اسكت. اما هم فلاجل فكرهم الردى قالوا لها يا مريم بالحقيقة نريد ان نسمع منك ابن من هو فقد مات ابوه يوسف وقلبنا يشك فيه ان كان هو اباه ولهذا طلبنا منك القول الصحيح وتكف كل خصومة لاجل ولادتك ونحن نسئلك ان تظهرى لنا هذا السر بالحقيقة بغير شك ولا تخشى من احد لانا ما يخفى عنا الصواب ومتى كتمت الامر الناموس يحكم عليك باللعنة الى الابد. قالوا لها هذا وشبهه فاضطربت مريم قائلة اما قلقت من كل وجه لاجل الذى ولدته الغير مدرك وهوذا اليوم حتى اظهره وانا الان عارفة بالولادة التى تلزمونى باظهارها واذا سمعتموها ما تصدقونها ولا تقبلون ما اقوله لكم ويوسف الذى قلتم مات كان قد شك فى حبلى به مثلكم سألنى قائلاً ما الذى حل بك فحلفت له ان لم يمسنى رجل قط فلم يصدقنى حتى ظهر له ملاك الله وطيب قلبه وليس هو حى فيشهد لى عندكم بصحة ما قلته لان الناموس يقبل شهادة شاهدين اكثر من شهادة واحد فانا اعترف قدام الله وهذا الناموس انى ولدت ابنى يسوع بلا رجل وانا اذكر لكم كيف كان حبلى به. فقالوا لها ان الامر ظاهر ونحن نعترف قدام الله وناموسه المقدس انك بالحقيقة ولدت هذا المولود وهذا شىء غير مخفى لان امرأة تقبل الحبل والاوجاع والم الولادة هى التى تفرح بولادتها دون غيرها فقد اعترفت الان بالحق انك ولدتيه

ونحن لنا زمان ما خاطبنا احداً والآن نحن جلوس نخاطب امرأة وقد قلنا لك انا ما نبكتك اذا قلت ما يجوز ان نسمعه منك ونقبله، وكانت مريم منكرة حائرة خائفة مطرقة بوجهها على الارض باكية. فقالت الان انا عالمة انى ولدت يسوع كما تقولون وانا معترفة بذلك فاما قولكم ان رجلاً سرقنى فان خاتم عذرتى يشهد لى بصحة قولى لكم، فلما سمعوا هذا اضطربوا وقالوا هذا ما لا نقبله لانه كلام عجيب وكيف نقدر ان نكتب اسم ابنك فى النسبة بغير اسم ابيه ومن اى سبط هو كما جرت العادة، فلما سمعت مريم هذا من الكهنة قالت لهم قد قلت لكم من الاول انى ما اعرف شيئاً مما قلتم فافعلوا ما اردتم لانى ما اقول لكم ما لم يجر على. فلما قالت هذا لم يرادها احد منهم بل تحركوا بأمر الله واتفقوا واحضروا الثقات عندهم من النساء القوابل وسألوهم باجتهاد وحرص ان يكشفن أمرها ان كانت عذراء كما قالت قدام الله والناموس. فكشفنها وقلن لهم حقاً قالت هى عذراء كما قالت تامة لم تنفك عذرتها عند ولادتها يسوع كما تعرفون جميعكم انه ولد شيئا، ثم انهم فتشوا من جيرانها ومعارفها لعلهم يجدون احداً يقاوم الولادة فما وجدوا بل كل احد مصدق لولادتها وزمانها الذى ولدت فيه الولاد العجيب بالسر الذى لا يدرك. ولم يجدوا الكهنة شيئاً يحتجون به عليها او يكذبونها بل حقاً ظاهراً. ثم بعد ذلك قدموها اليهم ضرورة بخوف وقالوا لها قد فتشنا فلم نجد شيئاً يخالف قولك وما ذكرتيه وليس هو صواب ان نكتب ما تقولينه ونحن الآن نقسم بالله الضابط الكل ان تعرفينا من هو ابو يسوع الذى ولدتيه منه حتى نكتب اسمه فى السطر والنسبة. فامتلأت مريم من روح القدس وقالت ما اقول شيئاً بمكر ولا كذب والله الذى اقسمتم على باسمه شاهد. وبدأت تقول لهم ان جبرائيل الملاك جاء الى وبشرنى وشرحت لهم قضية حبلها فبهتوا وتعجبوا وطلبوا الى الله ان يغفر لهم ما قد ظلموها به من القول وقال بعضهم حقاً ان هذا هو المسيح الذى تنبت عنه الانبياء انه يأتى من بيت داود ومن بيت لحم من سبط يهوذا، فدعوا يسوع واقسموه كاهناً وكتبوه فى النسبة اليوم والشهر والسنة وقالوا يسوع ابن الله وابن مريم العذراء الذى ولدته وهى عذراء انه كاهن وهو مستحق. وهذا الذى كان من التدبير كما قال لوقا الانجيلى المنطب فى فصل من انجيله ان يسوع لما رجع من الجليل بقوة الروح خرج خبره فى كل الكورة وكان يعلم فى

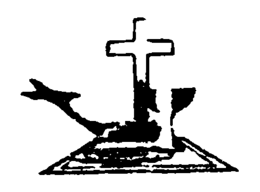
مجامعهم ويمجده كل احد وجاء الى الناصرة حيث كان تربى ودخل كعادته الى مجمعهم يوم سبت فدفع له الخادم السفر الذى فيه نبوة اشعيا النبى المكتوب فيه روح الرب على ومن اجل هذا مسحنى وارسلنى لابشر المساكين وانذر المأسورين بالتخلية والعميان بالنظر وارسل المربوطين وابشر بالسنة المقبولة للرب ثم طوى الكتاب ودفعه للخادم وجلس وكانت عيون الحاضرين شاخصة اليه وبدء يقول لهم اليوم كملت هذه النبوة فى مسامعكم وكانوا جميعهم يشهدون له ويتعجبون من كلام النعمة الخارجة من فمه فلما سمع فيلبس النصرانى هذا من تاوضوسيوس اليهودى فرح فرحاً عظيماً ثم قال له انما عرفت هذا وتكلمت به لانى من معلمى الناموس وقارئيه وهو الذى ثبت فى قلبى ان الذى ولدته مريم هو المسيح وتمت عليه نبوة يعقوب ليهودا ولده لا على غيره وانه لا يأتى بعده مسيح اخر وقد صح لنا انه الذى تنتظره الامم وهو الآتى الى العالم المنجى لمن آمن به ولا يكون بعده رئيس ولا مقدم ولا كاهن فى اسرائيل كقول داود النبى عنه فى مزمور ١٠٩[١] اقسم الرب ولم يندم انك الكاهن الى الابد كرتبة ملكيصداق فمن هو من ذرية آدم كاهن يعيش الى الابد وداود ايضاً يقول فى مزمور ٨٨[٢] من هو الانسان الذى يعيش ولا يعاين الموت فهو المسيح الذى قال عنه داود انه الكاهن الحى الدائم فاجاب فيلبس وقال له يجب ان تعلم ان كتمانك هذا الامر يوجب عليك دينونة فى اليوم العظيم وانا اوثر ان اظهر الذى سمعته منك للملك المحب لله وينفذ ويحضر النسبة المكتوبة فى السطر لكى يظهر تبكيت اليهود وقلة ايمانهم فاجاب اليهودى وقال للنصرانى انت تعلم انك تأتى على نفسك بدينونة العهد الذى بيننا والامر الذى تظن انك تظفر به فلا تقدر عليه ولا تتمكن منه لان اليهود اذا علموا بهذا اثاروا حرباً كبيراً وتجرى امور يموت فيها خلق كثير واذا الزموا باظهار النسبة وما فيها مكتوب رأوا ان يحرقوها بالنار او يقتل جميعهم بالسيف ولا يظهرونها وتكون انت المخطئ وتضيع النسبة بعد ذلك والنصارى ما هم محتاجين لها لانها سطر كهنة اليهود وانتم قد آمنتم به وعرفتموه من اقوال الانبياء والرسل وتحققتم امر دينكم وهذا السطر فهو يبكت اليهود الى الابد فى بقاء عدمهم فلما ذا تريد ازالته من بينهم فصدقنى يا صديقى ان كل كتاب قرأته من الناموس ومن نبوات الانبياء من اجل المسيح كانت هذه وهذه نسخة النسبة

---

[١] مزمور ١٠٩ . بالعظم اليهودى ١١٠
[٢] مزمور ٨٨ وبالعبرانية ٨٩ .

عندى اقوى بها على ايمانى بالمسيح الذى تعبدونه انتم وقد ظهر هذا لجميع المعلمين وانا اعلم انك ان ذكرتها ضيعتها فقبلت انا فيلبس منه مع سؤال كثير ان لا اظهر هذا الامر وخوفنى فامسكت لانه استحكم على الله وقال ان هذه الشهادات تقنع انه يسوع المسيح بتبكيت اليهود وتثبت لنا ولامانتنا انا فيلبس كتبت هذا واحضرته قدام جماعة البيعة واساقفة قديسين ورهبان مصطفين فلما علموا تعجبوا من ذلك وتحققوا صحة قول اليهودى وشهادة اليهود السيد المسيح فى الكهنوت كما قد كتب فى السطر ثم كتبوا الاساقفة والرهبان كتباً بسبب الكهنوت فوجدوا اوسابيوس بنفلوس يذكر هذا فى مواضع كثيرة فى سير البيعة لان يبيوس اظهره فى كتب الهياكل وذكر هذا يبيوس انه نظر يسوع مع الكهنة يدخل الهيكل فى وقت التطهير ثم يذكر ايضاً شهادة لوقا الانجيلى على ما قدمنا شرحه ولاجل ان السيد المسيح ايضاً صنع مخصرة من حبل واخرج من الهيكل ° صح هذا وجميع هذه الشهادات أن قول اليهودى صحيح وانه لاجل صداقته مع فيلبس اظهر له هذا الامر المخفى وشهد له به فلما تمم اليهودى تاوضوسيوس هذا الكلام الصحيح لصديقه فيلبس تعمد وصار نصرانياً وختم بخاتم المعمودية واخذ السرائر المقدسة وتعجب كل احد من حسن ايمانه بالسيد المسيح جلت قدرته وكانت مسرة عظيمة لى انا فيلبس مع تاوضوسيوس المتعمد ولما رأى كثير من اليهود ذلك مع معرفتهم به انه من معلمى الناموس عندهم وانه كان مقدماً عليهم وينال منهم كرامات عظيمة فرفض جميع ذلك وصار نصرانياً آمن منهم جماعة وتعمدوا فمجدت الله تعالى انا فيلبس على ربحى نفس صديقى اليهودى كان وهو الآن نصرانى والمجد للسيد يسوع المسيح مع الاب والروح القدس الآن وكل اوان والى دهر الداهرين امين امين امين.

—



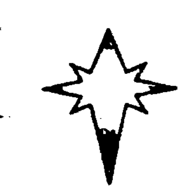
تاريخ البطاركة

للأنبا ساويروس ابن المقفع أسقف الأشمونين

الجزء الأول

من القديس مارمرقس الرسول

حتى البابا يوساب (٥٢)

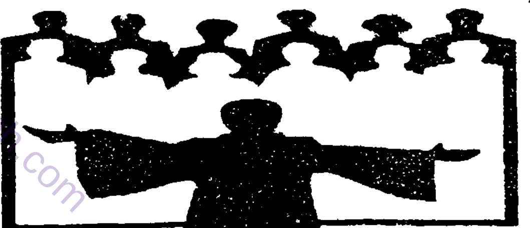


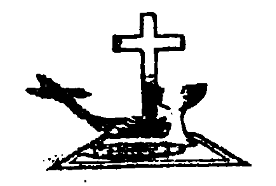
إعداد

الأنبا صموئيل

أسقف شبين القناطر وتوابعها

الغلاف الخارجي للنشرة الجديدة الصادرة سنة ١٩٩٩
كما في تاريخ البطاركة





تاريخ البطاركة

للأنبا ساويروس ابن المقفع أسقف الأشمونين

الجزء الأول

من القديس مارمرقس الرسول

حتى البابا يوساب (٥٢)

الغلاف الداخلي للنشرة الجديدة الصادرة سنة ١٩٩٩
كتاب تاريخ البطاركة

إعداد

الأنبا صموئيل

أسقف شبين القناطر وتوابعها

الدليل السابع

وثيقة ابن سَبّاع

عن السر في صوم الميلاد

ونقتبس أيضًا شهادة ثانية من التراث القبطي.

إنها وثيقة ابن سَبّاع عن السر في صوم الميلاد.

لكن من هو ابن سباع؟

ابن سباع من علماء الأقباط في القرن الثالث عشر حسب إشارته في الفصل الثالث والثلاثين من كتابه «الجوهرة النفيسة» عند شرحه للصلاة الربية حيث قال:

«. . . حرّضني نقصي أن أشرح هذه الألفاظ قدر استطاعتي للمصلّي طبقًا لأقوال الآباء من الجيل الأول المسيحي إلى جيلنا هذا الثالث عشر للتجسد الإلهي . . »[١].

ويُدعى حسب عبارتهم «القبطي الأرثوذكسي العلامة : يوحنا بن زكريا المعروف بابن سباع».

وقد ألف ابن سباع كتابًا دعاه «الجوهرة النفيسة في علوم الكنيسة» وهو الكتاب الذي أورد فيه نص الوثيقة التي نعرض لها في هذا السياق. وتتعلق بالسر في صوم الميلاد وتاريخه، وصلِته بمعاناة مريم من اتهام خطيبها وقومها لها بارتكاب الفاحشة.

وقد اهتم الأقباط بنشر كتابه، والاستشهاد به.

كما اهتم أيضًا بعض الباحثين بإخراج نشرة محققة للكتاب على بعض المخطوطات.

(١) الجوهرة النفيسة: ص ٥٦

وقام بعض المستشرقين بترجمة فرنسية للفصول الاثنين والخمسين الأولى منه.

وقال مؤلف مسيحي في ذكر مضمون الكتاب وأهميته: «وكتاب» الجوهرة النفيسة في علوم الكنيسة» كتاب شامل يجمع في ١١٣ فصلاً أصنافًا شتى من المعلومات الدينية الخاصة بالكنيسة القبطية. فمن الذات الإلهية وصفاتها والخلق، إلى أخبار الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، إلى الكنيسة وبنيانها وزينتها وخُدّامها. إلى الفضائل المسيحية والصلوات والقداس والأعياد السنوية والإكليروس والعلمانيين وواجباتهم إلخ . . .

«ومن أبرز ما فيه من الناحية اللاهوتية البابان الثالث والثلاثون، والرابع والثلاثون، في شرح صلاة «أبانا الذي «و» الأمانة الأرثوذكسة». أما من الناحية الليتورجية فهناك وصف مسهب لكل ما يتعلق بالقداس الإلهي، والأعياد السنوية، وجمعة الآلام، مما يجعل من «الجوهرة» مرجعًا من أقدم المراجع العربية للطقوس القبطية وأهمها»[١].

والكتاب بذلك يشغل موقعًا متقدمًا بين المراجع القبطية يجعل النص الذي ننقله منه موضع اعتبار كبير، خاصة وأن الكتاب قد مضى عليه سبعة قرون دون طعن، أو اعتراض عليه من جانب كنيستهم[٢].

والنشرة التي نحيل إليها، وننقل عنها، غير مؤرخة، ولا تُذكر بها دار النشر، أو المطبعة، التي صدرت عنها، وتشمل ١١٥ مئة وخمسة عشر بابًا كاملة خلاف المقدمة، مع أنه يذكر في تلك المقدمة أن عدد الأبواب ١١٢ مائة وثلاثة عشر بابًا فقط. وذلك حيث يقول: « . . . فجمعت هذا الكتاب، وسميته «بالجوهرة النفسية في علوم الكنسية» في عدة معان من العتيقة والحديثة، وقسمته إلى مائة وثلاثة عشر بابًا كما تراها في فهرس الكتاب[٣]».

---

(١) الأب د. قنواتي: المسيحية والحضارة العربية ص ٢٢٣ .

(٢) انظر كتابنا : عقائد النصارى الموحدين ص ١٥٨ - ١٥٩ دار الأنصار في التعريف بابن سباع وكتابه.

(٣) الجوهرة : ص ٣

والفهرست الذي يحيل إليه غير موجود بنص الكتاب، والذي يوجد هو فهرست حديث في آخر الكتاب.

على أية حال فهذه الطبعة التي نحيل إليها يبدو أنها مصورة عن نشرة قديمة صدرت في بداية هذا القرن (العشرين) تتميز بإحاطة النص بإطار كامل، كما هو الحال في أغلب مطبوعات ذلك الزمن. والنشرة عير مقرونة بدراسة أو تحقيق.

وهي مع ذلك عين النشرة التي تتفق معها إشارات الباحثين الأقباط وإحالاتهم في إيراد النص، وتحديد موضعه، وفي مقدمتهم رأس الكنيسة القبطية الحالي في كتابه عن مرقس الرسل [١].

أهمية نص ابن سباع:

نحن نعتبر نص ابن سباع وثيقة هامة ونادرة عن السر في صوم عيد الميلاد. وما يذكره من تعرض مريم للاتهام من خطيبها الذي كان يعايرها، وما ينطوي عليه هذا الخبر من أنها ظلت حتى وضعت مولودها دون زواج من يوسف أو غيره، ودلالة ذلك في دحض رواية متى الذي اتخذ جانب يوسف، وزيّف حقائق الحمل العذراوي وملابساته، وفي مقابله يدعم رواية لوقا بكونها ظلت على قيد الخطبة حتى ولدت يسوع.

كما أن ابن سباع يذكر البابا السكندري الذي أمر بهذا الصوم، والمناسبة التي دفعته إلى ترتيب ذلك[٢]. ومن ثم فالوثيقة لها أصل تاريخي ديني يرجع الفضل إلى ابن سباع في ذكره، والإعلام به.

(١) انظر الفصل التاسع منه.

(٢) انظر ترجمة هذا البابا في الجرء الثالث من المجلد الثاني من تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية.

نص وثيقة ابن سبّاع

في الإعلام بسر صوم الميلاد

قال ابن سباع: «وصوم الميلاد المجيد الذي ترتّب في أيام البابا الأنبا خريستودولوس السادس والستين من باباوات الأسكندرية (سنة ٧٦٣ للشهداء) سببه هو أن السيدة الطاهرة أم النور مر تمريم البتول كانت في الشهر السابع والنصف من حملها الطاهر بالبشارة المملوء خلاصًا للعالم قد كثرت تعييراتها من يوسف النجار وغيرها بكونها كانت تدّعي «البكورية» وقد وُجدت حُبلى. فكانت تتفكر دائمًا في التعيير. ولذا صامت شهرًا ونصفًا باكية حزينة على ما تسمعه من التعيير. ولأنها أيضًا لم تعلم ما ستلده»[1].

ويكشف هذا النص عن حقائق هامة:

منها: أن مريم ظلت حتى الشهر السابع والنصف من حملها تعاني من عدم تصديق خطيبها يوسف لها في دعواها البراءة من أي علاقة برجل.

ومنها: أنها صامت بعد ذلك شهرًا ونصفًا باكية حزينة على ما تلقاه من التعيير والاتهام من يوسف وغيره حتى وضعت مولودها وهو لا يستجيب لها، رغم هذا الاستعطاف الشديد من طريق الصوم، بما يؤكد رواية لوقا من أنها ظلت حتى ولادة يسوع على قيد الخطبة فقط دون زواج.

كذلك فإن هذا النص لابن سباع يلتقي أيضًا مع رواية لوقا في خلوهما معًا من دعوى وقوع أي بشارة ليوسف بشأن الذي تحمله مريم في أحشائها. وهذا يحقق تكذيبًا صريحًا لرواية متى في دعواه بأن يوسف تلقى بشارة بذلك منذ أدرك بدايات الحمل، وأنه لفوره تزوج بها، ونقلها إلى بيته، حتى وضعت مولودها، فسماه، ونسبه إليه.

كما أن هذا النص يقدم سببًا مقدسًا وراء السر في صوم الميلاد يتعلق بما لقيته مريم من اتهام أثناء الحمل وبعده من يوسف وغيره. بما يعني أن هذا النص يرجع

---

(١) الجوهرة: ص ٥٤ - ٥٥ .

إلى تقليد قديم بهذا المضمون عند المسيحيين رغم إنكارهم لذلك. وهو من ثم ملزم لهم بالكشف عن سر صوم مريم لذلك الشهر والنصف أثناء حملها.

وأخيرًا، فربما يلتقي خبر صوم مريم هذا كرغبة منها في الهلاك بسبب ما كانت تلقاه من خزي وعار من يوسف وقومها، بما ذكره القرآن من أنها وقت الولادة كانت تتمنى الموت.

﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾[١].

كما يدل أيضا على السبب في كون القرآن يذكر الأمر لها أن تطعم وتشرب:

﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾.

﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾.

﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾[٢].

فما الذي يجعل من امرأة في موضع مريم تصوم، وتتمنى الموت، لو صحت رواية متى أن يوسف تزوج بها قبل أن تلد، وطمأنها على تصديقه لها، وتبنيه لولدها ونسبته إليه؟!

إن وثيقة ابن سباع تحتل مكانها في تكذيب رواية متى بين سائر الوثائق والنصوص التي قدمناها على ذلك، بما يؤكد رجحان الخبر القرآني ودحض دعوى معارضيه.

* * *

(١) مريم : ٢٣

(٢) مريم : ٢٤ - ٢٦

الغلاف الخارجي لكتاب الجوهرة النفيسة

الجوهرة النفيسة

في

علوم الكنيسة

تأليف

العلامة يوحنا بن زكريا

المعروف بابن سباع



الغلاف الداخلي لكتاب الجوهرة النفيسة

كتاب

الجوهرة النفيسة

في

علوم الكنيسة

تأليف

القبطي الارثذوكسي العلامة يوحنا ابن زكريا

المعروف بابن سباع

المسيحيين وتجوع وتعطش فيه اختياريا ·

وقد حددوا اباؤنا على كل معتمد صوم هذين اليومين ومن لا يصومهما ان كان كاهنا يقطع من رتبته متى ثبت عليه ذلك وان كان علمانيا ينفى من البيعة الا اذا كان مريض الجسد ولا يمكنه صوم هذين اليومين لاخرهما ولا الى الساعة التاسعة من نهارهما · (والقصد بتسع ساعات دون غيرها من العدد اشارة الى عدد الطغمات السمائية التسعة المذكورة سابقا · التي يتخطاها المؤمن الحقيقي صاعدا ويتجاوزها الى حيث يصل الى المرتبة الخالية من الملائكة التي سقطت وغمرها بالتسابيح والتقديس ويصل بعدها الى الراحة الدائمة) فهكذا بعد صوم التسع الساعات يصل الانسان الى الراحة الزمنية بالفطر ·

ولم ترخص الآباء بفطر هذين اليومين مطلقا ما دامت الشمس طالعة لسبب آخر وهو انه في هذين اليومين يكون اما الميلاد واما الظهور اي الغطاس فجعلوا يوما منها صياما قبل حضور العيد وذلك لمعنيين احدهما ان يصير للعيد بهجة في النفس لاجل الفطر بعد الصوم · وثانيهما تعويض احد اليومين (الاربعاء والجمعة) اذا جاء العيد في احدهما حتى لا يقع تفريط في صوم هذين اليومين بالمرة ·

اما صوم ثلاثة ايام يونان فهذا تذكار واشارة الى التوبة التي اجراها اهل نينوى لرفع غضب الله وسخطه عنهم وغفران خطاياهم ·

وصوم الميلاد المجيد الذي ترتب في ايام البابا الانبا خرستودولو السادس والستون من باباوات الاسكندرية (سنة ٧٦٢ للميلاد) سببه هو ان السيدة الطاهرة ام النور مريم البتول كانت في الشهر السابع ونصف من حملها الطاهر

العبارات التي تحتها خط تمثل نص وثيقة ١ سماع عن صوم الميلاد

بالبشارة المملوء خلاصاً للعالم قد كثرت تعييرتها من يوسف النجار وغيره بكونها
كانت تدعي البكورية وقد وجدت حبلى فكانت تتفكر دائماً في التعيير ولذا
صامت شهراً ونصفاً باكية حزينة على ما تسمعه من التعيير ولانها ايضاً لم تعلم ما
ستلده . فنحن بما انه ليس لنا في مذهبنا واعتقادنا وكنيستنا سوى هذه
الاصول وهذه الاعمدة الثلاثة التي هي السيد له المجد والسيدة الطاهرة مرتمريم
والآباء الرسل . فصام السيد فقد صمنا امتثالا اتعاليمه لنا . صامت السيدة شهر
ونصف (في كيهك) صمنا مثلها . وقد صام آباؤنا الرسل بعد حلول الروح القدس
عليهم صمنا لصومهم .

فالصوم اذاً واجب وضروري لعدة اسباب منها (١) ان فيه صحة الطبيعة
من العلل المنغمسة فيها (٢) يبقي الطبيعة على النهوض . لان بعد الاكل يرتخي
الانسان واعضاءه فلا يكون عنده قوة لا لشغل الجسد ولا لشغل الروح (٣)
الاحتماء بالروح للصوم كونه يترك طبيعته البشرية ويتطبع بطباع الملائكة عادمة
الاكل . (٤) لكي نماثل الآباء الاولين الذي كانوا مشتغلين بروح الله الذي
اشغلها به عن الاكل والشرب وهم ابراهيم وموسى وايليا واليشع والانجيليين
والرسل واخيراً مخلصنا له المجد .

الباب الثالث والثلاثون

« في ذكر مائلة السيد المسيح بالصلاة التي هي ابانا الذي في السموات وشرحها »

ما الصلوة فقال المخلص : « صلوا في كل حين ولا تملوا » (١) وقد انفرد

---

(١) لو ١٨ : ١ ، ١ س ٥ : ١٧

العبارات التي تحتها خط تمثل نص وثيقة ابن سباع عن صوم الميلاد .

الدليل الإضافي

شهادة التراث الإسلامي

وليس التراث الإسلامي بالكم المهمَل، أو عديم القيمة. لنتجاهله في هذا السياق، بل هو بالأحرى أجدر أن يكون موضع طلب واعتبار، لأنه كان بمثابة المصبّ الذي انتهت إليه روافد الثقافتين اليهودية والنصرانية، سواء من حيث الأخبار والمعتقدات أو من حيث الخيال والأساطير.

وقد أثر كل ذلك تأثيرًا كبيرًا على كثير من المفاهيم والتصورات الإسلامية إذ كان مَعينًا لا ينضب للإسرائيليات التي تسللت إلى دواوين الحديث، وكتب التفسير. والتاريخ، والقَصص الديني عند المسلمين كما بيناه في كتابنا عن الإسرائيليات.

ومن ثم فإنّ تجاهُل هذا التراث هو تجاهل لمصب حضاري بالغ الأهمية، وإهدار لمصدر رئيس من مصادر التراث الإنساني، وحَيْدة عن شِرعة الحق والإنصاف.

وقد قدم التراث الإسلامي شهادته عن اتهام اليهود على لسان المؤلفين المسلمين مما بلغهم من اليهود حول هذه القضية.

ونكتفي هنا بذكر ثلاث شهادات لهم بهذا الشأن.



أولاً: شهادة السموأل المغربي عن اليهود بحمل مريم من خطيبها سفاحًا

وأول من نستشهد بنقله هو الحبر اليهودي «شموائيل بن يهوذا بن آبوان» الذي أسلم، وتسمى «السموأل بن يحيى المغربي». وكان رياضيًا بارعًا ترك في الرياضيات بعض المؤلفات المبتكرة، كما كان طبيبًا متفوقًا، ودارسًا للفلسفة والآداب العربية.

وقد كان يمتهن الطب كحرفة أساسية لرزقه ومعيشته، وتابعه فيه بنوه من بعده.

وقد درس هذا الحكيم ديانته اليهودية دراسة دقيقة ومحققة لسنوات طويلة، ثم درس الإسلام، وتعرف على أصوله وعقائده. وانتهى به السعي إلى اعتناقه بعد بحث وتمحيص، واقتناع تام بنبوة محمد، وحقّية هذا الدين وله في ذلك قصة طريفة[١].

وقد توّج إسلامه بتأليف رسالة في الرد على اليهود، ساق فيها الأدلة على نبوة محمد، وبشارة التوراة به، سماها: بذل المجهود في إفحام اليهود»[٢].

ورغم أن الرسالة صغير الحجم، يغلب عليها الإيجاز والإجمال، إلا أنها دقيقة الفكرة، تتسم بالأمانة في كل ما يورده من أخبار أو نصوص.

وكاتب وفاة السموأل سنة ٥٧١ هـ - ١١٧٥ م.

وقد حكى السموأل عن اليهود، وكان منهم قبل إسلامه كما ذكرنا، أنهم يقولون عن المسيح : «ولده يوسف النجار سفاحًا»[٣].

---

(١) انظر هذه القصة في كتاب «إفحام اليهود» نشرة د. محمد عبد الله الشرقاوي ١٩٨٦ دار الهداية .

(٢) المرجع السابق ١٠ .

(٣) نفس المرجع ص ١٠٣ . ونشرة الشامي : إفحام اليهود، ص ٢٩ .

وهذا يعني الاتهام المباشر لمريم بارتكاب الفاحشة.

على أن هذه المقولة لا تشمل جميع اليهود المناوئين لمريم والمسيح، بل هي في الواقع تخص فريقًا منهم، ولعل ذلك الفريق أن يكون قد اندفع إلى تلك الدعوى. أو هذا الاتهام، عندما رأى اقتران يوسف بمريم بعد الحمل، أو بعد ولادة يسوع، فظنوا هذا الظن، وقذفوها به.

ولعل هذا الخبر يوافق رواية لوقا في قوله:

«ولما ابتدأ كان له نحو ثلاثين سنة، وهو على ما كان «يُظَنُّ» ابن يوسف بن هالي . . .»[١].

فإدخال «الظِنة» في انتساب يسوع إلى يوسف مبرر كاف لأصحاب هذه المقولة



(١) ص ٣ : ٢٣ .

ثانيًا: شهادة الخزرجي عن اليهود بحمل مريم من عسكري روماني

وفي نفس الفترة التي وضع فيها الحكيم السموأل كتابه في إفحام اليهود، كان بالأندلس مسلم آخر من قرطبة يضع كتابًا في تفنيد دعاوى النصرانية ضدّ الإسلام، لأبناء طليطلة الذين التجأوا إليه يطلبون معونته في الإجابة على أباطيل قس من الإسبان اعتاد أن يحرجهم بأسئلته الدينية مستهدفًا تشكيكهم في الإسلام، وتحبيب ملته إليهم.

هذا المسلم القرطبي كان يُدعى أبا عبيدة الخزرجي، وهو: أبو جعفر أحمد بن عبد الصمد بن أبي عبيدة . . الخزرجي الساعدي، نسبة إلى سعد بن عبادة الصحابي.

وكان أبو عبيدة من فقهاء الأندلس.

وقد وُلد أبو عبيدة بقرطبة سنة ٥١٩ هـ - ١١٢٥ م وتوفي بفاس سنة ٥٨٢ هـ - ١١٨٧ م بعد أن كُفَّ بصره[١].

أما كتابه في الرد على النصارى فيسمى : «مقامع الصلبان، في الرد على عبدة الأوثان».

وهو كتاب جيد، يتسم باطلاع على كتب الخصم، وقد صار مرجعًا معتبرًا لأكثر مَن كتبوا بعده في هذا الموضوع من المتقدمين أمثال: «القرطبي» صاحب: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، وابن قيّم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١ هـ - ١٣٥٠ م في كتابه هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى وغيرهما من المؤلفين المسلمين، رغم عدم ذكرهم لمصادرهم،

(١) أبو عبيدة الخزرجي : بين الإسلام والمسيحية ط ٢ ص ٧؛ نشرة د. محمد شامة لكتاب الخزرجي المذكور. مكتبة وهبة.

ومنها هذا المصدر الذي استمدوا منه دون إشارة واحدة إلى اسم الكتاب. أو اسم مؤلفه!

وقد جاء في هذا الكتاب إشارة إلى معتقد اليهود بشأن مريم على النحو التالي:

- فمنهم من يقول: إنه (أي المسيح) كان رجلاً منهم. يعرفون أباه وامه، ويتهمونهما بالزنا - وحاشا لله قاتلهم ، انى يؤفكون - ويسمون أباه: «البنديرا» الرومي، وامه «مريم» الماشطة. ويزعمون ان زوجها يوسف بن يهوذا وجد البنديرا عندها على فراشها، أو شعر بذلك، فهجرها، وأنكر ابنها»[1].

وهذا أيضًا اتهام مباشر لمريم من اليهود. بالغ الصراحة والوضوح.

وهذه الشهادة هي نفس القصة التي حكاها كلسوس من قبل في كتابه الآنف ذكره الذي انتقد فيه اليهودية والنصرانية، وعرّض فيه بيسوع ووالدته، وذكر هذه القصة على لسان اليهود، كما تعرض لذكرها أيضًا أوريجانوس في رده على كلسوس المذكور، ولم ينكر قول اليهود بها، ولكن حاول الدفاع عن الولادة العذراوية للمسيح.

وهذه الشهادة التي نقلها هذا المؤلف المسلم رغم إيجازها، تدل على أمانة الإسلاميين، وتحفظهم من التغيير والتبديل فيما ينقلونه، ويشهد لهذا الخبر ويعضده ما جاء في وثيقة «كهنوت المسيح» على لسان مريم من شك يوسف النجار في سبب حملها، ثم ما جاء أيضًا بوثيقة ابن سباع من تعيير يوسف وبني قومها لها في أسباب حملها، واتهامهم إياها بأنها غير عذراء، وما جاء قبل هذين من إشارات في إنجيل يوحنا، وإنجيل يعقوب الأبوكريفي، وفي التلمود.

(١) نفس المرجع ص ٢٨٦ - ٢٨٧ . وانظر الإعلام للقرطبي ص ٢٥٢ . وهداية الحيارى - هامش ذيل الفارق ص ١٠١

أما هذا «البنديرا» الرومي الذ نسبوا إليه العلاقة بمريم فإنما هو تصحيف للاسم Panthera ، وينطق: پانثيرا، أو بنتيرا، أو فنتيرا. وهو عسكري روماني اتهموا مريم بعلاقة غير شرعية معه كان من ثمرتها يسوع حسب الذي جاء في تلك القصة.

* * *

ثالثًا: شهادة الخزرجي عن اليهود
بأن يسوع مولود غير شرعي

كذلك نقل إلينا أبو عبيدة الخزرجي شهادة أخرى لليهود بأن يسوع كان يُنبز بينهم بألقاب تدل على أنه مولود غير شرعي، فيقول:

« . . . ويذكرون أن السبب في استفاضة اسم «الزنيم»[١] عليه أنه كان مع معلمه يوشع بن يوحنا، وسائر التلاميذ، في سفر، فنزلوا موضعًا. وجاءت امرأة من أهله، وجعلت تبالغ في كرامته، فقال يوشع:

«ما أحسن هذه المرأة ؟ - يريد فِعالَها - ».

«فقال عيسى - بزعمهم: لولا عمش في عينيها».

«فصاح يوشع، وقال له: يا «ممزار» وترجمته «يا زنيم» أتزني بالنظرة؟ وغضب عليه غضبًا شديدًا، وعاد إلى بيت المقدس، وصرح باسمه، ولعنه في أربعمائة قرن»[٢].

وتكشف هذه الرواية العجيبة أن اتهام مريم، والتشهير بابنها أنه «نغل» أو مولود من زنا كان أمرًا شائعًا بين اليهود في زمنه، وفي مرحلة الطلب على التخصيص. وكون معلمه يدعوه بهذا اللقب «ممزار»، ثم يلعنه على رؤوس أربعمائة فرد من اقرانه منبوزًا بهذا اللقب البذئ، لا يعني أن معلمه اختلق هذا، وإنما يعني من باب أولى أنه كان قولاً شائعًا عنه في زمنه، كحقيقة لا جدال فيها. وإلا كان المعلم مرتكبًا لجرم عظيم يدينه عليه القانون والشريعة معًا.

وواضح من الخبر أن يسوع لم يحتج، ولم يشتك على معلمه، وهو ما يعني صمته، وإذعانه للأمر الواقع بشأنه.

---

(١) الزنيم: تعريب للفظ العبري «ممزار» أي النغل أو ولد الزنا.

(٢) كتاب أبي عبيدة : ص ٢٨٧ ، وانظر معه : الإعلام للقرطبي : ص ٢٥٣، هداية الحيارى - ذيل الفارق ص ١٠١ .

ولعل أفضل تعليق على هذه الشواهد، وما تثبته من اتهام اليهود لمريم وتشنيعهم على ابنها بسبب ذلك، هو رد العلامة القرافي صاحب «الأجوبة الفاخرة في الرد على الأسئلة الفاجرة» المتوفى سنة ٦٨٤ هـ - ١٢٨٥ م عندما علق على قول لوقا: «ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة، وهو على ما كان يُظَن ابن يوسف بن هالي (١). . . «حيث قال:

«ثم إن قضية عيسى في كونه وُلد من غير أب كانت في غاية الشهرة عند بني إسرائيل، حتى آذوا مريم إيذاء عظيمًا برميها بالزنا. ووصلت القضية إلى أقطار الأرض. فكيف يخفى على عيسى ذلك ثلاثين سنة؟».

ونحن نختصر القول اختصارًا ونكتفي بهذه الشواهد من كتب التراث الإسلامي.

* * *

(١) لوقا: ص ٣ : ٢٣ .

(٢) الأجوبة الفاخرة : هامش الفارق ص ٣٣ .

استخلاص النتائج
وحسم المناظرة
بين إنجيل متى والقرآن

وبعد سوق المقدمات، واستعراض الأدلة الصحيحة والموّثقة، نصل إلى النتائج التالية:

النتيجة الأولى:

ثبوت وقوع الاتهام لمريم من معاصريها من اليهود ومن بني قومها، ومعاناتها، ومعاناة ابنها من آثار ذلك.

النتيجة الثانية:

سقوط رواية متى التي ادّعت أن يوسف ستر عليها، وتزوجها، وتبنى ولدها حتى لا يعلم أحد بسرها، وانفرادها بذلك الادعاء الزائف، دون شاهد واحد يشفع لها من نقل أو عقل.

النتيجة الثالثة:

إن سقوط رواية متى، وهي رواية إنجيل معتمد يعتبر الأول بين الأربعة المعتمدة، حسب التقليد عندهم، يوجب عدم حجية هذا الإنجيل سواء في الرواية الساقطة، أو في أي جزء من ذلك الإنجيل بكليته، لأن الذي يكذب مرة لا يمتنع كونه كاذبًا في مرات أخرى أيضًا، خاصة إذا كان كذبه فيما هو ظاهر ومشهور كقصة الميلاد، وقد صح لدينا تكرار كذبه بعد ذلك فيما عرضنا له من قبل من أخباره ومنه قوله بالتعميد بصيغة التثليث: «الآب، والابن، والروح القدس» مما نسبه إلى المسيح، وأسقطناه نحن بخمسة أدلة قررناها في موضعها وهو ما يستتبع بالتالي انتزاع حجاب العصمة المفترضة له من أتباعه، وإزاحته عن مرتبته، والإشاحة عن الثقة بروايته، وهو الأمر الذي خطا إليه المحدَثون والمعاصرون عندما قدموا عليه إنجيل مرقس، إلا أن ذلك لا يكفي، ولا يؤخره إلى موضعه الأنسب له

بين الأناجيل الزائفة.

النتيجة الرابعة:

إن رواية لوقا موجبة بمقدماتها، حسب ما استبطناه من قبل، لنتائج تتناقض تمامًا، وبالكلية، مع رواية متى الأنف ذكرها، مهما كان الوجه الذي نحاول أن نحمل عليه تلك الرواية، وهو ما يستتبع بالتالي إلزام الكنيسة مسئولية هذا التناقض الفاضح، لأن اعتماد روايتين متناقضتين إلى هذا الحد إما يرجع إلى غفلة الكنيسة، وجهالة أربابها أو يرجع إلى استخفافها بجمهور المؤمنين، واستهانتها بوعيهم وإدراكهم، وكلاهما خطيئة كبرى في حق الإنجيل، والعقيدة، وكافة المؤمنين.

النتيجة الخامسة:

إن كل ما قدمناه من إثباتات وأدلة، والنتائج الواجبة عنها، يستلزم الإقرار بالصحة التامة لخبر القرآن بشأن مريم، بما يؤكد الثقة به، والتعويل عليه، كمعيار صالح لحسم الخلاف بين الفريقين في هذه القضية.

كما أن هذه النتائج تستلزم بالتالي من الطرف المسيحي أن يراجع موقفه من القرآن، ويزيد من اعتباره له، وتقييمه لأخباره، وأن يتعفف عن أساليب السفه، والانحطاط الخلقي عن التعرض لشخصية صاحب الرسالة، خاصة وأن في أنبياء العهد القديم الذين يؤمنون بهم، ويتعبدون بكلماتهم، ومن قبلهم تعبد بها مسيحهم، مَن فعلوا مثلما فعل، وأكثر مما فعل، مما يأخذونه عليه، فإذا تحروا ذلك كان أمرًا يمكن أن يؤدي إلى نظر أصح، وعلاقة أفضل في الحوار بين الفريقين.

كما يفرض مثل ذلك أيضًا على الطرف الإسلامي في وجوب البحث الجاد والمتحرر في قضايا الخلاف بين العقيدتين الإسلامية والمسيحية، للارتقاء بمنهج الجدل والحوار، وتهذيب أسسه ووسائله، ولا يعين على ذلك شيء كالتعاون الصادق في هذا المجال بين الفريقين، والاحترام الحقيقي من كلا الطرفين لعقيدة الآخر وفكره، احترامًا نابعًا من قناعة صحيحة بوجوب ذلك وأهميته.

ثم .. ماذا بعد؟!

لقد رأينا فيما سبق ثبوت التناقض بين إنجيل متى والقرآن بشأن قصة ميلاد المسيح، وثبوت وقوع الاتهام لمريم وافتضاحها بين معاصريها من بني قومها من اليهود، وكان يمكن أن ينتهي الكتاب عند هذا الحدّ معوّلين على فطنة القارئ الكريم في استنباط الغايات الصحيحة من وراء هذا العمل، ولكنا رأينا أن نسهم معه في تقرير بعض الدلالات التي نعنيها، توكيدًا لأهميتها، وتثبيتًا لدلالتها، وإيثارًا لتأملها بعناية أكبر، ونظر أدقّ:

فإثبات التناقض بين الإنجيل والقرآن أمر يمثل خطرًا جسيمًا عند المسلم والمسيحي على السواء؛ لكن المسيحيين درجوا منذ وقت طويل، وبفضل دراساتهم الواسعة في أوربا وأمريكا لقضايا البحث في الأديان على ألا يتعلقوا بدعوى إلا وهم واثقون أن شبهتهم يمكن أن تؤتي ثمارها، ويتوافر عندهم مبررها، أو الدافع إليها، فإذا استشعروا أن إثارة قضية ما لا تخدم غاياتهم كما يقدرون لها، استبعدوها تمامًا، واجتهدوا في تجاهلها، وإهالة التراب عليها، كأنهم يخشون أن يعلم بها إنسان، أو يتعلق بها مقال لقائل.

أما المسلمون في زماننا هذا فإنهم يتصدون لهذه الدراسات المقارنة بخطى وئيدة، وأيدٍ مرتعشة، وفكر لم تصقله بعد التجارب الكافية، وينقصه استيفاء الوثائق والمصادر، ومعرفة اللغات التي تمكّن لهم في المواجهة، فمن ثم لا يزال - هذا الحقل بالنسبة لهم بكرًا لم يُطرق بعد على نحو مؤثر، ولم يظهر من أعمالهم فيه ما يظفر باعتبار كبير.

على أننا لا ينبغي أن ندع للخصم أن يكون وحده الذي يحدّد القضية، أو الذي يبدأ بالتصدي، فنحن أيضًا يجب أن نعلم كيف نسير في هذا الطريق وكيف نسلك بالخصم إلى حيث الخيار الصعب.

ومن ثم كانت هذه الدراسة التي أردنا بها إماطة اللثام عن جانب يحذر المسيحيون منه، لأنهم يعلمون مدى خطره، وشدة وقعه. عندما يكتشف الناس أنهم قد أمضوا قرونًا طويلة مغمضي الأعين عن رؤية الحقائق الصحيحة بشأن مسيحهم.

ليس الأمر في دراستنا إذن مجرد إثبات التناقض بين الإنجيل والقرآن في واقعة وقعت، أو حدث مطروح للنقاش، بل الأمر يتعلق أيضًا بقضايا أخرى وراء ذلك قد تكون أحيانًا أكثر أهمية وخطرًا مما يدركه الناس عنها، أو يتصورونه بشأنها.

من هذه القضايا مثلاً أننا نسألهم : لقد رأينا روايتين متناقضتين كل التناقض في قصة الميلاد عند كل من متى ولوقا، فأخبرونا : ممن أخذ كاتب متى روايته التي أثبتنا سقوطها أمام الخبر القرآني، وأجمعت المصادر التاريخية، بل والإنجيلية أيضًا، على بطلانها؟ ما هو سنده في ذلك، وممن وصلته أصول دعواه؟

ومثل ذلك يقال أيضًا عن كاتب لوقا الذي رأينا روايته تتفق إلى حد ما مع نص القرآن: فما هو سنده، ومن يرجع إليه بأصل روايته؟

وإذا صح في نظر المسيحيين حقيقة القول بعذراوية مريم حين ولدت المسيح: فبم ثبت لهم ذلك: أبخبر من المسيح ذاته، أم بخبر من أمه ، أم بخبر من مصدر ثالث لا يحتمل التكذيب؟

فإن كان ذلك قد صح لهم بخبر من المسيح أو أمه فأين هو من الإنجيل؟ وأين الدليل عليه بصحة الإسناد إلى أحدهما أو كليهما؟

وإن كان ذلك قد صح في نظرهم من مصدر آخر لا يحتمل المناقضة أو التكذيب. فليطلعونا عليه. وليعرّفونا به. وليذكروا أين يجدون ذلك من مصادرهم، وأسفار إنجيلهم. وهي قائمة بين أيدينا لا تنطق بشيء من ذلك ولا تدل عليه.

إننا لا نبالي بهواجسهم وتخميناتهم باحتمال ردّ رواية متى إلى يوسف النجار، ورواية لوقا إلى مريم، سترًا للعجز، واحتيالاً على الحقائق، فلا تسليم لنا إلا بالسند الصريح من الإنجيل، أو من كتاب أو رسالة تتلوه عندهم في الأهمية والتقديس.

ومع ذلك فلو كانوا يعرفون المصدر، أو يدركون لدعواهم سندًا من الأسانيد فلماذا تجاهلته أناجيلهم وتجاهلوه هم، على مدى الحقب والأجيال، بلا ذكر او تقرير؟!

كما نسألهم أيضًا: لقد قلتم عن المسيح إنه «كلمة» الله، وذكر ذلك إنجيل يوحنا في أول آية منه، فهل قال ذلك من نفسه، أم أخذ ذلك عن أصل يرتدّ إلى المسيح ووالدته؟ فإن كان قد قال ذلك من نفسه فلا إلزام على أحد بهذا الاعتقاد، وإن كان قد قال ذلك نقلاً عن أصل من المسيح أو الدته فأين الإسناد ، وأين الدليل؟

لقد رأينا من قبل أن كاتب متى يسند كل حجته في ولادة المسيح من عذراء إلى عبارة إشعياء: «ها العذراء تحبل وتلد ابنًا»[1] . . فمن أين له أن تلك العذراء هي مريم الناصرية؟ ومن أين له أن المسيح المنتظر من اليهود سيولد من عذراء؟ ومن أين له، أو لغيره، أن إشعياء ربط بين مسيح اليهود المنتظر والولادة العذراوية؟ أهناك سخرية بالناس، واستخفاف بعقولهم أكبر من هذا؟!

بل أليس من المضحك أن كاتب متى الذي يستشهد بتلك العبارة لإشعياء هو نفسه الذي يدّعي أن أحدًا لم يعلم بحمل مريم حملاً عذراويًا غير يوسف الذي «كان بارًا . ولم يشأن أن يُشهرها»[2] ومن ثم استجاب لما رآه في الحلم لوقته، وتزوجها، وتبنى ولدها، وسماه، ونسبه إليه؟!

فإن صح زعم كاتب متى هذا، فمن أين علم الناس أن يسوع، وُلد من مريم وهي

---

(١) إشعياء : ص ٧ - ١٤ (٢) متى: ص ١ : ١٩

عذراء، ولم يولد منها من علاقة يوسف، أو شخص آخر بها؟ أكان على الناس أن ينتظروا كاتب متى حتى يوافيهم بهذا الخبر المضحك الذي لا يتناسب لحظة واحدة مع ما قيل وأُشيع عن مريم من اتهام وتشنيع من معاصريها من الأقارب والجيرة وأهل المدينة؟ ومَن هذا الذي يمكن أن يفرض على الناس أن يُصدّقوا كاتب متى وهو يدّعي الأمر ادّعاء. فلا يسنده إلى المسيح أو والدته، أو حتى إلى المسكين يوسف رغم استحالة إسناد شيء من ذلك إليه، وإنما يُبوّق به تَبْويقًا كأنه لا يصدر إلا من نفسه، ولا أصل هنالك وراءه وقبله؟! فهل هذا هو الإسناد يا أصحاب الإنجيل؟ وهل هذا هو غاية التاريخ والتحقيق، والبحث والتوثيق، أن ينتهي بدء أمركم إلى فراغ . وأصل دعواكم إلى أوهام؟!

إن انتفاء السند من رواية الميلاد عند كل من كاتبي متى ولوقا يجب أن يستوقف النظر طويلاً لتقييم الأناجيل تقييمًا واقعيًا يميط عنها تمامًا لثام العصمة المزعومة لها ولكتبتها، ويوقف المسيحيين على مواضع الخلل في الإنجيل والعقيدة معًا، وينير أمامهم الطريق إلى رؤية أفضل، ومسلك أقوم.

وإذا كان التناقض قد تأكد بما بيّنا؛

وإذا كان انتفاء السند واضحًا كم ذكرنا:

فقد نشأ من أثر ذلك خطأ بالغ في التعرف على صورة مريم وصورة المسيح عند معاصريهما من اليهود.

وقد ثبت مما قدمناه من قبل وقوع الاتهام من اليهود لمريم، بصرف النظر عن صحة الاتهام في ذاته أو عدم صحته.

وقد أدى وقوع هذا الاتهام بالتالي إلى خلق صورة شائهة لمريم والمسيح في نظر قومهما ومعاصريهما من اليهود راحا يعانيان بعد ذلك من آثارها الوبيلة في نفوس هؤلاء بما عكسته من سلوكياتهم إزاءهما على نحو مضادّ لرسالة المسيح وشخصه معًا.

ومع ذلك، فقد عكفت الكنيسة عشرين قرنًا كاملة تصور للمسيحيين أن مريم قد عاشت حياة طبيعية عادية كزوجة ليوسف، وأم للمسيح، من علاقة شرعية صحيحة، دون شائبة ما تشوب صورتها في نظر معاصريها من بني قومها من اليهود.

وكذلك فعلت الكنيسة بشخص يسوع، فجعلته ينشأ نشأة عادية طبيعية بين والدين لا تشوب حياتهما شائبة في السيرة والسلوك، ولا يأخذ عليهما أحد من معاصريهما أي مآخذ. فمن ثمة نشأ راضيًا هانئًا سعيدًا، واثقًا بنفسه وأسرته، مطمئنًا إلى الفكرة الحسنة عنه وعن والديه في نظر المجتمع.

على أننا نقول إن هذا ليس من الحق في شيء!

ولو أن الكنيسة حرصت على طلب الحق لذاته لاكتفت برواية لوقا، ولكانت تعكف عليها تستقرئ مقدماتها، وتجتهد في استنباط نتائجها ودلالاتها، وعندئذ كانت تعلم علم اليقين مدى بعدها عن الحق، وتماديها في الخطأ، بالتعويل على رواية متى المنقوضة الأصل والأساس. ولكنها آثرت أن تسلك مسالك غريبة أوهمتها أن تحسين صورة مريم وابنها في نظر معاصريهما يحمي ديانة المسيح، ويسبغ عليها فضلاً وقيمة، ويعصمه من طعنات أو مآخذ تنال منه، وتحط من قدره. وإذن فالحق في نظر الكنيسة ليس مطلوبًا لذاته، وإنما الحق عندها هو ما حقق غاياتها، حتى وإن كان هو الباطل بعينه.

لقد غاب عن الكنيسة أن صورة المرء في نظر معاصريه تنعكس سلبًا وإيجابًا على العلاقة بينه وبينهم، وأن الفرد الذي تسوء صورته في نظر الناس، ولو بطريق الخطأ، يكابد من آثار ذلك في الاقتراب منهم، والتعامل معهم، ويفتقد روح التعاطف والمودة، ويعيش في عزلة مميتة، وتقصّر به أسبابه عن غايات كثيرة يسعى إليها، أو يؤمل فيها، أو يحلم ببلوغها.

ومن خلال الشواهد والأدلة التي أتينا بها من قبل لتعضيد الخبر القرآني، يتضح أن مريم كانت متهمة من اليهود في حالي حملها وولادتها ليسوع، كما يتضح

أيضًا أن يسوع ذاته قد عانى من آثار ذلك الاتهام لوالدته في مراحل حياته كلها منذ طفولته، وإبان رسالته.

وبتدبّر حياة مريم التي عاشت حوالي الستين عامًا لا نراها عرفت الحياة الطبيعية على وفاق مع النفس والمجتمع إلا في الاثنى عشر عامًا الأولى قبل حملها بيسوع. أما الأعوام الطويلة التي قضتها بعد ذلك حتى وافاها أجلها المحتوم فقد انصرمت في ظلام الاتهام بمواقعة الخطيئة، والمعاناة من ازدراء الناس لها، وانصرافهم عنها، وتندّرهم بسيرتها.

وتضاعفت تلك الآلام بما كانت تراه في مقاساة ولدها في مراحل حياته كلها من أثر صورتها السيئة في نظر الناس.

هذا هونصيب مريم من المعاناة، رغم علمها بأنها بريئة!!

فماذا عن نصيب ولدها من تلك المعاناة؟!

علينا أن نتصور طفلاً بريئًا يتفتح على الدنيا بإشراقة الفرح، فإذا به يرى أعين الناس تنزوي عنه وتزدريه، وكلما تقدم في مراحل عمره، رأى الأمر يتكشف في كل مرحلة أسوأ مما كان في التي قبلها، فتتضاعف الآلام على قلبه، وتضيق به الدنيا، ويظلم الكون وتختلّ الموازين، وتنقلب القيم.

ولماذا كل ذلك؟

لأن أمه متهمة في نظر المجتمع!!

علينا إذن أن نضع أنفسنا موضع يسوع لنستطيع أن نتصور مجرد لمحة خاطفة من تلك المأساة الفاجعة التي عاشها ذلك الإنسان.

وعلينا أن نتصور مدى ما ينطوي عليه قلبه الجريح من آلام ساحقة وهو يتأهب للتبشير برسالته لاستنقاذ الذين يدينونه بسبب أمه، ويشيحون بوجوههم عنه، وإذا بهم يلمزونه، ثم ينبزونه بأسوأ الألقاب، لا يعتصمون بأدب أو خلق، ولا يصدّهم عنه دين ولا مروءة.

علينا أن نتدبر كل ذلك لنرى صورة مريم على ما بدت به في نظر معاصريها من قومها، ولنرى أيضًا صورة يسوع في نظر معاصريه من قومه، ومدى انعكاس ذلك كله عليه وعلى تعاليمه، وعلى نفوس أتباعه، عندما يصير له أتباع!

لذلك لا ينبغي أن نعجب مما رأيناه من قبل من انزعاجه عندما كان يرى وجه والدته يلوح في جمع من الناس هو فيه، فهو لا ينزعج منها كخاطئة، كما هو الظن عنها في نظر الآخرين، بل ينزعج لأن حضورها يوقظ في تلك النفوس الضعيفة الملتاثة تلك الصورة الخاطئة عنها التي ينبغي أن تمحى، ويمحى كل سبب يؤدي إليها، أو يذكّر بها.

هكذا ينبغي أن نتعرف على صورة يسوع وعلى صورة والدته في نظر بني قومها من اليهود من أهل عصرهما، وحينئذ قد نستطيع أن نقرأ القرآن والإنجيل معًا قراءة أفضل، ونعى تلك الأحداث الجسيمة التي أحاطت به، واصطرعت آثارها في قلبه ووجدانه.

وهنا نجد أنفسنا مقودين تلقائيًا إلى أن نرى معاناة يسوع تنعكس جلية على رسالته وتعاليمه.

ولا ندري : أهي معاناة يسوع التي صاغت رسالته، وحدّدت إطارها وأهدافها؟ أو هو قدره أن يلبس رداء الخطاة، وينصهر بنار المعاناة، لتتألق روحه السامية ويشعر بمدى حاجة الخطاة والساقطين إلى كلمة العفو، ووسيلة الخلاص، ومرفأ النجاة؟

إن أحوال يسوع لتنعكس واضحة في كلماته الباقية من شعو ربالحزن والمسكنة، ورغبة في المحبة، ومهادنة للآخرين، واتسام بالوداعة، وجنوح إلى السلام:

«طوبى للمساكين بالروح، لأن لهم ملكوت السموات».

«طوبى للحزانى، لأنهم يتعزّون».

«طوبى للودعاء، لأنهم يرثون الأرض».

«طوبى للجياع، والعطاش إلى البرّ ، لأنهم يُشبعون».

«طوبى للرحماء، لأنهم يُرحمون».

«طوبى للأنقياء القلب، لأنهم يعاينون الله».

«طوبى لصانعي السلام، لأنهم أبناء الله يُدْعَوْن».

«طوبى للمطرودين من أجل البرّ ، لأن لهم ملكوت السموات»[١].

ويحض على التغاضي عن زلات الآخرين، وعلى الغفران لهم:

«فإنه إن غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أيضًا أبوكم السماوي».

«وإن لم تغفروا للناس زلاتهم، لا يغفر لكم أبوكم أيضًا زلاتكم»[٢].

«فكونوا رحماء، كما أن أباكم أيضًا رحيم».

«ولا تدينوا فلا تدانوا».

«لا تقضوا على أحد فلا يُقضى عليكم».

«اغفروا ، يُغفر لكم»[٣].

وكان يندد بالمرائين الغارقين في الإثم والخطيئة ويعايرون غيرهم، ويتسقطون لهم الهفوات:

«لماذا تنظر القذى في عين أخيك، وأما الخشبة التي في عينك فلا تفطن لها؟».

«أو كيف تقدر أن تقول لأخيك :يا أخي دعني أخرج القذى الذي في عينك، وأنت لا تنظر الخشبة التي في عينك؟».

---

(١) متى: ص ٥ : ٣ - ١٠ (٢) متى: ص ٦ : ١٤ - ١٥

(٣) لوقا: ص ٦ : ٣٦ - ٣٧

«يا مرائي: أخرج أولاً الخشبة التي في عينك، وحينئذ تبصر جيدًا أن تخرج القذى الذي في عين أخيك»[1].

إن كلمات يسوع لا تنفصل عن حياته وانفعالاته، وهي من ثم انعكاس صريح صادق لما كان يحس به، ولما كان يفتقده في الناس. لذلك تأسست رسالته على الغفران والمحبة، ودعت إلى البر وأغرت بالسلام، لتطهير من تلوثت قلوبهم وأيديهم، وضلّوا سواء السبيل.

وبعد . .

فلعل ما ألمحنا إليه يكفي أن يكون حافزًا للباحثين والعلماء أن يستأنفوا البحث في حياة المسيح، وحياة والدته، في إطار جديد من خلال الاتهام لمريم من معاصريها، وإن كانت هي في حقيقة أمرها فاضلة عفيفة. لكن الناس لا يسلكون حسب الحقائق في ذاتها، وإنما حسب ما يبدو لهم وما يسبق إلى ظنونهم وأوهامهم ومن ثم ينبغي أن نرى انعكاس فكرتهم عن مريم على سلوكهم بعد ذلك إزاء المسيح ورسالته، وما كان من صدى ذلك وأثره في نفسه وتعاليمه.

إن مريم والمسيح ينبغي أن يُبعثا من جديد في تجرد شريف يرتفع على أهواء المنحرفين من هذه الملة أو تلك. وعندئذ قد ينبثق نور نقي يضئ للسالكين في الظلمة، ويكشف لهم الطريق السوي إلى الحق الكريم.

حسني يوسف الأطير

(١) لوقا : ص ٦ : ٤١ - ٤٢ .

الفهرس العام

المحتويات

إصدارات مكتبة النافذة فى
مقارنة الأديان

* الله واحد أم ثالوث .... د. المستشار / محمد مجدى مرجان
* المسيح إنسان أم إله .... د. المستشار / محمد مجدى مرجان
* محمد ﷺ نبى الحب .... د. المستشار / محمد مجدى مرجان
* بذل المجهود فى إفحام اليهود .... السموأل بن يحيى المغربى
* النصرانية والإسلام .... المستشار / محمد عزت الطهطاوى
* محمد ﷺ نبى الإسلام (فى التوراة والإنجيل والقرآن) .... المستشار / محمد عزت الطهطاوى
* لماذا أسلم هؤلاء .... المستشار / محمد عزت الطهطاوى
* الإنجيل والصليب .... الآب / عبد الأحد داود الأشورى
* سر مريم .... حسنى يوسف الأطير
* عقائد النصارى الموحدين .... حسنى يوسف الأطير
* المواجهة بين القرآن والإسرائيليات .... حسنى يوسف الأطير
* البدايات الأولى للإسرائيليات فى الإسلام .... حسنى يوسف الأطير
* المذهب الدهرى عند العرب .... حسنى يوسف الأطير
* على هامش الحوار بين القرآن واليهود .... حسنى يوسف الأطير
* شبهات مسيحية معاصرة حول الإسلام (حائرون أم معاندون) .... حسنى يوسف الأطير
* تقويم الاعتقاد بين القرآن والنصارى الموحدين حسنى يوسف الأطير
* تحفة الأريب فى الرد على أهل الصليب أنسلم تورمبد (الشهير بعبد الله الأندلسى)
* المناظرة الكبرى فى مقارنة الأديان .... د محمود على حماية
* التثليث (بين الوثنية والمسيحية) .... د محمود على حماية
* دراسات فى الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد) د محمود على حماية

* يأجوج ومأجوج بين التوراة والقرآن ...... د. أحمد حجازى السقا
* أهل الكهف (بين الإسلام والمسيحية) .... د. أحمد حجازى السقا
* يوحنا المعمدان (بين النصرانية والإسلام) ... د. أحمد حجازى السقا
* الأرواح وحياة القبور (بين المسلمين وأهل الكتاب) .... د. أحمد حجازى السقا
* هيكل سليمان (عند المسلمين وأهل الكتاب) د. أحمد حجازى السقا
* الصابئين (الأمة المقتصدة) .... د. أحمد حجازى السقا
* معركة هرمجدون ونزول عيسى والمهدى المنتظر (فى التوراة والإنجيل) .... د. أحمد حجازى السقا
* بروتوكولات حكماء صهيون وأصولها التوراتية والتلمودية .... د. أحمد حجازى السقا
* تاريخ العرب القديم (من سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى سيدنا محمد ﷺ) .... د. أحمد حجازى السقا
* نقد التوراة (أسفار موسى الخمسة) .... د. أحمد حجازى السقا
* الحج إلى الكعبة (فى التوراة والزبور والإنجيل والقرآن)............ د. أحمد حجازى السقا
* الكنز المرصود فى قواعد التلمود .... د. روهلنج / شارل لوران
ترجمة : يوسف حنا نصر الله
* الرد على أصناف النصارى .... علّى بن ربن الطبرى
* المناظرة التاريخية (بين الشيخ رحمة الله الهندى والقس بيفندر) ....
* إظهار الحق .... الشيخ رحمة الله الهندى
* الفارق بين المخلوق والخالق .... للأستاذ عبد الرحمن أفندى باجة جى زادة
* رسالة فى اللاهوت والسياسة .... سبينوزا ـ ترجمة : حسن حنفى
* القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ... موريس بوكاى



سر مريم

بين الإنجيل والقرآن

مكتبة النافذة